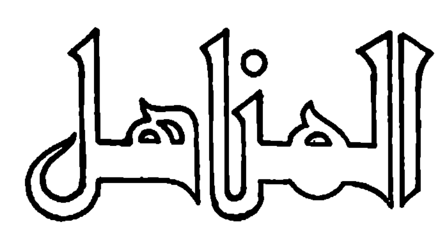
المناهل



10





تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد العاشر
السنة الرابعة

ذو الحجة 1397
نوفمبر 1977

الفهرس

صفحة

قصة تاريخية

حارس الكنيسة

عبد الله كنون

سمع حارس الكنيسة العظمى بمدينـــة جنـــوة فى جوف الليل ، حركة غير عادية داخل الكنيسة وكان وهو مستغرق فى النوم قبل أن توقظه هذه الحركة ، يحلم بقداس كبير يقام فى الكنيسة ، حضره القساوسة والرهبان ، والكبير والصغير مـــن سكان جنوة وخاصة أهاليها وعامتهم .

ولما صحا من نومه وتأكد من الحركـــة التى سمعهـــا ، نهض ينظر ماذا فى الكنيسة ، ومـــا هو مصدر تلـــك الحركة ، فاذا به يجد فرسا جامحا قد دخل الكنيســـة وهو يشتـــد فى رحابها جيئة وذهوبا . فشده مما رأى ، وعلـــم أنـــه نسى أن

يغلق باب الكنيسة ، فمال على نفسه باللوم ، ولعن الفرس الذى سبب له هذه الورطة ، وقطع عليه الحلم الجميل الذى كان ينعم به فى نومه .

ثم سار الى الفرس واحتال عليه حتى تمكن منه ، فقاده الى خارج الكنيسة بعيدا عن ساحتها ، وألهب ظهره بالسياط ، فجرى الى حيث لم يعد يراه ، ورجع هو الى الكنيسة فأغلق بابها ، ودلف الى مرقده وهو يجر نفسه من التعب .

ولم يكد ضوء النهار ينتشر ، وتدب الحياة فى المدينة حتى أخذت أجراس الكنيسة تدق ، معلنة باقامة حفلات دينية كبرى . وصار السكان يتقاطرون على الكنيسة فى ايمان وخشوع ، واكتست المدينة حلة زاهية من الفرح والابتهاج ، وماج الناس بعضهم فى بعض ، يتناجون ويتباشرون ، كما يكونون أيام الاعياد والمناسبات القومية السعيدة ، ولئن كان فيهم من يتظاهر بالاستخفاف وعدم المبالاة ، فيمر مسرعا كأن الأمر لا يعنيه فى شىء ، فان ذلك لا يؤخذ دليلا على ضعف الايمان ورقة الدين ، وان كانت دلالته على الشك والارتياب واضحة لا خفاء بها .

وعلى كل ، فقد كان الحادث مفاجأة سارة لسكان جنوة ،

فمنهم من اعتبره تكريما لمدينتهم وعلامة رضى عن الجنويين المومنين لتميزهم باليقين الصادق والعقيدة الصحيحة ، ومنهم من عده تأمينا لجنوة وحمـــاية لهـــا من جميـــع الطـــوارىء والمخاوف وهجمات الاعداء ، أما رجال الدين فلم يترددوا فى أنه تزكية لهم وشهادة باستقامتهم ، ثم هو تقديس لكنيستهم التى أصبحت منذ اليوم ، تفوق غيرها من الكنائس لما حصل لها من الشرف العظيم .

وما كان صاحبنا الحارس لينبس ببنت شفة ، وهو يرى ويسمع ما يجرى وما يقـــال ، لأنه مهدد على الاقـــل بتهمـــة الاهمال وعدم القيام بواجبـــه كحارس للكنيســـة العظمى ، فكيف اذا نطق بالحقيقة وبين للناس أنهم فى ضلال يعمهون ، انهـــا الهـــرطقـــة حيـــنـــئـــذ وتهمـــة الالحـــاد والكـــفـــر الـــبـــواح .

ولو قدر لأولئك الشاكين والمرتابين أن يتحدثـــوا اليـــه ، وأمكنه أن يفضى اليهم بخبيئة نفسه لتغير وجـــه القضية من أمر خارق للعادة ، الى حادث بسيط يمكن أن يقع فى كل وقت وفى أى مكان لنفس السبب الذى وقـــع بـــه ، ولا يستوجـــب الا القليل من الاهتمام ، من القليل من الناس .

واكن أنى لهـم أن يهتـدوا لسـؤال الحـارس ، أو أن يقوموا ببحث فى الموضوع . والظروف الزمانية والمكانية كلهـا كانت ضداً على كل نزعة من هذا القبيل ، فليس الا الخضوع والاستسلام ان مع الايمان أو مع عدمه ، لمن أراد النجاة وعدم التورط فيما لا تحمد عقبـاه .

وغصت الكنيسة بالمومنين من جميع الطبقات ، رجـالا ونساء ، وبرز القساوسة والرهبان فى زينة بديعة ومعهـم الاطـفـال الصـغـار يـحـمـلون الصلبـان والمبـاخـر والشمعدانات الثمينـة ممـا يضفـى على المكـان جـواً من الرهـبـة والخـشـوع ، وبـدأت الترانـيـم الديـنـيـة المؤثرة تتخللهـا أصوات رخيمة جميلـة للبنـات والصبيان . وأقيمت صلاة الشكر للـرب الأب الـذى فى السمـاوات على ما اختص به مدينة جنوة وكنيستها من فضل عظيم ، وألقـى الأسقف الاكبر خطبة رائعة ، تحدث فيهـا عن المعجـزة التى حصلت فى الليلة السابقة حين زار السيـد المسيـح كنيستـه العظمى بجنوة ، ونزل اليها من الاعالى ممتطيا غرسا فارها ، فتلقته بغاية الشوق واللهفة ، وانفرجت له سقوفها وجدرانها حتى حل برحابها ثم عادت فالتأمت بعد صعـوده ، والأبواب

كلها موصدة ، لم يستعمل واحدة منها . وهل هو بحاجة الى الأبواب والمنافذ ليتصل بأبنائه ويحل بينهم متى شــاء وانى شــــــاء ؟ ! .

ثم كشف الاسقف الغطاء عن صحن رفيع كان بين يديــه وبه بعض روثات طرية وجدت بالكنيسة فجــر اليوم نفسه ، فهى ولا شك من أثر الفرس الذى تمت به الزيــارة الكريمــة المحتفل بها ، وأقبــل الحــاضرون على الصحــن يتأملــونه ويتمسحون به ويود كل واحد لو أخذ شيئا منه على سبيــل التبرك ، مهما قل وضؤل . الا الحارس الذى كان يعجب لمــا يرى وتعتمل فى نفســه بواعث الشك والحيرة ، نفيما يــرى القداس العظيم الذى حلم به أول الليل هو نفسه الذى يقــام الآن يقظة لا مناما ، يخطر فى باله المناسبة التى يقام بها هذا القداس وحقيقتها التى يعلمها هو حــق العلم ، ثم يحاول أن يخطىء نفسه ويقول لعل الامر كما يظنون ، لكنه يذكــر أن الفرس كان جامحا وأنه كان عريا وأنه ربمــا عرفــه من بين أفراس أهل المدينة ، وأنه لم يكن يصحبه أحــد لا راكبــــا ولا راجلا ، وأنه قاده بنفسه الى خارج الكنيسة وضربه حتى عدا وابتعد عن رؤية بصره ، فكيف يكون ما يسمعــه صحيحا وخصوصا عن انفراج سقف الكنيسة ونزول الفرس من أعلى ،

وهو يعلم أنه نسى باب الكنيسة مفتوحا ومنه دخل الفرس ، وأنه لما أخرجه عاد فأغلق الباب بيده ، فكيف يقبل أن الفرس صعد الى فوق ولم يخرج من باب ولا منفذ ؟ . .

وانطوى على نفسه حائرا أشد ما تكون الحيرة ، لا يدرى ما يفعل ، وصار الى حالة من الوجوم فقد معها كل نشاطه ، ولم يعد يأنس بأحد ، انه يخاف أن يفرط منه ما يظهر الناس على سريرته . لقد تضعضع ركن الايمان المسيحى فى قلبه ، وتغيرت نظرته للاشياء ، فأصبح يشك فى كثير من الامور التى كانت عنده حقائق مسلمة ، وسيطر عليه الهم والحزن ، فكنت لا تراه الا هائما على وجهه شارد الفكر ، لا يقر له قرار ، فبينما هو فى رحاب الكنيسة يتلهى ببعض الاعمال ، اذا به يتسكع فى طرق المدينة من غير قصد ولا حاجة ، وتعود أن ينزل الى الميناء ، يسرح نظره فى البحر وينشق نسيمه المنعش واستأثرت بانتباهه حركة المراكب البحرية الصادرة والواردة ، وخصوصا هذه التى ترد من الضفة الاخرى للبحر ، وكانت بين جنوة والمغرب خطوط مواصلات بحرية منتظمة فلم يفتأ يلاحظ أحوال هؤلاء البحارة الغرباء والركاب الذين يقدمون معهم ويستفسر عن شؤونهم ، ويتتبع مواعد ذهابهم وايابهم ، حتى أنس بهم وتعرف الى أكثرهم وانعقدت بينه

وبين بعضهم صداقة أدت الى أن عزمه ذات يوم الى بيتــه ، فبات عنده ، ورآه حين استيقــظ فى الفجــر وتوضــأ وصلى الصبح فسأله عن عمله ذاك فأخبره أنه عبادة وصلاة لله عز وجل ، مفروضة على المسلم خمــس مــرات فى اليــوم وزاد سائلا عن مضمون هذه الاقوال التى سمعه يرددها فى صلاته وعقيدة المسلم ما هى ، فبين له ضيفه وصديقه بقدر مــــا يستطيع كل ما سأله عنه ، وهو يستوعب ما يسمع ولا يعلــق بشــــــىء .

ومرت أيام وأيام وهو على حاله من التهمــم والشرود ولا أحد يعرف ما ينطوى عليه صدره ولا ما يجول فى خاطره حتى صديقه المغربى الاجنبى عن بلاده وقومه ، لم يكن يعرف شيئا من دخيلته ، لأنه لم يفض اليه بذلك قــط ، الا أنــه فى بعض الايام كاشفه بأنه يريد زيارة المغرب فهل يأخذه معه ؟ ولما رحب الصديق به سأله أن يكتم الامر ويخبره بيوم ابحار المركب من جنــوة عائدا الى المغرب وهكذا حين حان الموعــد وأقلعت السفينة المغربية من ميناء جنوة كان صاحبنا حارس الكنيسة مختبأ فى احدى زواياها يحدث نفسه بما أقبل عليه من تجربة حاسمة فى مستقبل حياته .

وسارت السفينة تمخر عباب اليم متباطئة تارة ومسرعة أخرى ، بحسب ركود الريح وهبوبها ، وكلما اقتربت من وجهتها وابتعدت عن محل قيامها هاج الشوق بالمسافر الغريب، وتساءل عما بقى من المسافة ومتى يكون الوصول ، وصديقه المغربى يطمئنه ويحدثه عن بلاد المغرب وما سيجده فيها من المتعة والراحة الى أن صارت معالم هذه البلاد تلوح له من بعيد ، والبحارة يسمون له كل نقطة باسمها ويشرحون له ما خفى عليه ، ثم بدأوا يستعدون للنزول وأخذت السفينة تتلمس مدخلها الى مدينة الرباط ، ولم يمر الا قليل من الوقت حتى كانت قد أرست بالشاطىء المغربى الجميل .

وكانت الرغبة الاولى للقادم الغريب هى الاتصال بالرئيس الدينى للبلد ، ولما أفهمه صديقه المغربى أنه ليس هناك رئيس دينى فى الاسلام ، وكل ما هنالك علماء دينيون وقاض يحكم بشرع الاسلام ، سأله أن يوصله الى القاضى ما دام هو صاحب السلطة القانونية .

وصحبه صديقه الى محكمة القاضى ، وحين مثل بين يديه أظهر رغبته الملحة فى اعتناق الاسلام والانسلاخ من دين النصرانية ، ورحب به القاضى غاية الترحيب ولقنه الشهادتين وعرفه بقواعد الاسلام والعقيدة الصحيحة فى

المسيح عليه السلام وسماه عبد الله وكتب له رسما عدليا بذلك .

وكان فرح صديقه وسائر البحارة بدخوله فى دين الاسلام عظيما ، وعجبوا من حكايته التى كانت السبب فى انحرافه عن دينه السابق ، واحتفلوا به وعرفوا به أصدقاءهم، وصاروا جميعا يتعهدونه ويقضون له مآربه بحيث لم يشعر بغربة ولا أحس بفرقة موطن . وقد غمرته سعادة روحية طفحت على جميع جوارحه وملامحه وجعلته يعتقد كأنه ولد من جديد .

وصادف أن يهودية أسلمت فى تلك الايام ، فتزوجها ورزق منها ولدا سماه رضوانا ، لأن ما أنار طريقهما وألف بين قلبيهما هو معرفة الحق والاستبطان الروحى لكلمة الله التى أوحاها الى رسله الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام فقد كان هذا الولد بعلمه وعمله مرآة تعكس التعاليم الالاهية الثابتة فى الكتب السماوية التى أوتيها الرسل المذكورون ، وهو الرجل الصالح الذى عرف فى التاريخ باسم الشيخ رضوان الجنوى وكان يقول : خرجت من بين فرث ودم (*) .

طنجة **عبد الله كنون**

(*) لهذه القصة واقع تاريخي لم نتصرف فيه الا بما تتطلبه الحبكة الفنية لصوغه فى صورة عمل أدبي .

من أجل حوار بين الحضارات

محمد العربي الخطابي

« سأل السيد دوبوا السيدة نوزييـــر عن أشأم يوم في تاريخ فرنسا فلما تحر جوابا قال لها : انـــه يوم معركة (بواتييه) من سنة 732 الذي تقهقـــرت فيه الهمجية الفرنجية أمام الحضارة والفن العربيين»

أناتول فرانس

علق المفكر الفرنسي المعاصر روجيه غارودي على هذا الكلام بقوله : « سيبقى هذا النص محفوظا في ذاكرتي دائما ، فهو قد تسبب في طردي من تونس سنة 1945 بدعوى ترويـــج أقوال معادية لفرنسا ! لقد كان من المحظـــور أن يقـــال ان الحضارة العربية كانت لها ، الى القرن الرابع عشر ، اليد الطولى على الحضارة الاوربية » (1) .

(1) Roger Garaudy - Pour un dialogue des civilizations - Editions Denoël, collection « Coudées franches », Paris, 1977.

وقبل أن أشرع فى تقديم كتاب غارودي الجديد « من أجل حوار بين الحضارات » ــ ولا سيما القسم الذي استعرض فيه بعض مظاهر الحضارة الاسلامية وأثرها فى تقدم العالم ــ أود أن أذكر بأن الاستعمار الغربى كان يتعمد ، أيام تحكمه فى كثير من ديار الاسلام ، طمس كل أثر يمكن أن يدل المسلمين على حضارتهم الزاهرة كما يتعمد تشويه الحقائق المتصلة بهذه الحضارة فى مظاهرها الروحية والفكرية والمادية .

وأذكر مثالا يدل على سخف عقلية المستعمرين وقصر نظرهم . ففى عهد الحماية البائد كان تاريخ اسبانيا من جملة المواد المفروضة على المدارس الحكومية فى شمال المغرب وكان المتن الاسبانى المعتمد فى هذه المادة مشتملا على فصل يتحدث بايجاز عن عهد الحكم الاسلامى فى الاندلس ، باعتباره جزءا متمما لتاريخ هذه البلاد ــ فعمدت السلطات المشرفة على التعليم الى بتر كل الصفحات التى تستعرض عصر الحكم الاسلامى فى اسبانيا ــ أي أكثر من سبعة قرون من تاريخها ــ وكان البتر واضحا فى الكتاب يدل عليه ترقيم الصفحات والفهرس. وكان الدافع الى هذا العمل السفيه حرص « الحماة » على أن يبقى التلاميذ المسلمون جاهلين بأن اسبانيا قد عاشت فى ظل الحضارة الاسلامية أحقابا طويلة من الزمن !

وشبيه بهذا ما وقع لغارودي الذي كان فيما يبدو مدرسا فى تونس أيام الحماية الفرنسية فطردته السلطات الاستعمارية لمجرد كونه نقل الى تلاميذه كلاما لاناتول فرانس ــ وهو أحد

كبار أدباء فرنسا فى العصر الحديث ــ يلمح فيه بنوع من التهكم الى هزيمة الفرنجة (نسبة الى شعب الفرنك) أمام الحضـارة الاسلامية فى معركة « بلاط الشهداء » التى خلق منها بعض مؤرخى الغرب أسطورة لا تثبت أمام حقيقةالتاريخ كما سنرى فيما بعـد .

والواقع أن تعصب كثير من رجال الغرب جعلهم يستطيبون ترويج أوهام منافية للعلم مجافية للحقيقة وبعيدة عن الموضوعية ، فزيفوا التاريخ وأشاعوا هذا الزيف بين الطلاب بما صنفوه وكتبوه أو ترجموه .

ولم يسلم الدين الاسلامى نفسه من زيف الزائفين فراجت عنه أباطيل قدمت للناس على أنها حقائق . فهذا ريجيس بلاشير، المستعرب الفرنسى يبين فى مقدمة كتابه عن القرآن كيف عمد بعض المؤلفين القدامى الى ترجمة كتاب الله العزيز ترجمات مشوهة بدافع من روح صليبية معادية للاسلام . يقول بلاشير: « من المرجح ان بطرس الموقر ــ الذي رحل الى اسبانيا بين 1141 و 1143 ــ هو الذي فكر ، بتأثير من روما ومن البابا ، فى ترجمة القرآن الىاللاتينية فأوعز بذلك الى روبيرد ريتين (R. de Rétines) الذي تولى عمل الترجمة بمساعدة بعض الرهبان . وقد جاءت هذه المبادرة بدافع من روح صليبية ، تدل على ذلك رسالة بطرس الموقر الموجة الى (القديس برنـار)

مع نسخة من الترجمة المنجزة ، كما كان الداعى الى هذا العمل الحاجة الى محو أثر الايمان من نفوس معتنقى الاسلام » (2).

والغريب أنه ما زال فى أوربا وأمريكا الى أيامنا المعاصرة هذه مفكرون ومؤرخون محترمون يزعمون ، فى محاولة مقصودة لاخفاءرفد الحضارة الاسلامية وأثرها فى تقدم العلوم والآداب والفنون ، أن منابع حضارة الغرب هى اليونان وروما فحسب . ومن هؤلاء من ادعى أن الفتوح الاسلامية فى العصور الوسطى لم تكن الا زحفا همجيا على أوربا وأن هذا الزحف قد أمكن صده على يد شارل مارتيل فى بواتييه .

وما يزال فى أوربا أيضا أساتذة جامعيون يتقولون على القرآن أراجيف يكتبونها كشأن ذلك الاستاذ بجامعة ليون الذي أشار اليه موريس بوكاي فى مؤلفه عن الكتب السماوية والعلم الحديث الذي قدمناه لقراء « المناهل » فى العدد الثامن من هذه المجلة . وقد زعم ذلك الاستاذ — ذو المنبر — أن القرآن انما يسرد سيرة محمد .

غير أنه مما ترتاح اليه النفس مواقف قلة من كتاب الغرب ومؤرخيه فى العصر الحديث أعلنوا لقومهم حقائق ناصعة عن اسهام الاسلام وأهله فى الحضارة الانسانية .

وقد شهدت أوربا ، وشهدنا معها فى السنين الاخيرة ، جهودا منصفة تجلت فى مهرجانات وندوات ثقافية ناجحة أقيمت

(2) Régis Blachère - Le Coran - P.U.F. Paris, 1966.

للتعريف بالاسلام كمهرجان الحضارة الاسلامية الذي أقيم فى انجلترا فى السنة الماضية ، وكندوة مونبيلييه التى انعقــدت فى شهر ماي الاخير بهذه المدينة واستعرض خلالها عــدد مـــن الباحثين الفرنسيين والعرب صفحات مشرقة عــن الحضـــارة الاسلامية وأثرها فى التقدم الانسانى .

ثم ان تلك الجهود قد أثمرت أيضا فى ميدان التأليف فظهرت فى أوربا وأمريكا مؤلفات نذكر منها :

1 ـــ رجال الاسلام ، ومؤلفه لوي غاردي صاحب « المدينة الاسلامية » و « الاسلام دينا وجماعة » ، وقد ساهم فى تحرير عدد من مواد « الموسوعة الاسلامية » وألقى محاضـــرات فى جامعات الرباط والقاهرة والجزائر وكان استاذا للفلسفةالمقارنة وللعلوم الاسلامية فى المعهد الدولى للفلسفة بتولوز .

(Louis Gardet — Les hommes de l'Islam — Hachette, Paris, 1977)

2 ـــ « عبقرية الحضارة العربية . منبع عصر النهضة » الذي صدر بالانجليزية فى اكسفورد بانجلترا ونيويورك بالولايـــات المتحدة تحت اشراف الاستاذ د. ج. ديفز، وأهدى الى روح فقيد الاسلام الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله .

(The Genius of Arab Civilization — Source of Renaissance — Phaidon Press, Oxford, 1976).

3 ـــ مدينة ايزيس : تاريخ العرب الحق ، لبيير روســـى ، وهو كتاب جديد فى موضوعه وأسلوبه يفند فيه المؤلفالادعاءات

« العلمية » المزعومة التى تريد أن تحبس العرب فى بقعة صحراوية يتنقل فيها قوم من الرحل بجمالهم ، وفيه يعلن المؤلف أن بلاد العرب تشمل فى الواقع كل الاراضى والشعوب التى شهدت ميلاد الحضارة الانسانية فى مصر وبلاد الرافدين والجزيرة العربية بمن تعاقب عليها من بابليين وأشوريين وكلدانيين وسريانيين وكنعانيين وحثيين وغيرهم من الاقوام الذين تتألف منهم الامة العربية الحق ، ويصطلح علماء الغرب على تسميتهم تعسفا بالساميين . وهو مصطلح ليس له أصل علمى .

(La cité d'Isis, histoire vrai des arabes — Pierre Rossy — Nouvelles éditions latines, Paris, 1976).

4 — التعريف بالاسلام ، ومؤلفه الكاتب والباحث الصوفى السويسري فريثجوف شوون .

(Comprendre l'Islam — Frithjof Schuon. E. du Seuil, Paris 1976).

5 — ما هو التصوف ؟ للكاتب والباحث الانجليزي مارتين لنكس ، وقد ترجمه الى الفرنسية صديقنا الكبير روجيه دى باسكييه ، السويسري .

(Quest-ce que le Soufisme — Martin Lings/Roger du Pasquier E. Seuil, Paris 1977).

6 — « عالم الاسلام والفن الاسلامى » للاستاذ الكسندر بابا دوبولو ، وهو سفر ضخم فى طبعة أنيقة محلاة باللوحات والصور الملونة وهو من مجموعة « الفن والحضارات الكبرى » التى تصدرها دار مازينو » .

(L'Islam et l'art musulman — Alexandre Papadopoulo — Mazenot, Paris, 197).

7 ـ «الاسلام» الذي صدر تحت اشرافبرنارد لويس الاستاذ بجامعة برينستون فى نيوجرسى بالولايات المتحدة الامريكيـة ونشرته دار السفيير سكويا (باريس / بروكسيل) وساهم فيه ثلة من العلماء والمستشرقين اللامعين .

(Le Monde de l'Islam — Bernad Lewis — Elsevier Séquoia, Paris, Bruxelles, 197).

وعسى أن تتاح لى فرصة تقديم بعض هذه الكتب للقارىء مع التعليق عليها على أنى سأكتفى الآن بعرض أفكار من كتـاب ظهر أخيرا فى فرنسا بعنوان « من أجل حوار بين الحضارات » ، ومؤلف هذا الكتاب الذي استقبلته الاوساط الفكرية والصحافية فى العالم بالاهتمام والترحاب ، ليس مـن المتخصصين فى الدراسات الاسلامية ، بل هو كاتب ومفكر يعتنق اديولوجيـة ماركسية مشوبة بنوع من المثالية الفكرية ، ان لم أقل بنوع من الروحانية العاقلـة .

واذا كنت شخصيا لا أتفق مع روجيه غارودي فى كثير من أفكاره ، ولا سيما تلك التى عرضها فى كتابه الشهير : ((النظرية المادية فى المعرفة)) ، فاننى أقدر شجاعته فى الاعلان عن رأيه المخالف لبعض سنن الماركسية وتطبيقاتها ، وأكبر فيه بحثـه المستمر عن حقيقة انسانية كفيلة بخلق حوار بين شعوب تنتمى الى حضارات متنوعة متباينة . وأعتقد شخصيا أن هذه الحقيقة الانسانية المثلى التى من شأنها أن تخلق الحوار البناء المطلوب توجد فى الاسلام الخالص من شوائب البدع التقليدية منـها والمحدثة . وأقصد بالبدع المحدثة هذا الخليط الغريب من سقط

الاديولوجيات التى يريد بعضهم اقحام مفاهيمها على الاسلام بغية اضفاء مسحة من ((التقدمية)) عليه .

يحاول روجيه غارودي فى كتابه الجديد « من أجل حوار بين الحضارات أن يصحح كثيرا من المفاهيم الخاطئة التىاطمان اليها الغربيون بغرور وكبرياء ، وفضح بعنف جرائم ((الانسان الابيض الغربى)) المرتكبة فى حق الشعوب الاخرى ، وسفه غرور الاوربيين وتعاليهم وتجاهلهم العنيد لحضارات الاسلام وشعوب آسيا وافريقيا وأمريكا التى استقى منها الغرب أو التى يمكنه أن يأخذ عنها ضروبا من طرق الحياة والتفكير والتصرف ازاء طغيان المادية وفساد البيئة الانسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى أقطار الغرب ، وعدد المؤلف كثيرا مما سماه ((بالفرص الضائعة)) التى جعلتالانسان الاوربى يفقد امكانات حوار بناء تلتقى بفضله الحضارات المختلفة وتتفاعل فى سبيل ايجاد تفاهم حقيقى بين الناس .

وقد أعلن غارودي أن المنابع الاغريقية والرومانية والمسيحية التى استقى منها الغرب حضارته قد نشأت فى آسيا وافريقيا ، وان الذي طمس هذه الحقيقة هو ما يتسم به ((الانسان الابيض)) من روح عنصرية ، وقال بأن التفوق الغربى لا يرجع الى تفوق ثقافى بل الى الاستعمال العسكري العدوانى لفنون الاسلحة والبحر . وأكد ان خلق مستقبل حق يتطلب العثور على الابعاد الكاملة لانسان ينمو ويتطور داخل حضارات

وثقافات غير غربية . وأن هذا الحوار بين الحضارات هو وحده الكفيل باتاحة الفرصة لميلاد مشروع كونى لاختراع المستقبل؟

وقد حدد غارودي موضوع كتابه وهدفه بهذه العبارات : « أن أقدم شهادة عن تجربة عالمية ، عن فرجة الثراء الانسانى الذي مكنتنى منه ثقافات غير غربية ورجال من آسيا ومن ديار الاسلام ومن أفريقيا وأمريكا اللاتينية . أن أقدم شهادة عما بحثت عنه وأعتقد أننى اكتشفته من طابع الهى فى كل واحدة من تلك الثقافات وفى كل واحد من أولئك الرجال » .

وبعد استعراض موجز للحضارات والتجارب الانسانية التى لقيها المؤلف وشاهدها وتأمل معانيها فى شتى أنحاء المعمور ومن بينها مواطن ميلاد الحضارة بين دجلة والفرات ، ومرصد أولوك بيك فى سمرقند ، والمسجد الازرق فى اسطنبول، وجامع اصفهان الذي الذي يلخص الفن الايرانى ، وجامع الزيتونة ، وجامع الازهر ، وتاج محل ، قال غارودي أن معرفته بالاسلام انطبعت فى ذهنه اثر لقاءين جرى احدهما فى الجزائر حيث تعرف الى الشيخ المرحوم البشير الابراهيمى سنة 1945 والآخر فى المغرب تم بينه وبين مؤسس حزب الاستقلال المرحوم علال الفاسى « شاعر اليقظة الوطنية » كما سماه غارودي .

وقد رأيت أن أكتفى فى هذا العرض بابراز الافكار والمعلومات التى قدمها المؤلف عن الاسلام وحضارته وعن أبعادهما

الانسانية التى يمكن أن تفيد شعوب الغرب وتتيح لها تعويض الفرص الضائعة فى تاريخها وتفتح لها آفاق الحوار المنشود .

*

تحدث الملف فى الفصل الاول من كتابه عن « بلاد الغروب وأساطيرها » وعما سماه « بعقدة ماراثون » فقال : « ان لفظ الغرب رهيب . فالألمان يطلقون عليه : « بلاد الغروب » فما هو اليوم مآل حضارتنا الغاربة ؟

« اننى لا أحب كلمة غرب ، لقد أعاروها ضروبا من التعاريف خدمت قضايا مريبة موجهة لتقسيم العالم . فهذا بول فاليري يؤكد ان أوربا قد صهرتها ثلاثة تقاليد :

ـ فى الميدان الخلقى : المسيحية ولاسيما الكاثوليكية .

ـ فى ميدان القانون والسياسة والدولة : التأثير المتواصل للقانون الرومانى .

ـ فى ميدان الفكر والفنون : التقليد اليونانى .

ويتساءل غارودي : لماذا تفصل هذه التيارات الثلاثة عن منابعها ؟ وهكذا يتوهم الواهمون أن الغرب بداية مطلقة وأنه انبثق كما لو كان معجزة تاريخية ، والحقيقة الجوهرية هى أن ما اصطلح على تسميته بالغرب قد ولد فيما بين النهرين ومصر أي فى آسيا وافريقيا » .

« أن نظرتنا الى العالم التى نطلق عليها النظرة الغربية يرجع تاريخها الى أزيد من 3000 سنة قبل المسيح. وقد اتخذت شكلها خارج أوربا فى مصر وبلاد النهرين حيث نجد العلامات المميزة للموقف الغربى ، وبيانه أن الانسان يتصدى للطبيعة وهو يريد أن يكون السيد المطلق فيصنع ضدها شخصيته الفردية وتفكيره التجريدي » .

وينتهى غارودي الى اكتشاف « عقدتين » تاريخيتين تأصلتا من معركتين حربيتين فأصيب بهما الغرب وانتقلتا من الخلف الى السلف عن طريق « التاريخ الرسمى » الذي يزيف آفاق التاريخ العالمى ويلقن الاطفال معلومات تكيف اختياراتهم السياسية . فالعقدة الاولى سماها المؤلف « عقدة ماراثون » وقد تركبت فى نفوس الغربيين بتأثير مغالاة المؤرخ هيرودوت فى روايته لمعركة « ماراثون » الشهيرة التى وقعت بين الفرس واليونان فى عهد دارا الاول الاخمينى (490 ق. م.) .

وأما «عقدة بواتييه» فانها ناتجة عن الاسطورة التى نسج الغربيون خيوطها عن معركة « بلاط الشهداء » الشهيرة التى أشرنا اليها فى مقدمة هذا المقال .

تحدث المؤلف عن هذه الاسطورة فى الفصل الثانى من كتابه ، وهو بعنوان : « الفرص الضائعة » فأوضح وجه المغالاة فى الرواية الاوربية المتداولة حول هذه « المعركة » ثم تطرق الى

الكلام بايجاز وتركيز عن الحضارة الاسلامية وتأثيرها فى تقديم الانسانية . وذلك ما سأحاول تلخيصه فيما يلى :

من الفرص الضائعة الاخرى أسطورة ثانية يجب هدمها وتتمثل فيما زعمه الاستعمار الفرنسى من أن الفتوح العربية التى بدأت فى القرن الثامن الميلادي لم تكن سوى زحف للبربرية الاسيوية على الغرب ، ثم ان الاستعمارين الانجليزي والاسبانى لم ينقطعا — بحكم وجودهما فى ديار الاسلام لمدة تنيف عن قرن — عن الافتراء على الحضارة العربية ورفدها .

أن الذي يسمونه بغزو اسبانيا لم يكن غزوا عسكريا . لقد كان عدد سكان اسبانيا يقارب عشرة ملايين نسمة ، بينما لم يتجاوز عدد ما كان فى هذه البلاد من فرسان العرب سبعين ألفا . لقد لعب التفوق الحضاري فى هذا دورا حاسما .

ان ما صنعه العرب فى اسبانيا يثير فى الذهن الحرب الثورية التى قادها ماوتسى تونج . فقد حمل العرب معهم نظاما اجتماعيا أسمى من النظام الذي كان قائما ، وبذلك غدوا فى أعين الناس محررين اذ اعتقوا العبيد من وصاية ملوك القوط المنهارين ، ولم ينتزع العرب من السكان أراضيهم — لان القرآن يحرم ذلك — (3) فاكتفوا بقبض الجزية .

---

(3) لا شك أن غارودي يشير هنا الى اجتهاد الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فبعد فتح العراق وفارس خالف عمر القائلين بتوزيع الاراضي على الفاتحين مستلهما فى ذلك كتاب الله ومصلحة الدولة الاسلامية .

وقد قام العرب فى هذه البلاد ، التى كانت نهبا للفوضى الاقطاعية ببناء أجمل المنشآت المائية التى عرفها ذلك العهد . وما زال الناس يذكرون الى اليوم حدائق مرسية كما لو كان الامر حلما .

ان الحضارة التى أقامها العرب استقت من منابع آسيا القديمة . ونذكر أنه حينما ذهب الراهب الفرنسى جربير الى قرطبة لتلقى العلم فى جامعتها ، عاد الى بلاده مزودا بعلم غزير مما جعل الناس يتهمونه بأنه تاجر مع الشيطان ! وقد تربع هذا الراهب بعد ذلك على كرسى البابوية باسم سلفيستر الثانى.

ثم اننا مدينون لعلوم العرب بمدارسنا الطبية الرئيسية ، ومدرسة مونبيلييه على رأسها . وقد بقيت المصنفات الطبية العربية عمدة الطلاب والاساتذة فى جامعات فرنسا الى القرن السادس عشر ، وفى انجلترا الى منتصف القرن التاسع عشر .

وكان العرب يمارسون جراحة العين منذ القرن الثامن ، وعنهم أخذنا الجبر . وقد تمكن الشاعر عمر الخيام ، الذي عاش حوالى سنة 1100 ، من حل معادلات الدرجة الثالثة مستخدما الطريقة التى اتبعها ديكارت بعد ذلك بخمسة قرون . وقد بقى « كتاب الجبر » لعمر الخيام ، الذي ترجم الى الفرنسية مرجعا يعتمد عليه فى فرنسا الى سنة 1857 .

ومع ذلك ، خلقنا من « بواتييه » عقدة ثانية أضفناها الى « عقدة ماراثون » .

مع أنه لم يكن هنالك غزو ، وكل ما فى الامر هو ان سرية بقيادة عبد الرحمن الغافقى داهمها ، شارل مارتيل ، وهـى فى طريق العودة . ولنا ان نضيف أن الكونت أود (Le comte Eudes) هو الذي بادر بعقد حلف مع قادة العرب فى اسبانيا ودعاهـم للقدوم الى أكيتين (Aquitaine)

وهنا يتعين علينا أيضا ان نعيد وضع الامور فى نصابها وضعا يطابق الحقيقة التاريخية التى تبدو مهزوزة فى كتب التاريخ المقررة على الاطفال . ان المصدر الرئيسى الذي نرجع اليه حينما نتحدث عن أهمية هذه المعركة ومغزاها التاريخى هو مذكرات دوموا ساك (l'Abbaye de Moissac) التى تلعب بالقياس الى معركة بواتييه نفس الدور الذي تلعبه رواية هيرودوت لوقائع معركة ماراثون .

بيد ان بعض المؤرخين الغربيين الذين يجدون فى أنفسهم الشجاعة لمقابلة الرواية الغربية بروايات مؤرخين من غير الاوربيين ، يعرضون الوقائع بشكل أكثر اعتدالا ، ومن هـؤلاء ليفى بروفنصال الذي يتعرض لهذه المعركة فى كتابه « تاريخ اسبانيا الاسلامية » المطبوع فى باريس سنة 1950 ، فيقول : « جمع والى اسبانيا عبد الرحمن جيشا فى بامبلونا وقطع جبال البرانس وشعاب رونسوفو ، فاحتل بوردو ، وبينما كان متجها الى تور اصطدمت طلائع جنوده بجيش شارل مارتيل فى بواتييه فهزمت فى مكان يطلق عليه المؤرخون العرب « بلاط الشهداء ».

ويعلق غارودي بقوله : ان هذه الهزيمة خطيرة ولاشك ، ولكنها لم تكن حاسمة ، لانه بعد سنتين من تاريخ هذه المعركة أي عام 734 جرد العرب ـ كما يقول بروفنصال ـ حمـــلات مكنتهم من الوصول الى بلانس ونهر الرون . ووقعت نربونة فى قبضتهم .

وتعقيبا على ما ذكره غارودي وبروفنصال أرى من المفيد أن أذكر ، استنادا الى ما جاء فى كتاب حضارة العرب لغوستاف لوبون انه بعد انسحاب الجنود العرب من بواتييه تتبعهم شارل مارتيل وحاصر نربونة (أربونة) غير موفق وأخذ ينهب البـــلاد على عادة ذلك الزمن ، وحالف امراء النصارى العرب ليتخلصوا من شارل مارتيل وحملوه على القتال مرتدا . ويضيف (لوبون) ان المسلمين لم يلبثوا « أن أخذوا يستردون مراكزهم السابقة، وقد أقاموا بفرنسا قرنين بعد ذلك ، وسلــم حاكــم مرسليــة مقاطعة البروفنس اليهم فى سنة 737 م . واستولوا على الارل ودخلوا مقاطعة سان تروبز فى سنة 889 ودامت اقامتهـــــم بمقاطعة البروفنس الى نهاية القرن العاشر مــن الميـــلاد ، وأوغلوا فى مقاطعة الغالة وسويسرا سنة 935 ... »

ويعلق غوستاف لوبون على ما سبق ذكـــره بقولـــه : « تثبت اقامة العرب بفرنسا مدة تزيد على قرنين بعد شـــارل مارتيل ان النصر الذي احرزه فى بواتييه لم يكن مهما كما زعم المؤرخون ... فلم تكن غزوة عبد الرحمن الغافقى سوى حملة قام بها لتموين جنوده وتمكينهم من أخذ مغانم كثيرة ... ولــم

يستطيع شـــارل مارتيل أن يطرد العرب من أية مدينة احتلوها عسكريا ، واضطر شارل مارتيل الى التقهقر أمامهم تاركا لهــم ما استولوا عليه من البلدان ... » ❋

ونعود الى كتاب غارودي الذي يتساءل : « هل كانت معركة بواتييه مواجهة بين الحضارة الغربية والبرابرة ؟

والحقيقة كما يقول غارودي هى ان فرنسا قد فوتت علــى نفسها فرصة تاريخية هى فرصة المشاركة فى الحضارة العربية واختزال مدة الفوضى الاقطاعية لبناء وحدتها الوطنيـــــة . ان فرنسا لم تستطع ان تستفيد من كل ما جنته اسبانيا من فوائد قبل افلاسها فى مغامرة البحث عن الذهب (فى العالم الجديد) .

ويتساءل غارودي مرة أخرى : « لماذا اكتسحت هـــــذه الزوبعة » القادمة من الشرق عالما يمتد من بحر الصين الـــى المحيط الاطلسى فى مدة من الزمن قصيرة ؟ ان العامل الحاسم هو ان العرب حملوا معهم أشكالا أسمى وأرفع من التنظيـــم الاقتصادي والاجتماعى فانضمت اليهم جماهير الناس فى عالم يمارس الاستعباد ويقف فى أوج التحلل » .

لقد حمل العرب معهم نظام الهيآت الحرفية الذي لم تعرفه أوربا الا بعد قرون عديدة . واننا حينما نقرأ مقدمة ابن خلدون نكتشف أن وظيفة المحتسب هو ما عرفته أوربـــا باســـم Prévot des marchands (أمين التجار) ؟ أما نظام الجماعات

❋ حضارة العرب : ترجمة المرحوم عادل زعيتر .

الحضرية والقروية ، فانه كان معروفا منذ زمن بعيد بمؤسساته المتميزة ــ فى المدن التجارية الاسلامية .

وكان العرب أيضا وراء انشاء بلديات فى اسبانيا مزودة بميزانية مستقلة وقضاة منتخبين .

ومن الناحية الاقتصادية أنشأ العرب صناعات مدهشة للنسيج والمعادن ، وطوروا صناعة الجلود ، وأسسوا أجمل أسطول فى العالم ، وهو الاسطول الذي اكتشفت بفضله أمريكا.

لقد شرح الكاتب الاسبانى بلاسكو ايبانييث فى كتابه « فى ظلال الكنيسة » أن « الانتعاش الاسبانى لم يأت من الشمال مع الغوغاء الهمج بل من الجنوب مع العرب الفاتحين » وبعد أن تطرق غارودي الى الفتح العربى قائلا بأن اسبانيا ــ التى كانت ترزح فى أغلال الاستعباد على يد ملوك لاهوتيين ورهابنة نزاعين الى الحرب ــ فتحت ذراعيها لاستقبال الفاتحين العرب ، قال : وقد استولى العرب فى سنتين على بلاد استغرق استرجاعها سبعة قرون .

ثم ان عصر النهضة فى أوربا مدين الى حد كبير ــ كما جاء فى كتاب « عبقرية الحضارة العربية » الذي سبقت الاشارة اليه « للغزو » العربى الذي عرف كيف يخلق الظروف الفكرية الضرورية لازدهارها ، ذلك ان هذا « الغزو » أتاح انبعاث الثقافات القديمة وفى مقدمتها الثقافة الهلينية . فقد ترجم

العرب مؤلفات أرسطو ، وجالينوس وأفلاطون ، وبطليموس ، وأوقليدس وارشيمدس الى العربية .

وفى القرن التاسع ، حينما أصبحت أوربا تجهل القراءة ، فتح الخليفة المأمون فى بغداد ــ بمساعدة طوائف من الكتبة والمترجمين ــ مكتبة عظيمة سميت « دار الحكمة » حيث حفظت جميع مؤلفات الحضارات القديمة . وفى قرطبة كان أحد خلفاء بنى أمية ، وهو الحكم ، يملك خزانة محتوية على أكثر من مائة ألف كتاب بينما لم يكن يملك شارل الخامس الملقب بالحكيم ، الذي حكم فرنسا بعد أربعة قرون من عهد الخليفة الحكم ، اكثر من ألف كتاب .

ولم يقتصر العرب على احياء الثقافة القديمة بل انهم أسهموا اسهاما خلاقا وعظيما فى تقدم الثقافة العالمية .

ان مخترعات العرب الكبرى مرتبطة بطبيعة نظامهم الاقتصادي . لقد كانوا بناة امبراطورية تجارية فطوروا العلوم والفنون التى قفزت بفضلهم قفزة كبرى الى الامام .

لقد جابو البحار والصحاري ، وكانوا فى حاجة الى معرفة الجغرافية الفلكية معرفة تامة ، فشيدوا أكبر المراصد العالمية الاولى فى سمرقند ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة . وفى سنة 770 صنع العرب الاسطرلاب الذيتخيله بطليوس، وقد استعمله البحارة منذ ذلك الحين الى القرن الثامن عشر .

وكان الجغرافيون العرب الذين عهد اليهم بوضع الخرائط الضرورية لادارة المملكة ، كانوا يقولون بكروية الارض فى حين كان اللاهوتيون المسيحيون ينكرونها. وفى سنة 860 صنف فرغام مصنفا فى علم الفلك ظل حجة فى أوربا الى القرن السادس عشر، وقد أخذ الادريسى بمبدا كروية الارض أيضا حينما وضع خرائطه فى القرن الثانى عشر .

لقد أسعفنى الحظ فزرت مرصد سمرقند الذي أسسه أولونك بيك ، حفيد تيمورلنك ، الذي لم يخطىء فى تقدير السنة الشمسية الا بمقدار أربع عشرة ثانية . ان تقدم المسلمين فى العلوم النظرية أتاح لهم تفوقا بحريا لم ينازع فيه منازع حتى ان ابن خلدون لاحظ ان النصارى لم يتمكنوا من تعويم قارب واحد فى البحر الابيض المتوسط (4) .

لقد أعجب الغرب أيما اعجاب باكتشافات الرحالة ماركو بولو مع ان مؤلفا عربيا تحدث فى كتاب له عن رحلة قام بها الى الصين فوصل الى تخوم كانتون كما وصل ولاشك الى كوريا واليابان ، وذلك سنة 831 أي قبل رحلة ماركو بوبو بأربع مائة وخمس وثمانين سنة .

---

(4) لفظ ابن خلدون فى المقدمة : « وأساطيل المسلمين ... ملأت الاكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا ... فلم تسبح للنصرانية فيه الواح » – ج 2 ، ص 630 – طبعة لجنة البيان العربي بتحقيق علي عبد الواحد وافي .

وفى هذا العصر تقريبا ألف أحمد بن ماجد كتابا فى فـــن الملاحة فى المحيط الهندي والبحر الاحمر والخليج العربى وبحر الصين . وقد جعل البرتغاليون هذا المصنف أساسا لدراستهـم البرية فى عهد هنري الملقب بالملاح .

وكان أحد الخلفاء العرب أول من فكر فى شق ترعة السويس وانما منعه من انجاز هذا المشروع أسباب استرانيجية .

ان احتياجات العرب فى ميادين التجارة والمحسابة دفعت بهم الى احداث انقلاب فى الرياضيات ، شأنهم فى ذلك شـــأن الفنيقيين قبلهم ، فاخترعوا الارقام العربية والصفر . ولم تدرك أوربا اثر هذه الثورة الا فى القرن الثانى عشر أي بتأخير مدته مائتان وثلاثون سنة .

ونحن مدينون فى ميدان الكيمياء لكثير من مكتشفـــات العرب . فهم لم يخترعوا فحسب طرق التقطير والتبخير والتبلور والتجليط بل انهم اخترعوا مستحضرات جديدة كالبوتاسيــوم والنشادر وحامض النتريك ..

ومنذ عهد الخليفة الرشيد ، الذي عاش فى عصر شارلمان ، والعرب يصنعون الورق من القطن ، وهم بذلك أتاحوا اشاعــة الثقافة على نطاق واسع جدا .

وعرف العرب تقدما كبيرا فى ميدان الطب وطب العيـــون والصيدلة فطوروا طرق معالجة الجذري ، واستعملوا فطـــر

البنيسليوم لمعالجة الجروح المتعفنة فعرفوا عن طريق التجربة قدرة المضادات الحيوية (Antibiotiques)

وما يزال ابن خلدون ، المؤرخ وعالم الاجتماع والدبلوماسى الذي عاش من 1332 الى 1404 علما دوليا فى مجال العلـــوم الانسانية . فهو الذي بسط فى « مقدمته » مشاكل موقف الانسان ازاء السياسة والتاريخ فسبق بآرائه مكيافيل مؤلف كتاب الامير فى القرن السادس عشر ومنتسكيو مؤلف « روح القوانين » فى القرن الثامن عشر .

وقد تبين أن ابن خلدون هو مخترع نظرية علمية فى التاريخ وعلم الاجتماع حيث قال بأن النصر فى الحروب يرجع الى الحظ والصدفة أي أنه يرتبط بأسباب خفية يطلق عليها لفظ الصدفة(5) وبعد أربعة قرون من عصر ابن خلدون نسمع منتسكيو يقــول : « اذا سقطت مملكة بفعل الصدفة فى موقعة حربية فان ذلـــك يرجع الى وجود أسباب عميقة تجعل هذه المملكة تضمحل اثـــر هزيمة واحـــدة » .

ان هذه السببية التاريخية ليس لها فى نظر ابن خلدون طابع الحتمية الميكانيكية . بل ان مفهومه الجدلى يأخذ بعـــين

(5) « ولا وثوق فى الحرب بالظفر وان حصلت اسبابه من العدة والعديد، وانما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق . وبيان ذلك أن اسباب الغلب فى الاكثر مجتمعة من امور ظاهرة ... ومن أمـــور خفية » مقدمة ابن خلدون ، ج 2 ص 658 ، طبعة لجنة البيان العربي بتحقيق علي عبد الواحد وافي .

الاعتبار تأثير الأفعال بعضها فى بعض . وفى هذا يعد ابن خلدون أحد منشىء المادية التاريخية (6) بل انه ذهب الى حد صياغة مبدأ المادية التاريخية حيث لاحظ أن الاختلاف الذي نشاهده فى عادات شتى الشعوب ومؤسسلتها يرتبط بالكيفية التى يدبر بها كل شعب أمور معيشته .

وانطلاقا من هذه المبادىء يعرض ابن خادون نظريــــة القيمة المبنية على أساس العمل .

ان رجلا فى عظمة ابن خلدون لا يمكن ان يولد فى الفراغ . وانه فى امكاننا أن نتصور ، ونحن نقرأ ابن خلدون ، مدى مــا وصل اليه الفكر العربى فى عصره من تطور فى ميدان العلـــوم الاجتماعيــة .

وختم غارودي عرضه الموجز عن الثقافة الاسلاميــــة بقوله : ان هدفنا من تقديم هذه الامثلة المقتضبة هو ان نبــين

---

(6) اننا نأخذ بتحفظ هذا الاستنتاج فابن خلدون لم يقـــل بالماديـــة التاريخية ــ ولو على غير قصد منه ، ذلك انه يومن بوجود اله يدبر شؤون هذا الكون على سنن ثابتة وقوانين مضبوطة يتحكم فيها خالق العالم . وابن خلدون لم يخطر بباله قط انه لا حقيقة فى هذه الدنيا غير المادة وان الفكر نفسه سيرورة مادية . نعـــم ان ما قالـــه فى المقدمة من « ان اختلاف الاجيال فى أحوالهم انما هو باختــــلاف نحلتهم من المعاش » يدل على انه كان أول من اهتم بتأثير العوامل الاجتماعية فى تكوين طبائع الامم وعاداتها (اقرأ الفصل الاول مـــن الباب الثاني من المقدمة) .

الحاجة الماسة الى استعراض التاريخ بمنظار لا تشوهه أوهام الاستعمار الغربى ولا تبقى أوربا وحدها مركز جاذبيته .

***

وفى الفصل الرابع من الكتاب استعرض المؤلف بعض مظاهر الفنون الصينية واليابانية والافريقية والاسلامية مركزا على ما تنطوي عليه من أبعاد روحية ومعان انسانية عميقة يمكن ان يفيد منها الغرب للخروج من فرديته وأنانيته .

وقد أكد غارودي ان الشعر الاسلامى كان له تأثير على الغرب ، وأبرز على وجه الخصوص الشعر الاسلامى الذي اهتم بالحب الصوفى ، وقدم بعض الامثلة من كلام أبى سعيد الذي عرف الصوفية بأنها ترك الفضول ونبذ الانا « لانك حينما تنشغل بنفسك تبتعد عن الله » كما استشهد بكلام فريد الدين العطارمن كتابه الرمزي « منطق الطير » ، وببعض قصائد جلال الدين الرومى التى تعبر عن اتحاد الحب الالهى والانسانى .

ثم انتقل غارودي الى الكلام عن الفن التشكيلى الاسلامى مبينا أنه ينزع الى التجريد وقال بأن المسجد هو « نقطة التقاء جميع فنون الاسلام ، وقد قيل بحق : ان جميع الفنون فى الاسلام تؤدي الى المسجد والمسجد يؤدي الى الصلاة » والمسجد الاسلامى لا يشبه فى شىء الكنيسة المسيحية والمعابد الاغريقية ، انه مجرد بيت للصلاة وذكر الله . وانه ليس على

الفن الاسلامى أن ينقل ما هو منظور بل أن يجعل فى الامكان مشاهدة اللامنظور واللامنطوق فى النظام الالهى للكون والمجتمع . وعلى هذا فان القوانين التى تتحكم فى هذا الفن هى قوانين رياضية وموسيقية . وفن العمارة هو قمة الفن الاسلامى.

وقدم المؤلف أمثلة من الفن المعماري الاسلامى فذكر جامع ابن طولون بالقاهرة وقصر الحمراء بغرناطة ومسجد اصبهان وقال بأن كتدرائية شارتر بفرنسا قد استلهمت الفن المعماري الاسلامى على غرار جامع ابن طولون . كما ذكر تأثر الرسام الفرنسى الشهير ماتيس بالفنون الاسلامية (Matisse) وهو الذي قال بأن الالهام جاءه دائما من الشرق .



هذا عرض موجز لكتاب « من أجل حوار بين الحضارات » اقتصرت فيه على تقديم صورة عما ذكره روجيه غارودي عن مساهمة الحضارة الاسلامية فى التقدم الانسانى وما تنطوي عليه هذه الحضارة من قيم عظيمة لا أشك فى قدرتها على تقديم الدواء الشافى لما يعانيه البشر فى عصرنا هذا من قلق واضطراب وتدهور .

ويحق لنا أن نقول بأن الاسلام قد فتح منذ أربعة عشر قرنا من الزمن ، باب الحوار الانسانى البناء على مصراعيه حينما خاطب الله تعالى البشر فى كتابه العزيز بقوله : « يا أيها

الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ان غارودي حينما تحدث عن الحاجة الى وضع خطة « لاختراع المستقبل » أكد على ضرورة الافادة من حضارات وتجارب شتى ، قديمة ومحدثة ، من الهند والصين واليابان وافريقيا وأمريكا ، حضارات تختلف شكلا وجوهرا ، وتجارب تتباين فى المنهج والوسيلة ، وقد سرد المؤلف أمثلة من هذه الحضارات والتعاليم والتجارب ، واننا لنستطيع أن نقول ان الاسلام ، فى نشأته وأوج ازدهاره ، عرف كيف يستفيد من الشعوب التى عانقها وعانقته فعرف ثراء فكريا وروحيا لم يتقدم له نظير .

وبعد هذا فاننا لا نملك الا أن نؤيد غارودي فيما يراه من قيام « رباط جديد بين الايمان والتاريخ ، بين الايمان والعمل ، بين الايمان والعالم » ونحن معه كذلك فى تخطى « كل حدود الطبقة والسلالة والثقافة » لاعتقادنا معه ان كل انسان يحمل فى قلبه « بذورا الهية تجعله مسؤولا عن مصيره » ونحن أيضا مع غارودي فى تصوره لهذا الايمان « الذي توجد جذوره فى قلب الشعوب فتستقى الشعوب من ايمانها قوة وأملا فى تغيير العالم والعيش » .

ونختم هذا العرض بآية كريمة نستلهم منها نظرتنا الى الحياة فى البدء والمعاد : « هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » انها الحياة التى تفرض الجهاد الدائم والبحث المتواصل والعمل الدؤوب لصالح الناس فى الدنيا ونجاتهم فى الآخرة .

الربـاط   محمد العربى الخطابى

يافاس...

د. طلعت الرفاعى

يــا فاس يــا فاس أنت الراح والكأس
وأنــت يــا فاس أنــت الحــب والناس

ويــا زمــردة فى المغــرب ائتلقــت
يشــدو بها الذهب الابريــز والمــاس

وأنــت مــا أنت . . . ألحــان مجنحــة
لــولاك مــا كــان الهــام واحســاس

كــأن « ولادة » . . ألقــت خواتمهــا
فشــع مــن دفئهــا الليمــون والآس

هــذه البحيرة نشــوى فى خمائلهــا
يرميــك مــن نبعهــا القزحــى أقواس

نمضى وللشجر الممشوق لفتتة
والقد فوق روابى السحر مياس

« اغران » يابوح أنسام معطرة
كأنها من أريج الزهر أنفاس

ترى الطبيعة فى واحاتها احتفلت
فى كل منعطف تلقاك أعراس

وللخلا خيل فى أغصانها نغم
كأنه من حفيف الوجد أجراس

حتى اذا ما انثنينا والهوى قدر
مدت الينا ذراع الحب « مكناس »

وضمخت بعبير الأنس مجلسنا
للأنس فن وللابداع ايناس

مرابع الخلد عين الله تحرسها
لها من الملأ العلوي حراس . . .

فاس د. طلعت الرفاعى

مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية

د. عباس الجراري

العلاقات بين المغرب والجزيرة العربية :

تضرب العلاقات بين المغرب والجزيرة العربية في أعماق التاريخ لتمس الجذور السلالية للامازيغ ، وهم سكان المغرب الاقدمون الذين اطلق عليهم اسم البربر فيما بعد .

فعلى الرغم من اختلاف الدارسين والحاح المغرضين منهم على الارومة الاروبية للبربر ، فان البحث العلمى النزيه افضى الى ان سكان المغرب الاقدمين وفدوا فى العصر الحجري من الجزيرة العربية ومصر ، وهو الراي الذي نادى به ابن خلدون (1) حيث اثبت ـ استنادا الى اقوال النسابة والمؤرخين ـ أنهم عرب حميريون من بنى قحطان « يجمعهم جذمان عظيمان

---

1) انظر ج 6 من ص 93 الى 97 (بولاق)

وهما برنس ومادغيس ويلقب مادغيس بالابتر فلذلك يقال لشعوبه البتـــر ويقال لشعوب برنس البرانس وهما معا ابنا بر » (2) .

وعلى الرغم مما يعتقد كثير من المؤرخين من أن الرومان هم الذين اطلقوا على الامازيغ اسم البربر فان ابن خلدون يذهب الى « أن أفريقش بن قيس ابن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وافريقية وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والامصار ، وباسمه زعموا سميت افريقية ، لما راى هذا الجيل من الاعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : ما اكثر بربرتكم فسموا بالبربر » (3)

وقد اثبتت الدراسات اللغوية ان اللغة البربرية تنتسب للمجموعة الحامية السامية ، وان المغاربة استعملوا فى الكتابة حروف الهجاء الليبيــة التى لا تزال ــ هى نفسها او شبيهة بها ــ معروفة فى الجنــوب عنـــد الطوارق وتدعى : التيفيناغ .

كما اثبت الذين درسوا البربرية واللغات الحامية والسامية ان الشبه كبير بين هذا الخط والخطوط التى كانت تستعمل فى شبه الجزيرة العربية مما يدل على مكانهم الاصلى بل انه قد وجدت خطوط ليبية فى سيناء ودلتا النيل تدل على طريق مرورهم للشمال الافريقى عبر مصر (4) .

ولم تلبث العلاقات بين المغاربة واصلهم العربى ان توطدت طوال الفترة التى احتكوا فيها بالفينيقيين ، وهم عرب كنعانيون . وقد امتدت هذه الفترة زهاء الف عام من منتصف القرن الثانى عشر حتى القرن الثالث والثانى قبل الميـــلاد .

---

2 و 3)   ج 6 ص 89 .

4) انظر بحث الكاتب عن « وجود المغرب الحضاري والثقافى فى العصر الجاهلى » مجلة المناهل العدد 8 (وزارة الدولة المكلفة بالشـــؤون الثقافية ــ الرباط ــ المغرب 1977) .

ثم شهدت هذه العلاقات فى ظل الفتح الاسلامى منطلقا جديدا حين الحم الاسلام بين المغاربة والعرب الوافدين من الجزيرة العربية ، وخاصة من الجنوبيين الذين كانوا يشكلون غالبية جيوش الفتح .

وتوالت الهجرات بعد ذلك من الجزيرة العربية ، واهمها هجرات بنى هلال وبنى سليم (5) فى القرن السادس الهجري أوائل عهد الموحدين(6) وكذلك هجرات حلفائهم من بنى معقل (7) .

واذا كان لمثل هذه الهجرات الجماعية تاثير فى طبع المناخ الحضاري والثقافى فى المغرب بسمات العروبة المبرزة لملامح الجزيرة العربية ، فان الهجرات الفردية كان لها اكبر الاثر على تكييف المسيرة السياسية لتاريخ المغرب، سواء حين حل ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن ابى طالب سنة اثنين وسبعين ومائة للهجرة فبايعه المغاربة وانشاوا تحت لوائه الدولة الادريسية ، او حين وفد فى اواخر القرن السابع الحسن بن قاسم المعروف بالداخل والمتصل نسبه بعلى وفاطمة بنت الرسول عليه السلام عن طريق محمد النفس الزكية ، واصله من ينبع النخل فى الحجاز(8) وهو جد الملوك العلويين الذين يعتلون عرش المغرب منذ نحو ثلاثة قرون ونصف ، والذين يعملون باستمرار على تأكيد الروابط وتمتينها بين البلدين . وهى روابط تصل أحيانا الى المصاهرة على حد ما تم فى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي زوج احدى كريماته لامير مكة الشريف سرور (9) .

---

5) انظر تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 12 والقرطاس لابن ابى زرع ص 54 (ط حجرية) والاستقصا للناصري ج 2 ص 161 (ط. الدار البيضاء)
6) وعلى عهد عبد المومن بالذات (انظر المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ص 172 ت د . عبد الهادي التازي) .
7) انظر الاستقصا ج 2 ص 179 .
8) انظر الدرر البهية والجواهر النبوية لادريس العلوي ج 1 ص 48 فما بعد (ط حجرية) والاستقصا ج 1 ابتداء من ص 3 والمصادر المذكورة
9) انظر الاستقصا ج 8 ص 34 .

ومثل هذه الظاهرة تؤكد أن الهجرات لم تكن من طرف واحد اي من الجزيرة العربية الى المغرب فحسب ، ولكنها كانت كذلك تتم من المغرب الى أرض الجزيرة العربية وتتمثل جلية في وفود الحجاج وخاصة منهم الطلبة والعلماء الذين كانوا ينهضون بدور التبادل الثقافي بين البلدين . وغالبا ما كان هؤلاء الحجاج المثقفون يكتبون رحلات يسجلون فيها انطباعاتهم عن الديار المقدسة وما شاهدوا فيها من مواقع وبقاع وآثار ، وما كان لهم من اتصالات برجال العلم والادب ، وما ارتسم في ذهنهم من أحوال الحياة الاقتصادية والاجتماعية مع التعريف بكل مراحل الطريق وما أتيح لهم في المدن التي حلوا بها من وقوف على المآثر وحضور الدروس ولقاء العلماء.

ولقد ترتبت عن اسباب ، في طليعتها رحلة العلماء المغاربة الى الحجاز ، اهم ظاهرة تميز الفكر المغربي ، وهي أخذه بالمذهب المالكي وانضواؤه موحدا تحت لوائه (10) وعلى هذه الرحلة اعتمد ابن خلدون حين أراد أن يعلل لانتشار المذهب المالكي في المغرب حيث ذهب الى ان رحلة المغاربة « كانت غالبا الى الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ وامامهم مالك .. فرجع اليه اهل المغرب .. وقلدوه دون غيره » (11) .

اهم الرحلات الحجازية :

واذا كان المغاربة قد عرفوا بتسجيل الرحلات ، واذا كانت مجالات هذه الرحلات واهدافها متنوعة ومتعددة ، تقصد الى السياحة والسفارة وطلب العلم واداء فريضة الحج ، فان الرحلات الحجازية تشغل اهم حيز في هذا الفن الذي برز فيه المغاربة ، ومن اهمها : (12)

---

10) انظر كتابنا « وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ » (ط. دار الثقافة الدار البيضاء 1396 — 1976) .

11) مقدمة ابن خلدون ص 375

12) عمدنا الى الاقتصار على ذكر الرحلات المعروفة سواء ما كان منها مطبوعا — وهو قليل — أو ما كان مخطوطا ولكنه موجود في المكتبات العامة .

1 ــ ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة (13) لابى عبد الله محمد بن عمر بن رشيد السبتى (657 ــ 721 هـ) وكان قد حــج سنة 684 .

2 ــ الرحلة المغربية (14) لابى عبد الله محمد العبدري الحاحى الذي خرج من حاحة للحج سنة 688 هـ وقد اختصرها أحمد بن قنفـــد فى « المسافة السنية فى اختصار الرحلة العبدرية » (15)

3 ــ تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار (16) وهى رحلة عامة لمحمد بن بطوطة الطنجى (704 ــ 779 هـ) .

4 ــ عذراء الوسائل وهودج الرسائل او اصليت الخريت (17) لابـــى العباس احمد بن عبد الله بن ابى محلى الثائر المشهور المقتـــول سنة 1023 هـ .

5 ــ انس الساري والسارب من اقطار المغارب الى منتهى الآمال والمآرب سيد الاعاجم والاعارب (18) لمحمد بن احمد بن عبد العزيز القيسى المعروف بالسراج والملقب بابن مليح وكان رحل سنة 1040 هـ .

---

13) توجد منها خمسة أجزاء مخطوطة بالاسكوريال 7/1735 ــ 1739

14) مطبوعة ضمن سلسلة الرحلات التى نشرتها جامعة محمد الخامس بتحقيق محمد الفاسى (1968)

15) انظر وفيات ابن قنفد ص 92 (ضمن كتاب : ألف سنة من الوفيات تحقيق د. محمد حجى الرباط 1976) .

16) طبعت أكثر من مرة فى باريز سنة 1853 ــ 1869 ــ 1893 ومصر سنة 1287 هـ وبيروت 1964 .

17) مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم 431 .

18) مطبوعة بتحقيق محمد الفاسى ضمن سلسلة الرحلات (وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلى 1388 ــ 1968) .

6 ــ رحلة (19) ابى سالم عبد الله العياشى الذي حج سنة 1064 هـ .

7 ــ نسمة الآس فى حجة سيدنا ابى العباس (20) لابى العباس القادري. كان حج فى صحبة ابى العباس سيدي احمد بن محمد بن عبد الله سنة 1100 هـ .

8 ــ رحلة (21) ابن الحسن اليوسى الذي حج سنة 1101 هـ فى رفقة والده الذي صاحب الامير المعتصم ابن المولى اسماعيل والاميرة ســـت الملـــــك .

9 ــ رحلة(22) احمد بن محمد بنداوود الجزولى التملى الهشتوكى(1057 1127 هـ) .

10 ــ رحلة (23) ابى العبـــاس احمـــد بن محمد الناصري وكان حـــج سنــــــة 1121 هـ

11 ــ رحلة (24) ابى محمد عبد القادر المعروف بالجلالى الاسحاقى الذي حج سنة 1143 هـ مرافقا للسيدة خناثة وسيدي محمد بن عبد الله

---

(19) طبعت على الحجر فى مجلدين سنة 1316 هـ . وله كذلك رحلة صغيرة الفها لتلميذه أحمد بن سـعيد المكلدي ت 1094 (انظر دليل المؤرخ لعبد السلام بن سودة الطبعة الثانية ج 2 ص 339 دار الكتاب ــ الدار البيضاء) .

(20) مخطوطة فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 8787 وفى خزانة الربـــاط العامة رقم ك 1418 (ضمن مجموع) .

(21) مخطوطة فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 2343 وفى خزانة الرباط العامة رقم ك 1418 (ضمن مجموع) .

(22) مخطوطة بخزانة الرباط العامة رقم 190 ق .

(23) طبعت على الحجر فى مجلدين سنة 1320 هـ

(24) مخطوطة فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 1428 وفى مكتبة القرويـــين بفاس حيث يوجد مجلد منها رقم 258 . وقد نشر د. عبد الهادي التازي الجزء الخاص بليبيا تحت عنوان : « أمير مغربى فى طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقى » (ط. المعهد الجامعى للبحث العلمى)

12 ـ رحلة (25) أبى مدين عبد الله الروداني الدرعى المتوفى سنة1157هـ وكان حج سنة 1152 .

13 ـ رحلة (26) محمد بن احمد الحضيكى (1118 ـ 1189 هـ) وهـو الذي نحن بصدد دراسته ، وقد حج سنة 1152 هـ .

14 ـ بلوغ المرام بالرحلة الى بيت الله الحرام (27) لابى محمد عبد المجيد الزبادي المنالى الذي حج سنة 1158 هـ .

15 ـ الترجمانة الكبرى التى حملت اخبار العالم برا وبحرا (28) وهى رحلة عامة لابى القاسم بن احمد الزيانى المتوفى سنة 1249 هـ .

16 ـ رحلة (29) ابى العباس احمد بن محمد الفاسى وقد حجسنة 1211هـ

17 ـ احراز المعلى الرقيب من حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب (30) لابى عبد الله محمد بن عثمان المكناسـي المتوفى سنة 1213 وكان قد قام باكثر من رحلة سفارية منها رحلته هذه التى كتبها حين ارسل مبعوثا سنة 1201 هـ الى الملك سرور الذي كان متزوجا احدى بنات السلطان سيدي محمد بن عبد الله كما سبقت الاشارة الى ذلك .

---

25) مخطوطة بخزانة الرباط العامة رقم 1291 د .

26) مخطوطة بخزانة الرباط العامة رقم 896 د .
ضمن مجموع وفى المكتبة الملكية بالرباط رقم 405 .

27) مخطوطة بخزانة الرباط العامة رقم ك 398 وفى المكتبة الملكيـة بالرباط رقم 7246 ولكنها غير كاملة .

28) مخطوطة فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 281 ـ 3252 ـ 4260 ـ ـ 9523 وقد نشرها الاستاذ عبد الكريم الفيلالى (ط. وزارة الانباء ـ المغرب)

29) مخطوطة فى خزانة الرباط العامة رقم ج 88 ولكنها غير تامة .

30) مخطوطة فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 5264

18 ـ رحلتان لابى عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري المتوفى سنة 1239 هـ : الاولى (31) عندما حج سنة 1196 والثانية (32) عندما حج سنة 1211 مرافقا للمولى احمد نجل السلطان مولاي سليمان والمولى موسى شقيق السلطان .

19 ـ رحلة (33) الفيفائى الذي حج سنة 1274 هـ .

20 ـ رحلة (34) ادريس بن عبد الهادي العلوي وكان قد حج سنة 1288هـ

21 ـ الرحلة الفاسية الممزوجة بالمناسك المالكية (35) لمحمد بن الطيب ابن ابى بكر بن الطيب بن كيران المتوفى سنة 1314 هـ .

22 ـ رحلة (36) احمد بن محمد السبعى الذي حج سنة 1310 هـ

23 ـ الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية (37) للحسن بن محمد الفسال وقد حج سنة 1315 هـ

---

31) مخطوطة فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 5658 وفى خزانة الرباط العامة رقم 2651 (مصورة) .

32) مخطوطة فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 121 .

33) مخطوطة فى خزانة الرباط العامة رقم ج 98 ومصورة على شريط رقم 12 .

34) مخطوطة فى خزانة الرباط العامة رقم ج 104 وضمن مجموع رقمه 1115 د .

35) مطبوعة على الحجر دون تاريخ

36) مخطوطة فى خزانة الرباط العامة رقم ك 2908

37) مخطوطة فى خزانة الرباط العامة ضمن مجموع رقم 1096 .

24 ــ دليل الحج والسياحة (38) لاحمد بن محمد الهواري المتوفى سنة 1372 هـ .

25 ــ الرحلة المكية (39) لاحمد بن محمد الرهونى الذي حج سنة 1355هـ

امحمد بن احمـــد الحضيكـــي :

عنى الحضيكي بتسجيل بعض ملامح حياته ــ والجانب العلمى منها خاصة ــ فى رحلته الحجازية وفى فهرسته التى تضم اجازات مشايخـــه المشارقة والمغاربة (40) وفى اجازات أخرى اهمها اجازة عامة كتبها لعلماء سوس فى مرض موته (41) واخرى كتبها لعمر الكرسيفى (42) .

وكتب ولد الحضيكى على طبقات والده ترجمة له موجزة نقلها صاحب المعسول (43) . واهتم ابو زيد عبد الرحمن الجشتيمى المتوفى سنة 1269هـ بتسجيل حياة الحضيكى وتلاميذه ومحبيه فى كتاب سمـــاه ((مناقـــب الحضيكى)) (44) وترجم له عبد الحى الكتانى فى ((فهرس الفهـــارس

---

38) المطبعة الرسمية 1935 .

39) مطبعة الاحرار 1359 هـ .

40) انظر فهرس الفهارس ج 1 ص 262 (المطبعة الجديدة ــ فـــاس) وكذلك كتاب المعسول ج 11 ص319 ــ 320 (مطبعة النجاح ــ الدار البيضاء 1383 ــ 1963)

41) انظر فهرس الفهارس ج 1 ص 262 .

42) انظر المعسول ج 11 ص 323 .

43) ج 11 ص 319 .

44) مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم 1123 د (نسخة مصورة يضـــم القسم الاول منها طبقات الحضيكى ويضم القسم الثانى المناقب)

والاثبات)) (45) وعباس بن ابراهيم فى ((الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام)) (46) . كما ترجم له محمد المختار السوسى بايجاز فى ((سوس العالمة)) (47) وبتوسع فى ((المعسول)) (48) حيث نقل نصوصا مـــن اجازاته وترجمة الكتانى له مع تلخيص لمناقب الجشتيمى السالفة الذكر .

***

ويتضح من ترجمة ولده له ومما سبق الى ذكره عنه صاحب المناقب خاصة انه محمد بن احمد الجزولى اللكوسى اليوسى الحضيكى التارسواطى المنوزي . ولد سنة ثمانية عشر ومائة والف وتوفى سنة تسع وثمانيين ومائة والــف .

قرا القرآن الكريم فى بلده على ((امامهم سيدي عبد الله بن ابراهيم الجرسيغى ... ثم سافر فى طلب العلم وجال فى بلاده جزولة وادرك اكابـــر علمائها واخذ عنهم)) (49) . وقد استعرض فى اول رحلته اسماء اشياخــه المغاربة وهم (50) :

1 — ابو العباس احمد بن عبد الله الصوابى

2 — عبد الله بن ابراهيم الرسموكى

3 — محمد بن الحسن الحامدي

4 — احمـــد الابراهيمـــى

---

45) ج 1 ص 260 .
46) ج 5 ص82 (المطبعة الجديدة فاس 1358 — 1939)
47) ص 193 (الرباط 1379)
48) ج 11 ص 302 .
49) مناقب الحضيكى للجشتيمى ص 2 .
50) انظر رحلته من ص 2 الى 8

5 ـ احمد بن يحيى الرسموكى

6 ـ محمد الدرعـــى

7 ـ محمد الحاج ابو عبدلـــى

8 ـ احمد بن محمد العباسى

9 ـ امحمد بن على الاوزالـــى

10 ـ عبد الكريم الزيادي

11 ـ الحسين الشرحبيـــل

12 ـ ابراهيم بن امحمد السملالى

13 ـ امحمد بن يحيى الشبـــى

14 ـ ابو القاسم بن عبد الله الشبـــى

15 ـ سعيد بن عبد الرحمن الشبى

اما الشيوخ الذين اخذ عنهم فى الازهر فهم الفقهاء المالكيون احمـــد الاسكندري واحمد العماوي وعمر الطحاوي . وقد تحدث عنهم فى رحلته (51) وذكر انهم اجازوه . كما تعرض فيها لمشايخ آخرين حضر مجالسهم كعلى العروسى ومحمد البليدي والسلمونى وعلى الصعيدي والجدوي وسالـــم النفراوي وغيرهم (52) ممن كانت تزخر حلقات الازهر بدروسهم .

---

51) ص 49 ـ 50 ـ 51

52) ص 51 ـ 52

وقد جمع الحضيكى الى العلم الواسع والارومة الاصيلة سلوكا قويما وهمة عالية حتى غدا « ... عالما بارعا وللسنة بجده وهمته متابعا ، ماهرا بفنون علوم الشرع ، كريم الاصل والفرع ، وليا كبيرا صفيا شهيرا تشد الرحال لزيارته ويتباهى عصره بزينته وعمارته ، صالح العلماء وعالم الصلحاء ، علم الاعلام ومصباح الظلام ... وكان آية من آيات الله الكبرى فى زمانه علما ودينا وعلو همة وسخاوة نفس وقناعة قلب وانتشار صيت » (53)

وبلغ بهذا درجة من صفاء الذهن وطهارة النفس هيأته ليكون « صادق المكاشفات عجيب الاسرار ظاهر الانوار والكرامات (54) . ومن أعظمها دوام الاستقامة على الكتاب والسنة ما بدل ولا غير ولا مل ولا فتر ، اقام رحمه الله على الجهاد طول عمره فى العلم والعمل حتى نال من ذلك غاية الامل ولازم التدريس لا ينقطع عنه ... وكان خاتمة أهل التصوف فى عصره » (55) .

وهو تصوف سنى لا مجال فيه للشعوذة والانحراف وللبدع والمنكرات حيث « كان .. شديدا على المبتدعين » (56) و « كان .. مع ما هو عليه من الاستمساك بطريقة الصوفية لا يدعيها ولا يتزيا فى لباسه بزي الصوف من لبس المرقعات بل يلبس ثيابا حسنة بيضاء » (57) .

وقد صدرت عنه كلمات توجيهية مستوحاة من فكره وسلوكه ، مليئة بالحكمة والموعظة كهاته التى يقول فيها (58) : « من أحب الدنيا كشفت عن عيوبه .. من احب أن يتشبه بالملائكة فليقلل من الاكل والشرب ليقل تردده

---

53) ص 1 من المناقب
54) ذكر له الجشتيمى عدة كرامات فى الصفحات التالية
55) المصدر السابق ص 3
56) المصدر السابق ص 4
57) المصدر السابق ص 10
58) المصدر السابق ص 8

الى المزبلة ولتطول مدة طهارته فتزكو عبادته .. انك ان كلفتنى ما لم اطـق ساعك ما سرك » .

على أن اهمية الحضيكى تبدو فيما خلف من آثار ، وهى كثيـرة ورد ذكرها فى ترجمته منها (59) :

1 — مناقب الحضيكى (الطبقات) (60)

2 — الرحلة الحجازية (هى التى نحن بصدد دراستها)

3 — مجموعة اجازات اشياخـه

4 — فهرسـة

5 — اجازة كبيرة لتلاميذه .

6 — مؤلف ضد بلا بن عزوز المراكشـى

7 — شرح الرسالة القيروانية (61)

8 — شرح نظم العلوم الفاخرة للرسموكى

9 — جمع اجوبة شيخه احمد العباسى

10 — مختصر الاجوبة الاجهوريـة

---

59) ذكر صاحب (سوس العالمة) انه وقف على هذه المؤلفات ، وقـد أشرت الى ما هو منها مطبوع أو موجود فى المكتبات العامة .

60) مطبوعة فى جزءين (المطبعة العربية — الدار البيضاء1355 — 1357)

61) مخطوط فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 169 .

11 ــ مجموعة أجوبته الفقهية .

12 ــ حاشية على البخاري (62)

13 ــ شرح الطرفة فى اصطلاح الحديث

14 ــ مختصــر الاصابــة (63)

15 ــ مجموعة فى اصول الطريقة الصوفية

16 ــ شرح الغنيــة لابن ناصــر

17 ــ منظومة فى الوعظ (64)

18 ــ شرح همزية البوصيري (65)

19 ــ شرح قصيدة بانــت سعــاد

20 ــ شرح القصيدة الشقراطيسية

21 ــ التعليق على سيرة الكلاعى

22 ــ حاشية على الشفا

23 ــ مجموعة فى فوائد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم

24 ــ مؤلف فى تصريف الافعال

25 ــ مجمــوعــة فى الطــب

---

62) مخطوط فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 1701

63) مخطوط فى المكتبة الملكية بالرباط رقم 2599

64) مخطوطة بخزانة الرباط العامة ضمن مجموع رقم 1317 د ولم يشــر اليها صاحب « سوس العالمة » .

65) مخطوطة بخزانة الرباط العامة ضمن مجموع رقم 1658 د وفى رقم 1478 ك وفى المكتبة الملكية بالرباط رقم 1868 و 3985 .

رحلتـــــه :

توجـــد منهـــا نسختـــــــان :

الاولى : مخطوطة بالمكتبة الملكية ومسجلة تحت رقم 405 . وهـــى مكتوبة بخط مغربى دقيق ، ولكنه على دقته واضح ومقروء ومتوسط الجودة. وتقع فى خمس وخمسين صحيفة فى كل منها تسعة وعشرون سطرا . وهـــى منسوخة فى الثالث عشر من جمادى الثانية سنة ثمانية وسبعين ومائتين وألف

الثانية : مخطوطة بخزانة الرباط العامة ومسجلة تحت رقم 896 د . وهى مكتوبة بخط مغربى غير جيد ، وبها بعض المحو والخروم ، وتقع ضمـــــن مجموع من الورقة 10 ألف الى 29 ألف أي فى تسع وثلاثين صحيفة من الحجم الكبير ، فى كل منها واحد وثلاثون سطرا . وهى أقدم من الاولى لانها نسخت سنة 1229 . وقد كتب فى طرة الصحيفة الاولى ما يلى : « الذي يظهر مـــن تأمل هذه الرحلة أنها للشيخ أبى عبد الله محمد بن أحمد الحضيكى السوسي المترجم عندنا فى حرف الحاء من فهرس الفهارس ، فان المشايخ الذين سمى ولقى ، هم مشايخه الذين ذكرهم فى فهرسته وكناشته وهما عندي . كتبه محمد عبد الحى الكتانى » .

وعلى الرغم من أن هذه النسخة اقدم من الاولى ، فان هاته تبدو اكثر ضبطا واقل تحريفا ، ومن ثم اعتمدناها فى نقل النصوص ، ويبدو من المقابلة انهما منقولتان عن نسخة ثالثة لم تصل اليها يد البحث بعد .

***
**

وقد استهل الحضيكى رحلته بتحديد الهدف من كتابتها فصرح بأنـــه « ذكر جماعة ممن لقيناهم من العلماء فى الحضر والسفر رجاء من الله تعالى عظيم البركة وشمول الرحمة عند ذكرهم والانخراط فى سلكهم لوفور محبتى لهم ولعظيم شوقى لذكرهم » (66) .

---

66) ص 1

وبعد أن استعرض أشياخه المغاربة قال : « وهنا انتهى ذكر من ذكر من الاشياخ ولا أطيق حصرهم .. ولنشرع في ذكر من لقيناه في سفرنا للحج وبعض مراحله » (67) .

ولم يخف الحضيكى أن الحج لم يكن يخطر له ببال ، على الرغم من شدة شوقه لزيارة البقاع المقدسة ، وأن امكاناته المادية لا تسعفه ، وأن ابن عم له هو الذي سدد له النفقات في آخر لحظة والناس على أهبة السفر . « لما تهيأ الناس وعولوا على الخروج للحج سنة اثنين وخمسين ومائة والف ، وكنت مع أصحاب لى وقتئذ نتذاكر في مسائل من العلم في بلدتنا ترسواطة بواد لكوسة ، لا يخطر لنا السفر للحج ببال لعدم النفقة ، الا أنى كنت أدعو وألهج بزيارة النبى صلى الله عليه وسلم قبل ذلك .... فبينما نحن كذلك جلوس نتذاكر اذ جاء الخبر أن ابن عم لى كان ممن تهيأ للسفر وأعد له كل ما يحتاج اليه في طريقه من زاد ومركوب وقد نزلت به الحمى من عند الله تعالى ووعك وعكا واهتم بالقعود فأرسلت اليه ساعتئذ ان أدفع لى النفقة فانخلع لك من مالى ففعل ، فارتحل الناس وارتحلنا معهم في الثالث من يومنا ذلك » (68) .

وتحرك الركب نحو سجلماسة فالقنادسة لينطلق منها في الطريق الذي اعتاد الحجاج أن يسلكوه ، مرورا بأقاليم الشمال الافريقى عبر مدن وقرى عددها ووصفها كعين ماضى وبسكرة وقابس وجربة وطرابلس وبرقة . وحين وصل الركب الى مصر توقف بمراكز كثيرة في طليعتها بولاق والسويس ، ومنها عبر الى أرض الجزيرة العربية مرورا بمواقع ذكرها كبير الصعاليك والعقبة والشرافات ومغارة شعيب فبير الدركين (69) الذي ذكر أنه « حد الحجاز من جهة الغرب » (70) . ومنه انتقل الى الحوراء فالنبط (71) ووادي

---

67) ص 9 .
68) ص 9 وتجدر الاشارة الى أن الرحلة كانت على البغال (ص 11)
69) في نسخة الخزانة العامة (بين)
70) ص 17
71) او النبد

النار والخضير والينبوع وبدر حنين والبزوة فرابغ (72) الذي توقف فيه واحرم ثم أخذ طريق الجحفة ومديد وعقبة السكار وكديد وعسفان ومر الظهـــر أو وادي فاطمة وذي طوى فمكة المكرمة .

وبعد ان أدى المناسك وقف قليلا عند هذه المدينة ليتحدث عنها وعن الكعبة وعن مناسك الحج وآدابه وعن المشاهد والقبور وامكان المجـــاورة بمكة ، متوسلا بنصوص القرآن والحديث وأقوال الفقهاء ، ومستطردا الى تحليل بعض الاحاديث ومدى صحتها ، على حد ما فعل حين أورد الحديث النبوي المتعلق بالحجر الاسود « ليبعثن هذا الحجر الاسود يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من أسلمه بحق » (73) .

وانتقل بعد ذلك للمدينة المنورة ليتحدث بنفس علمى هادىء وطويل عن الزيارة وآدابها . وفى المدينة راوده أحد أصحابه السوسيين بالمجاورة ولكنه استعظمها وأبدى عزمه عليها فى مصر . وفى ذلك قال : « وعزمت عليها بمصر لما علمت من سوء حالى وخبث نفسى ، لا اطيق المحافظة ورعاية الحرمة فى ذلك الجناب العظيم والمقام الجسيم » (74) .

وعبر نفس الطريق عاد الحضيكى مع بعض رفاقه من طلبة ســـوس حيث توقف بمصر والتحق بالازهر للدراسة ، وهو جامع لم يفت المؤلـــف أن يقف عنده وقفة قصيرة كما وقف للحديث عن النيل والاهرام التى انهى بذكرها رحلتـــــه .



وقد عنى الحضيكى فى هذه الرحلة بتقديم العديد من المعلومـــــــات الجغرافية والتاريخية الدقيقة ولفت النظر الى بعض الملاحظات الاقتصادية والاجتماعية ، فضلا عن المادة الفقهية التعليمية التى قدم فى عرضه لمناسك الحـــج .

---

72) هو مكان الاحرام بالنسبة للمغاربـــة .
73) ص 23 .
74) ص 48 .

فهو فى كل مرحلة يعرف بموقعه وحد هذا الموقع كقوله : ((ثم نزلنـــا خلاء يعرف ببير الدركين قيل انه حد الحجاز من جهة الغرب)) (75) . وكقوله عن النمرة ((وهى حد عرفه من جهة مكة)) (76) وهو فى جميع الاماكن التى مر بها الركب مهتم بقضية الماء ، وهى حيوية بالنسبة للحاج ، فيقول مثلا : ((ونزلنا بندرا يقال له الوجه وماؤه حلو لا باس به ثم .. نزلنا واديا يحفر فيه الحجاج الماء وهو ملح أجاج يسهل شاربه وبعضه أشد ملوحة مــــن بعض)) (77) .

ثم انه فى استعراضه لمختلف المراحل والمواقع يعطى البيانات الجغرافية والتاريخية اللازمة كقوله عن الينبوع وبدر حنين : ((ثم نزلنا الينبوع وهى قرى كثيرة ذات نخيل ومياه قيل انها من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وأقمنا فيه يوما وماؤه حلو طيب ، وهى مرسى تخرج فيها أقوات أهل المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وتحمل منه اليهم . ثم منه ونزلنا وراءه ثم ارتحلنا ومررنا بين جبلين عظيمين من رمل واستبق الناس فوقهـــــما يستمعون صوت طبل يضرب هناك لاجل نصرته صلى الله عليه وسلم والفرح بها ، فأخبرنا بعض من صعد ذلك الجبل أنه سمع صوتا هائلا يشبه صوت طبل الحرب وذلك مكان وقعة بدر التى نصر الله بها الدين . وقد اختلـــف العلماء فى سماع ذلك الصوت فمنهم من يثبته وقال أنه يسمعه هناك دائما يوم الاثنين والخميس وفى غيرهما سمعه أحيانا . فنزلنا وراء ذينك الجبلين وفيه عين تجري ونخيل وقرية تعرف الان ببدر حنين وفيه قبور الصحابة الذين استشهدوا به تزار رضى الله تعالى عنهم)) (78) .

وكان اهتمام الحضيكى بالجانب التاريخى كبيرا ، وخاصة ما يتصل منه بالرجال ، حيث نجده يلتفت اليه وهو ما زال بعد فى المغرب . ففى سجلماسة تحدث عن ((شيخمن شيوخ الوقت عظيم الشأن والقدر طويل الباع فى علوم

---

75) ص 17 .
76) ص 19 .
77) ص 17 ..
78) نفس الصحيفـــــة .

الشرع وله يد بيضاء فى علوم القراآت يزوره الناس من بلاد بعيدة مـــلازم للخلوة لا يخرج منها الا أحيانا خضعت له رقاب الجبابرة والعامة وسلمت له العامة والخاصة فى العلوم والعمل ونشرت صيته فى الغرب والشرق وصار فى نواحى الغرب فريدا وحيدا بعلوم الحقيقة والشريعة وظهرت لنا منه حين جالسناه سمة عجيبة وفاحت منه ريح ذكية طيبة وقرأ عليه صاحبنا سيدي سعيد أستاذ ساحلنا الفاتحة وأقام لسانه له فيها فى حروف . فمن ثم تعلـم جلالة هذا الشيخ وتمهره فى علم القراآت من ان السيد سعيد هذا قد سلم له فى القراآت فى بلادنا الساحلية ، وباسطنا نفعنا الله به فى المجلس وسارنا بكلام يدل على مكاشفته وكرامته ، وفشا على ألسنة أهل سجلماسة أنه كان من تلامذة البقري أستاذ مصر يجود عليه القرآن فى جامع الازهر بمصر وهو فى بلده سجلماسة والبقري فى داره بمصر وسألنا عن ذلك ولم نسمع مـن ينكره منهم ، بل قالوا ان له درسا فى العلوم فى جامع الازهر بمصر نصب فيه مجلسا لا يتخلف عنه ، وهو رضى الله عنه نحيف الجسم فى ســن الشيخوخة والله يرزقنا واياه صحبة أوليائه ويحشرنا فى زمرتهم وودعنا رضى الله عنه ، وشهرته بابن الحبيب وأسمه احمد بن الحبيب » (79) .

ولا بدع ان يهتم الحضيكى بهذا الجانب طالما انه صرح فى أول رحلته ان الهدف منها هو ذكر رجال العلم وأشياخه منالمغاربة والمشارقة، وقدسبق ان ذكرناهم فى ترجمته .

وفى نطاق اهتمامه بالجانب التاريخى نجده لا يمر بقرية أو مدينة دون أن يزور أضرحة أوليائها وعلمائها . فقد تحدث فى الحجاز عن قبور الشهداء والصحابة وازواج النبى وعن المساجد والبقاع على حد ما فعل حــين استعرض قبور البقيع (80) وكذلك حينعدد مزارات مكة و «أولها البيتالذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وقد جعلته الخيزران جارية المهدي مسجدا يصلى فيه وأخرجته من الدار الى الزقاق الذي يقال له زقاق المولد. والثانى منزل خديجة عليها السلام الذي كان يسكنه الرسول صلى الله عليه

---

79) ص 11 .

80) ص 42

وسلم وخديجة ، وفيه ولدت أولادها منه صلى الله عليه وسلم ، وفيه توفيت خديجة رضى الله عنها ولم يزل النبى صلى الله عليه وسلم مقيما به حتى هاجر فأخذه عقيل ثم اشتراه منه معاوية فجعله مسجدا يصلى فيه وبناه . والثالث مسجد فى دار الارقم عند الصفا ويقال لها دار الخيزران ، كان النبى صلى الله عليه وسلم مستترا فيه فى بداية الاسلام ، والرابع مسجد بأعلى مكة عند الردم عند بنى جبير بن مطعم . الخامس مسجد بأعلى مكة أيضا يقال له مسجد الجن يقال موضع الخط الذي خطه لابن مسعود ليلتئذ ويقال له مسجد البيعة لان الجن بايعوه صلى الله عليه وسلم هناك . السادس مسجد باعلى مكة يقال له مسجد الشجرة يقابله مسجد الجن يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا شجرة كانت فى موضع ذلك المسجد فأقبلت تخط الارض حتى وقفت بين يديه ثم أمرها فرجعت . السابع مسجد يسميه اهل مكة مسجد عبد الصمد بن على لانه بناه . الثامن مسجد على يمين الموقف يقال له مسجد ابراهيم ، وهو غير مسجد عرفة الذي يصلى فيه الامام التاسع مسجد بمنى يقال له مسجد الكبش لان الكبش الذي فدى به ولد ابراهيم عليه السلام نزل هناك . العاشر مسجد على جبل أبى قبيس يقال له مسجد ابراهيم بعضهم وليس هذا بالخليل . الحادي عشر مسجد باعلى مكة عند سوق الغنم يقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع الناس عنده يوم الفتح . الثانى عشر مسجد العقبة حيث بايعه الانصار . الثالث عشر مسجد بذي طوى . الرابع عشر مسجد الجعرانة حيث أحرم صلى الله عليه وسلم . الخامس عشر مسجد التنعيم حيث أحرمت عائشة رضى الله عنها بأمره صلى الله عليه وسلم . السادس عشر جبل حراء حيث يتعبد صلى الله عليه وسلم . السابع عشر جبل ثور الذي اختفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فى الهجرة » (81) .

ويتضح ميل صاحب الرحلة الى تقديم معلومات عن البقاع التى زارها فى مثل قوله عن المسجد الحرام : « أعلم ان المسجد الحرام كان صغيرا ولم يكن عليه جدار وانما كانت الدور محدقة به وبين الدور أبواب يدخل الناس من ناحية فضاق المسجد على الناس فاشترى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

---

81) ص 33 .

دورا فهدمها ثم احاط عليه جدارا قصيرا ثم وسع المسجد عثمان رضى الله عنه فاشترى من قوم ثم زاد فيه ابن الزبير رضى الله عنهما اشترى دورا فأدخلها فيه . ثم زاد المنصور فى شقه الشامى، ثم زاد المهدي، وكانتالكعبة فى جانب فاحب ان تكون وسطا فاشترى دورا ووسطها . وأول من نفد اليه اساطين الرخام وسقفه بالسياج المزخرف الوليد بن عبد الملك » (82) .

وشبيه بهذا قوله عن منبر الرسول عليه السلام « واما منبره صلى الله عليه وسلم فقد احترق فى جملة حريق المسجد سنة أربع وخمسين وستمائة ودثر واخذ ما بقى من أعواده فعملت أمشاطا للتبرك ولم يبق له اثر الآن بالكلية .. والمنبر الموجود الآن ليس له فضيلة منبره صلى الله عليه وسلم وان كان فضله عظيما لكونه فى البقعة الشريفة » (83) .

وتصل المعلومات التى يقدم عن المشاهد والمزارات الى درجة كبيرة من الدقة على حد وصفه لغار ثور بانه « غار له بابان بابه الاصلى الذي دخل منه صلى الله عليه وسلم الى جهة المغرب ، فيه ثلاثة أشبار عرضا وفى ارتفاعه أزيد من شبر وبابه الشرقى اوسع وفى وسطه قدر قامة الانسان وسعته نحو عشرة اذرع » (84) .

اما الجانب الاقتصادي فيبدو عند الحضيكى فى بعض الملاحظات التى انتبه اليها ولفت الانظار كقضية العملة المحلية وضرورة تحويلها الى ذهب وكبعض السلع القابلة للتبادل والمقايضة . وفى ذلك يقول : « ولك ان تصرف دراهمك بالذهب فانه هناك ارخص تبرا ومسكوكا مما استقبلته الى بلاد الشرق . وفيه فائدتان يروج فى كل بلد أمامك وتصيب به غرضك حيث كنت وكيف شئت بخلاف هذه الدراهم الاسماعيلية فرواجها فى عمالة المغرب فاذا خرجت منها فلا تروج الا ببخس . والفائدة الثانية أنك اذا صرفتها ذهبا تبرا كان او مسكوكا خف عليك حمله ، تشده الى بطنك أو تعلقه على جنبك

---

82) ص 29
83) ص 41 .
84) ص 33 .

فلا يثقلك اذ من اهم الامور ان تصاحب نفقتك ولا تفارقها طرفة عـــين فى الحركات والسكنات مخافة السراق وتدفعه ايضا فى بلاد الشرق باكثر مما اخذته به هنا ولك ايضا ان تشتري العطرية الكحل والشب والكبريـــت والمشط والمرآة والجلود المدبوغة الحمر والصفر والنعال فانك ستلقـى العرب رجالا ونساء يسالون عن ذلك ومعهم اللحم والخضر والفواكه والسمن واللبن وغير ذلك يدفعونه فى العطرية ولا تنال غرضك منهم الا بها » (85)

ومما يدخل فى هذا الجانب الاقتصادي ما ذكر بأن الحجاج فى منى بعد ان نحروا وافاضوا « اظهروا من الزينة والحلى والحلل وأنواع الملابس ما لا عين رات ولا أذن سمعت من نسج اليمن والعراقين والهند والروم وخراسان وانواع الطيب واختلاف الوانه تهب به الريح من كل جانب وتفوح به الهواء وانواع السلع ونفائسها وتشريق اللحوم بأطيابها ، وأبرزوا تجارتهـــم بأصنافها ، فيا لذلك الموسم العظيم والمربح الكبير الجسيم من بركة عظيمة فليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » (86) .

والرحلة بعد هذا غنية بالارتسامات الاجتماعية على حد قوله عن اهل مكة بأنهم « اهل كرم وجود ، وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشـــــرة ، والوانهم الى الادمة ناضرة ظهرت فيهم سمة المجاورة وغطتهم محاســن الكعبـــة » (87) .

وقد كتب الحضيكى رحلته بأسلوب تبدو العبارة فيه مركزة وموجزة وسهلة في الغالب (88) ، لا يميل الى السجع الا فى بعض الوقفات التى تهدأ فيها نفسه ليتذكر ويتأمل أو يدعو ويتوسل كقوله حين توقف برابغ : « فلما كشف الليل سرباله وشمر أذياله ، واسبل النهار اضواءه وأزهاره ، بـــادر الناس اغتنام سنة الاشعار والتقليد ، وخلعوا المخيط بالتجريد ، وعملوا

---

85) ص 10 — 11 .
86) ص 20 .
87) ص 21 .
88) قد يظهر بعض القلق والاضطراب فى العبارة ولكنه راجع الى النسخ.

بالتأزر والانتعال ، بعد التنصف والاغتسال ، واستانسوا بالتلبية والابتهال ، من طول الوحشة والاوجال ، وركبوا وقد استهل برؤية الهلال ، على متون الرواحل والجلال ، ونادى مناديهم بالارتحال ، وازدحموا للتحول والانتقال، وأهلوا بالحج على الجبال ، مقبلين على مواطن الخيرات والاعمال ، أماكن تحط فيها الاوزار والاثقال ، وترفع فيها الاكف الى الله مولانا المتعـــــال ، ومواضع الرجاء والتضرع والاستقال ، حيث يرضى المولى الجليل عبـــده الحقير بالغفران والكمال ، واسباغ النعم ودرور الارزاق واسترسال مهبط الرحمة ، والبسط والانس والاعتدال، أم القرى وحرم الله ذي الاكرام والجلال، سبحانه من الاه بلا مثال ، والله يوفق لصالح القول والفعال (89) » .

وهو فى أسلوبه يتوسل بصيغ الخطاب والتنبيه والتوجيه على حد ما راينا فى بعض النصوص التى أوردنا حيث يستعمل كلمات ك : أعلم ــ ولك ــ اياك . ثم انه غالبا ما يستطرد بعرض المعلومات أو ذكر الادعية والنصائح او للاستشهاد ببعض الابيات والمقطوعات التى تضفى على رحلته جــوا شعريا يزيد فى بث الشحنات العاطفية التى تثيرها البقاع المقدسة ، كانشاده عن المدينة المنــورة (90) .

يا دار زين المرسلين ومن بـــــه	هدى الانام وخص بالآيـــــات
عندي لاجلك لوعـــة وصبابــــة	وتشـــوق متوقـــد الجمـــرات
وعلى عهد ان ملات محاجـــري	من تلكم الجدران والعرصـــات
لاعفرن مصون شيبى بينهـــــا	من كثرة التقبيل والرشفـــات
لولا العوادي والاعادي زرتهـــا	ابدا ولو سحبا على الوجنـــات
لكن ساهدي من جميل تحيتـــى	لقطين تلك الدار والحجـــرات
اذكى من المسك المفتق نفحـــة	تغشـــاه بالآصال والبكـــرات

الرباط   د. عباس الجراري

---

(89) ص 18 .

(90) ص 44 ، والقطعة للقاضى عياض السبتى المتوفى سنة 544 هـ . وقد أوردها فى كتابه « الشفا » (ج 2 ص 133 ــ 134 ط دار الوفا ــ دمشق) .

السيدة ... والمخلب

عبدالمجيد ابن جلون

ان الحيـــاة غضـــة ضاحكـــة مستبشـــره
رائعـة ، وان تكـــن مشمسة أو ممطـــره ،
وان تكـن غيومهـــا مطبقـــة منتشـــره ،
وان تكـن رعودهـــا قـــد دمدمت مزمجـره ،
حياتنـــا عامـــرة وان تكـن مختصـــره ،
وينشـــد الانســـان خلـ ـــدا دائما .. ما أكفـره ،
كـــان التلـــوى علـــى مـــدى الوجود جـــوهره
فعش حياة تسـع الـــ ـــأكوان .. لا مبتسـره..
يأخـذ كـــل ذاهـــل من الحيـــاة حـذره ...
ولـــو درى أودعهـــا مظهـــره ... ومخبـره ..

تحبنـــا الحيـــاة حيـــ ـــن نخلص الحب لها ..
غـــانيـــة فاتنـــــة مكبـــرة جمالهــــا ...
أنت تنكرت لهـــا ؟ اذن ، فلـــن تنالهـــا ...
تحـــب مـــن يحبهـــا ومن يـــرى كمالهـــا
ومن يـــرى وفاءهـــا ويصطفـــى خلالهـــا
يؤثـــر قربهـــا جـــو ار النفس .. بل وصالها..
وان جفـــت داعبهـــا مسترضيا دلالهـــا
وان قســـت جاملهـــا ممتدحـــا خصـــالهـــا ...
فانها سيـــــــدة قـــد أعـــززت منالهـــا
لهـــا مشاعـــر المـــلا ئـــك .. فلا تعبس لها ...
أرى الحيـــاة أهملـــت كـــل ضعيـــف خرع ...
والهاربين مـــن صـــرا عها العجيب المتـــرع
وكـــل مـــن ببهجـــة فى ربعهـــا لـــم يسمـــع
وكـــل من صـــدورهـــم للحـــب لـــم تتســـع ...
وكـــل ذي عقـــل مـــريـــ ـــض .. أو خبال بشع...
ومن يرون فى الحيـــا ة مركبـــا لمطمـــع
وللمـــآســـى مسرحـــا تسيـــل مـــر الادمـــع

كأنمــا الأنـــــوار فى سمائنــا لـــــم تسطــع
أو أننا نعيــش طـــول عمرنـــا فى بلقـــــع
قد عشش الظلام دهــــ را فيه .. لـم ينقشع ...

تقول لـــى ان الحيـــا ة أصبحــت منصرفــة
وان ريحــا صرصــرا عاتيــة مقصفــــة
تنفخ فى السور .. وتطــ ـــوي فى الوجود صحفــه
وان فلسفــــة نعـــــ ى الكون، نعــم الفلسفه:
تأبين كـــل بسمــــة .. رثـــاء كـــل زخـــرفه ...
تخطف الموت ؟ ومـــن ذا لا يعض مخطفـــه ..؟
من ذا الذي ينجو غـــدا من مخلب للمتلفــــه ..؟
مات الملايـــين ومـــــا مـــن أحـــد قـــد ألفـــه
يا صاح دع عنك متـــا عب الظنون المتلفـــــه
وأخرج الـــى الضياء فى قلـــب الريـــاض المورفه

تضحكنى يا صاح ، انــ ـــنى فتى نـــن يفتننا ...
يرعبك المـــوت .. فأنـــ ـــت ميت .. ما دفنـــا ...
تحيا مع الموت علـــــى قيد الحياة .. ممعنـــا ...

أضحى محياك كئيـ ـبا .. غائرا .. مغضنا ..

دعنى أراك فى الحيا ة معجبا مفتتنا ..

سريعة هى حيا تنا .. ؟ اذن فغننا

أغنية للضاحكيـ ـن من بنى بشرنا

عن التراب والردى ومخلب يرعبنا ...

فلنشغل الحيا ة عنه . . .

قبل ان يطوينا ...

أزعجك الموت مدى الـ ـدهر كما أزعجنا ...

لانه يسلبنا القهر من وجودنا ...

وانها لتحتفى بنا .. ولا تقتلنا ...

كانت لنا أما فكيـ ـف لا نحب أمنا ...

فالمخلب المجنون قد أولع بالبطش بنا

بنا ... وبالسيدة الـ ـحسناء ... منذ جئنا ...

الربـاط **عبد المجيد ابن جلون**

أصول النحو وأصول النحاة

د. تمام حسان

لا يقوم العلم الا بالتجريد والتقسيم ، واقصد بالتجريد التفكير في حقائق غير مادية مأخوذة من حقائق مادية في الغالب فاذا جرد الشاعر من نفسه شخصا وخاطبه فقد فكر في شخص غير مادي وتصوره على نحو ما يكون الاشخاص الحقيقيون الماديون . واذا استعمل الانسان كلمة مثل « شجرة » وجعلها شاملة لانواع من الشجر تختلف شكلا وحجما وثمرا ونفعا فقد جرد من هذه الامشاج من الشجر مدركا كليا مجردا وسماه « شجرة » بعد أن أخذه من الاشجار المادية التي رآها من قبل . وفائدة هذا التجريد في حياتنا العامة أننا نستطيع به عند مصادفة المفردات التي لا عهد لنا بها أن ننسب كل مفردة منها الى مفهوم مجرد ، أي الى مدرك كلي سبق لنا تكوينه . أما في العلم فان مجموع المدركات الكلية يكون اطارا عاما للتفكير في كل فرع من فروع المادة . واقصد بالتقسيم ما يلجأ الباحثون اليه من تصنيف المفردات الى أصناف وطوائف بين مفردات كل طائفة منها مشابهه محددة تبرر هذا التصنيف . ولولا التجريد والتقسيم لاستعصى على الانسان أن يخلق أي نوع من أنواع النشاط العلمي ، لان مفردات الظواهر من الكثرة

بحيث لا يمكن أن يتصدى لها الباحث فرادي ، ولو قد فعل الباحثون ذلك لافنوا الاعمار والاعصار دون أن يصلوا من مأربهم الى طائل .

ويغلب فى العلم أن يفرق الباحثون بين الكليات والمفردات ، وأن ينتخبوا من الكليات ما يسمونه « الثوابت » ومن المفردات ما يسمونه « المتغيرات » وأن ينسبوا العدد الكبير من المتغيرات الى أحد الثوابت . ففى الحساب مثلا نرى العلامات الدالة على الجمع والطرح والضرب والقسمة والمساواة كلها من الثوابت لتوقف الجمع على علامته والطرح على علامته وهلم جرا ، ولكن الارقام الدالة على الاعداد تعبر عن متغيرات ، كما يبدو من ثبات علامة (+) و (=) مثلا وتغير الارقام فيما يلى :

$$2 = 1 + 1$$
$$3 = 2 + 1$$
$$6 = 4 + 2$$
$$16 = 7 + 9$$

« فثبات » العلامتين جعل العمليات الاربع من قبيل الجمع وان « تغيرت » الارقام الدالة على الاعداد . وفى المنطق الرياضى علامات ثوابت مشابهة ورموز متغيرات تدل على مفردات القضايا على نحو ما نرى فى :

ق د ل = القضية المرموز اليها بالرمز ق تتضمن * اخرى لها رمز ل) فمثلا ضربت الولد تتضمن ضرب الولد لانها تدل عليها دلالة ضمنية .

وانتخاب الثوابت لفرع من فروع المعرفة يعتبر أصلا من اصول التفكير فى هذا الفرع مثله مثل طريقة البحث واختيار المصادر التى تؤخذ منها البينات **data** ولقد كان على النحاة العرب أن يفكروا فى اصول المادة من جهة (وهى التى سميناها « أصول النحو » فى العنوان) وأن يحددوا المنهج والمصادر من جهة اخرى (وهى التى سميناها « أصول النحاة) . فأما أصول النحو أو (ان شئت) ثوابت النحو فقد عرفت عند النحاة باسم « الاصول الثابتة » اذ جعلوها فى مقابل المتغيرات التى عرفها اللغويون باسم « اللغة » أو « المتن » ؟ وامتدت فكرة الاصول الثابتة

---

* الرمز د يدل على التضمن .

على فروع الدراسات المتصلة بالتقعيد جميعا سواء من ذلك الدراسات الصوتية ، والدراسات الصرفية والدراسات النحوية . ففى الاصوات اصل المخرج واصل الصفة (من شدة ورخاوة وجهر وهمس الـخ) واصل الافراد والتشديد واصل الطول والقصر وأصل الصحة والعلة واصل الحرف والصوت وهلم جرا . فالنون فى « ينبت » أصل مخرجها اللثة ولكنها نطقت كما تطق الميم، والدال فى « قد تم » أصلها الجهر ولكنها نطقت مهموسة مدغمة فى التاء ، والواو فى « اتقوا الله » أصلها الطول ولكنها نطقت قصيرة لالتقاء الساكنين ، وهكذا فى البقية . وفى الصرف أصل الاشتقاق والجمود واصل التجرد واصل الاسمية أو الفعلية أو الحرفية ، واصل التكلم او الخطاب او الغيبة ، واصل الافراد او التثنية أو الجمع ، واصل التذكير او التأنيث ، واصل التعريف او التنكير الـخ . . . فكلمة « يزيد » علما أصلها الفعلية ومحمد وصالح اصلهما الوصفية ، وكلا وكلتا أصلهما الافراد اذ يقال : كلانا غنى ولا يقال غنيان ، وصاحب الحال اصله المعرفة والحال اصلها الاشتقاق والانتقال ، والتمييز أصله الجمود . وفى النحو اصل الاظهار او الاضمار ، واصل الذكر او الحذف او الزيادة ، واصل الفصل او الوصل ، واصل التقديم او التأخير أو القلب ، واصل الافتقار أو الاستغناء ، واصل الاعراب او البناء ، واصل المطابقة ، أو عدمها ، واصل الربط أو عدمه ، واصل الوضع الذي هو نمط خاص لكل جملة الـخ . . . فالضمير فى زيد قام أصله الاظهار ولكنه استتر لما بين زيد المقدم وقام المؤخر من مطابقة أذهبت اللبس ، واذا قلت : « دنف » فى جواب : « كيف زيد » ؟ فأصلها : زيد دنف ، والخبر فى قولك فى الدار زيد اصله التأخير ، والمنادي المبنى أصله الاعراب اما البناء فطاريء عليه ، وهكذا .

وحين حدد النحاة هذه الاصول الثابتة (اي أصول النحو) نتيجة استقرائهم للغة نظروا فى النصوص المروية فوجدوا فيها ما جاء على الاصل وما جاء على غير الاصل . فأما ما جاء على اصله فلا يسأل النحاة عن علته فليس لاحد أن يقول : لماذا جاءت « ضرب » على وزن فعل ، ولا ان يقول : لماذا تقدم المبتدأ فى قولنا : « زيد فى الدار » ، لان الاصل فى الماضى الثلاثى المجرد المبنى للمعلوم أن يكون على صيغ معلومة اشهرها فعل (بفتح ففتح) ولان الاصل فى المبتدأ التقديم ، وما جاء على أصله فلا يسأل عن علته . ولا يكون التعليل الا عند الخروج عن الاصل ؟ فاذا وجدنا « قال » فى مكان

« ضرب » كان علينا أن نعلل انقلاب عين الفعل الفـــا ، ومن هنا قالوا : « تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقبلت الفـــا » . فالعدول عن الاصل فى عرف النحاة يتطلب تعليلا حتى يصبح نظام اللغة اطارا عاما ترد اليه الاوابد وبذلك تكون اللغة مطردة القواعد سهلة التصور على العالم والمتعلم على حد سواء ، فاذا وجد النحوي من الاوابد ما لا ينسجم مع الاطار العام لاصول اللغة فان كان الاصل المهدر قاعدة ردت الابدة اليه بالتخريج وان كـــان الاصل ثابتا (أي احد الاصول الثابتة) ردت الابدة اليه بالتأويل ، وهكـــذا يصبح التخريج والتأويل طريقين لنسبة اوابد المتغيرات الى القواعد والاصول الثابتة . فمثال رد الابدة الى قاعـــدة ما قراه عيسى بن عمر من قولـــه تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير » بنصـــب الطير مع دعوى أنها تابع للمنادي على رغم القاعدة القائلة ان تابع المنادي كالمنادي لا يكون بالالف واللام مع « يـــا » بل ينبغى أن تتوسط « أيهـــا » بين « يـــا » وبين المنادي أو تابعه . ولما كان ذلك كسرا للقاعدة فقد قبل النحاة القراءة واعملوا فيها التخريج فقالوا ان الطير معطوف على « فضلا » وليس على « جبال » ؟ وهكذا سلمت القاعدة ، واصبحت الابدة غير آبدة . واما التأويل فيكون بجعل الابدة « تئول » الى أصل ثابت بواسطة التقدير أو التضمين أو التفسير او الفك او السبك . فالتقدير يكون بالقول بالزيادة كالتاء فى اجتمع أو بالحذف كالواو فى عدة او بالاضمار كالمستتر فى زيـــد قام أو بالقلب كالطاء فى اضطر او بالنقل كالهمزة فى اشياء او بالاعـــــلال كالالف فى قال او بالابدال كالهمزة فى كساء او بالفصل مثل كان فى قولـــه « على كان المسومة العراب » او بالتقديم والتأخير كما فى خاف ربه عمر . والتضمين يكون بالاعتداد بالمعنى على رغم المبنى كما فى قول على بن أبـــى طالب رضى الله عنه : ان بشرا قد طلع اليمن (مع ضم اللام فى طلع) والمعروف أن الفعل لا يتعدى اذا كان مضموم العين فضمن اللازم وهـــو « طلع » معنى المتعدي وهو « بلغ » فسلمت المسالة بالتأويل . اما التفسير فانه يظهر مثلا فىتحليل : « اذا السماء انشقت » اذ ينبغى للظرف ان يدخل على الفعل فقالوا ان التقدير : اذا انشقت السماء انشقت وجعلوا الفعل الثانى مفسرا للاول . والفك يبدو فى اعتبار اذ ما الشرطية مكونة من اذ الظرفية + ما الزائدة للتأكيد ، كما يبدو السبك فى اعتبار أن والفعل فى قوة المصدر وتسميتها مصدرا مؤولا .

ذلك هو مجال التأويل فى النحو ، والتأويل معناه الارجاع (من آل يئول) والمرجوع اليه هو الاصل الثابت والراجع هو الآبدة التى لم توافق هذا الاصل فى مظهرهـــا ٠

قلنا ان العدول عن الاصل يتطلب التعليل ؟ وهذا العدول عن الاصل يكون فى المسموع ٠ والمسموع الذي خالف الاصل اما ان يكون مطردا فيقاس عليه واما الا يكون مطردا (أي يكون شاذا) فيسمع ولا يقاس عليه فمن النوع الاول « قـــال » لانها اعلت عينها ولم تصح ولكن اعلالها يخضع لقاعدة صرفية مطردة تقول : « اذا تحركت الواو أو الياء والفتح ما قبلهما قلبتا الفـــا » ومن ثم يقاس على « قـــال » كل ما جاء على غراره ٠ ومن النوع الثانى كل رخصة أو ضرورة شعرية أو توسع فى الاستعمال جاء به الفصحاء فلم يرده النحاة لفصاحة قائله ولكنهم جعلوه مما لا يقاس عليه غيره فـــى الاستعمـــال ٠ ولقد بنى النحاة لانفسهم نظاما محكما من العلل التـــى اخذوا معظمها عن الفقهاء واصول الفقه ، فبلغوا بهذه العلل اربعا وعشرين وكأنهم جعلوها ازواجا تقع واحدة فى كل زوج بازاء الاخرى كالتشبيه بازاء التضاد وكالتخفيف بازاء الاستثقال وكالتنظير بازاء النقيض وكالمشاكلة بازاء الفرق وكالوجوب بازاء الجواز وكالحمل على المعنى بازاء التحليل وكالمعادلة بازاء الاولى وكالتعويض بازاء الاختصار وكالاصل بازاء الاشعار وكالدلالة بازاء المجاورة وكالسماع بازاء التغليب وكالتوكيد بازاء الاستغناء ٠

هذا الذي اقصده بعبارة « أصول النحو » ، اما أصول النحاة فقد سبق أن اشرنا الى انها طريقتهم ومصادر مادتهم ٠ فأما الطريقة فقد احكموا صياغتها فى عدد من القواعد الاصولية التى اتفقت المدرستان فى معظمها واختلفتا فى بعضها فكان لكل منهما قواعده ٠ فمما اتفقت عليه المدرستـــان القواعد الاصولية الاتيـــة :

* لا يجوز الجمع بين العوض والمعوض ، ومن هنا شذ قول الراجز : « يا للهما » لانه جمع بين المعوض (يـــا) وبين العوض (الميم) ٠
* الحرف لا يعمل الا اذا كان مختصا ومن ثم ارتفع زيد فى لولا زيد لهلك عمرو بالابتداء ولم يرتفع بلولا لجواز دخولها على الفعل كما تدخل علـــى الاســـم ٠

* الفروع تنحط دائما عن درجة الاصول ، ومن هنا لم يجز « هند زيد ضاربته » فوجب ابراز الضمير (هى) بعد اسم الفاعل لان اسم الفاعل فرع على الفعل .
* الاضعف لا يعمل عمل الاقوى ، فلما كانت ما الحجازية مشبهة بليس فانها لا تقوي على الخبر قوتها عليه فلا تنصبه كما نصبته ليس وانما كان نصبه عند الكوفيين بنزع الخافض .
* اجتماع عاملين على معمول محال ، ومن ثم امتنع « انك وزيد قائمان » لاجتماع ان وزيد على رفع الخبر .

ومن أصول الكوفيين خاصة :

* كثرة الاستعمال تجيز ترك القياس والخروج عن الاصل ، ومن هنا تصير سوف الى السين كما صارت سو ، وسف .
* الخلاف يعمل النصب ، ففى زيد أمامك لا نرى الخبر وصفا للمبتدأ فى المعنى ومن ثم كان الخلاف بين هذا الخبر وبين الاخبار الاخرى عاملا النصب .
* كل ما جاز أن يكون صفة للنكرة جاز أن يكون حالا للمعرفة ، ومن ثم اعربوا « حصرت » فى قوله تعالى : « أو جاءوكم حصرت صدورهم » حالا .

ومن أصول البصريين خاصة :

* المصير الى ما له نظير فى كلامهم أولى من المصير الى ما ليس له نظير ، وذلك كالحكم على اللام بعد ان المخففة بأنها للتأكيد لكثرة نظائرها مع غير ان .
* حذف ما لا معنى له أولى ، وذلك كحين توالت ثلاث نونات فى لتبلوونن فكان حذف نون الرفع التى لا معنى لها أولى من حذف نون التوكيد وهى ذات معنى .

* لا يجوز الجمع بين علامتى تعريف ، ومن ثم لا يجوز اضافة ما فيه أل .
* لا يجوز اضافة الشيء الى نفسه ، ومن ثم كانت كلا وكلتا مفردتين في اللفظ اذ لو كانتا مثناتين لفظا ومعنى ما جاز اضافتهما الى المثنى .
* اذا ركب الحرفان بطل عمل كل منهما منفردا ، ولذلك رفض البصريون دعوى الكوفيين أن منذ = من + اذ وانها تعمل الجــر .
* كل شيء خرج عن بابه زال تمكنه ، ومن ثم بنيت أي عندما حــذف العائد من صلتها .
* لا يجوز رد الشيء الى غير أصل ، ولذلك رفضوا قول القائــل ان العامل فى المفعول هو الفعل والفاعل أو الفاعل وحده ، كما رفضوا القول بأن المبتدأ يرفع الخبــر .
* يجري الشيء مجرى الشيء اذا شابهه من وجهين ، ولهذا كان تشبيه ما بليس من وجهين هما نفى الحال والدخول على المبتدأ والخبــر أساسا لاعمالها عملهــا .
* المعمول لا يقع الا حيث يقع العامل ، وهكذا استدلوا على جواز تقديم الخبر بجواز تقديم معموله فى نحو كان طعامك زيد آكــلا .

وعلى مثل هذه القواعد الاصولية ينبنى منهج النحاة وطريقة تناولهم للمادة وهذه القواعد كثيرة تجد جملة صالحة منها فى كتاب الانصاف فى مســائل الخلاف لابن الانباري . وهذا العدد الذي أوردته منها لخصته من أطروحة تلميذي أحمد محمد الادريسى التى عنوانها : « أصول النحو العربى من خلال كتاب الاقتراح للسيوطى فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة » وقد نوقشت فى الموسم الجامعى 1976 — 1977 بعد أن تم اعدادها تحــت اشرافى فى كلية الاداب بالرباط .

أما النوع الثانى من أصول النحاة فهو نوع تفكيرهم فى المصادر التى يبنون عليها دراستهم ويوثقون بشواهدها قواعدهم . ولقد اعترف النحاة من هذه الاصول أو المصادر بالسماع والقياس والاجماع والاستدلال ، ولنا فى كل واحد من هذه الاصول راي نحب ان نبديه . واول ما نبدأ به منهــا « السماع » وفيه جملة مسائل يمكن ان نتناولها :

(الراوية وصحة الراوية ــ كمية المسموع ــ كيفية السماع ــ مصدر المسموع ــ مادة المسموع) اخذ النحاة عن المحدثين بعض تحوطهــم فى قبول النصوص فارتضوا النصوص الموثقة وعابوا على حماد وخلف انهما كانا يصنعان النصوص وتندروا بيونس البصري حين سخر منه رؤيــة قائلا : حتام تسألنى وانا أزخرف لك ؟ وكان الاولى أن تكون عناية النحاة معلقة بعروبة النص أيا كان قائله من العرب الفصحاء ، فلو جاء فصيــح بنص يرويه أو نص يقوله للزم أن نأخذ عنه ما نسمع . والامر هنا مختلف تماما عن أمر الحديث الذي تنبنى عليه أحكام شرعية وتعبدية وسنـــرى أن الحديث نفسه يسبب حيرة للنحاة فيما بعد لجواز روايته بالمعنــــى واحتمال الا يكون بلفظ النبى صلى الله عليه وسلم ، فالامر اذا ليس أمر الصحة وانما هو أمر عروبة النص فاذا تقبله المستمعون واعترفوا به وفهموا المراد منه فذلك هو الاهم .

أما المسألة الثانية فهى كمية المسموع مما تبنى عليه القاعدة ، ولم يكن يكن البصريون يعتدون الا بكثرة المسموع وكانوا يعيبون على الكوفيــين الاعتداد بالشاهد الواحد . والبصريون هنا على صواب لان المعلــوم أن اصحاب اللغة يترخصون فيها أحيانا فاذا وجدنا شاهدا فريدا فلربما كان قد ترخص به قائله والقاعدة لا ينبغى أن تبنى على رخصة أو ضرورة .

يأتى بعد ذلك أمر كيفية السماع وقد أحسن النحاة اختيار طرقه اذ سمعوا النصوص المتصلة والمحادثات بين الاشخاص وأعدوا الاسئلــة ووجهوها الى الفصحاء : كيف تقول كذا ، وأعدوا قوائم من المفــردات وعرضوها على أهل الفصاحة يستفتونهم فى طرق نطقها . كما انهم لــم يفرقوا بين فصيح وفصيح فكانوا يعتدون بما يسمعونه من الرجل والمرأة والطفل والمجنون وأبناء القبائل الفصيحة الاخرى (وان كان لى تحفظ فى هذه النقطة الاخيرة سياتى عما قليل فى الفقرة التالية) .

أما مصدر السماع فقد ارتضى النحاة ما سموه قبائل الفصاحة أو قبائل وسط الجزيرة وهى قيس وتميم واسد وبعض كنانة وبعض طىء ثم هذيل وعزفوا عما عدا هذه القبائل واتهموا القبائل الاخرى بفساد اللغة بسبب مخالطة الشعوب الاخرى . ونسى النحاة ان القبائل الفصيحة لا تمثل لهجة واحدة وان استخراج نحو واحد من لهجات متعددة لا يكاد يمثل واحدة من

هذه اللهجات . كما ان اللغة المدروسة لم تكن مقصورة على اللهجة المعاصرة المسموعة والمنطوقة وانما ضربت فى القدم الى ايام أمرىء القيس وهكذا تجاهل نحو النحاة عامل التطور فى اللغة وهو أمر لم يتجاهله مؤرخو الادب ونقاده حين فرقوا بين عصر جاهلى وآخر اسلامى الخ . ففى سماع النحاة ضعف على محور التاريخ وضعف على محور الاجتماع .

واما مادة المسموع فقد شغف النحاة بالشعر العربى أيما شغف وكانوا أقل شغفا بالنثر ولم يكادوا يأبهون للقرآن والحديث . أمـا الاول فلتعدد القراءات واختلافها تواترا وموافقة لنحو النحاة ولرسم المصحف العثمانى ، وأما الثانى فلجواز روايته بالمعنى . ولسنا ننقد النحاة بشروط المنهج الحديث فذلك لم يكن يرد بخاطرهم ولا ينبغى أن يسلط عليهـم . ولكننا ننقدهم بشروط منهجهم فلقد كانوا يعلمون أن الكثير من الشعـر العربى لم يتمش مع قواعدهم فكيف قبلوا الشعر وهذه خصائصه ولـم يقبلوا القرآن وقراءاته المختلفة . أكان ذلك لجواز الغلط بزعمهم على العرب وعدم تصور ذلك للقرآن ؟ ان ما ادعوه غلطا من العرب هو ترخص ومثله الترخص الذي نجده فى القرآن تحت عنوان الروايات الشاذة والمحتاجة الى التخريج ، وأما الحديث فان الذين شافهوا رسول الله من رواته كانـوا عربا فصحاء واسلموا لمن بعدهم من الرواة عربا كانوا أم عجما نصوصا عربية سليمة سواء كانت روايتها باللفظ أم بالمعنى . وعنى الرواة من بعدهم بحفظها والحرص عليها وتلقاها عنهم الفصحاء فلم يعترضوا على صحـة لغتها فلا حجة للنحاة فى رفض الاستشهاد بالحديث .

وعلى الرغم من اختيار النحاة لعدد من القبائل الفصيحة لم تكن قريش بينها على الرغم مما شاع على السنة الناس أن الفصحى هى لغة قريش . وليس شىء أبعد من الصدق من هذه الدعوى فالقرآن نزل بلسان عربى مبين لا بلسان قرشى مبين ، وفى لهجة قريش ظواهر معينة لا تطرد فى الفصحى وأشهرها تسهيل الهمزة . ويبدو أن الوضع اللغوي للعرب لا يختلف فى جاهلية ولا اسلام عما نراه فى يوم الناس هذا ، فكان للعرب لهجاتهم القبلية كما لنا لهجاتنا الدارجة وكانت الفصحى تجمع بينهم كما تجمع اليوم بيننا ، وكانت اللهجات للاستعمال اليومى كما كانت الفصحى للاستعمال الجاد فى الادب أو العبادة أو التخاطب خارج نطاق القبيلة . فاذا تكلم العربى باللغـة

الفصحى حمل اليها من عادات لهجته القبلية ما نحمل نحن اليوم اليها من عاداتنا التى اكتسبناها من استعمال الدارجة . ومن هنا سمعنا عن الكشكشة والكسكسة والطمطمانية الخ وهى عادات لهجية وافدة على الفصحى من لهجات القبائل وهكذا نجد للسماع مشكلاته المنهجية التى كان على النحاة أن يحلوها وأن يؤصلوا لها الاصول ذلك أن السماع له قيمتان فى منهج النحاة اولاهما أن المسموع هو المادة التى يجري عليها الاستقراء والثانية أن الشواهد انما تختار من المسموع . فاذا تم الاستقراء وصل النحوي او النحويون الى بناء نموذج **model** للغة يمثل فكر النحوي بالنسبة لنظام اللغة أي يمثل هذا النظام كما يتصوره هذا النحوي أو كما تتصوره المدرسة التى ينتمي اليها هذا النحوي . ومعنى هذا أن اختلاف المدارس النحوية معناه اختلاف فى تصور هذه المدارس للنموذج اللغوي . وعندما اكتمل للنحاة هذا النموذج الذي تصوروه كان عليهم أن يختبروا الطاقة التوليدية لهذا النموذج وذلك بالخروج من حدود السماع الى حدود القياس على المسموع ، ومن هنا نشأت التمرينات العملية المفترضة بانشان عبارات لم تسمع عن العرب . وكما كان الفقهاء يسعون وراء الفروض المستحيلة ويحددون لها الاحكام فى اطار القواعد الفقهية كان النحاة يسعون وراء العبارات التى لم ترد عن العرب فيقولون : لو فرضنا أن رجلا سمى « عن » أو « فى » أو « الى » ، فكيف نثنيه ونجمعه ونصغره وننسب اليه . وما دامت القاعدة تحكم بابراز الضمير اذا جرى على غير من هو له فلو قلنا زيد عمر وضاربه هو لكان ابراز الضمير واجبا ما دام الضارب زيداوالمضروب عمرا . ويترتب على ذلك أن نقيس ما لم يسمع عن العرب فنقول : الزيدان العمران ضاربا هما هما والزيدون والعمرون ضاربوهم هم .

ولما استقر النموذج فى أيدي أوائل النحاة كابن أبى اسحق وعيسى ابن عمر ارادوا له أن يكون الفيصل وجعلوا النحو انتحاء لكلام العرب كما يلخصه النموذج الذي انشأوه فاذا تجافى العربى عن هذا النموذج بكلامه فقد أخطأ . ومن هنا جاءت فكرة الطعن على العرب ، أو بعبارة أخرى تغليط الفصحاء ، وجاءت الروايات عما كان بين ابن أبى اسحاق والفرزدق من ملاحاة . وكان المتكلمون فى ذلك الوقت قد عرفوا المنطق اليونانى واشاعوا مصطلح « القياس » فى الجو الثقافى الاسلامى فتحول « الانتحاء»

على السنة النحاة الى « القياس » على كلام العرب ولم يكن النحاة يدرون ان استعمال « القياس » بدلا من « الانتحاء » سيجر عليهم فى المستقبل تهمة الاخذ عن المنطق اليونانى .

وهنا نصل الى المصدر الثانى من مصادر النحو وهو القياس لنعلم ان هذا المصطلح يطلق ويراد به معان متعددة على النحو التالى :

أ — القياس الاستعمالى أو الصوغ القياسى
وهو الذي يسمى فى عرف النحاة الانتحاء (وكانت كلمة الانتحاء فيما يبدو سببا فى تسمية النحو باسمه هذا) ويمكن تعريف هذا النوع من القياس بأنه « انتحاء » الكلام الذي نسمعه من حولنا فى الطفولة فنكتسب اللغة ونولد الجديد من المفردات والعبارات ، كما نسمعه فى حجرة الدراسة فنصوغ كلامنا على النماذج التى يقدمها المعلم وكما نفعل فى المجامع اللغوية اذ ننتحى كلام العرب فى توليد المصطلحات والفاظ الحضارة . وهذا هو المعنى الاول لمصطلح القياس .

ب — القياس النحوي وهو حمل غير المنقول على المنقول اذا كان فى معناه وهذا المنقول اما أن يكون مستصحبا للاصل الثابت باقيا عليه كما فى « ضرب » وأما أن يكون معدولا به عنه باطراد كما فى « قال » ، وهذا الحمل اما أن تكون العلة فيه مرعية أو غير مرعية فاذا كانت مرعية فاما أن تكون مناسبة او غير مناسبة فان كانت مناسبة فالقياس قياس علة وان كانت غير مناسبة فالقياس قياس طرد ، وان لم تكن العلة مرعية أصلا فالقياس قياس شبه ، تلك هى اقيسة النحاة وهى كما يتضح تنظير للقياس الاستعمالى السابق.

ج — الثالث من أنواع القياس هو القياس المنطقى وهو يقع فى ضربين :

الضرب الاول المنطق الطبيعى الذي نفكر بواسطته فى حياتنا اليومية فنعرف به أن الكل اكبر من الجزء وان السبب يؤدي الى المسبب ومعنى أنه طبيعى أنه ليس صوريا ولا يخضع للاشكال وانما هو طائفة من العلاقات العقلية والدلالية كالعلاقات بين التصديقات مثل الترادف والاستلزام والتعارض والاقتضاء والترافع وتحصيل الحاصل والتناقض والشذوذ وكالعلاقات بين التصورات مثل التضاد والعموم والخصوص والاشراك

اللفظى وكالمقابلات العقلية مثل المقابلات التصنيفية والقطبية والعلاقية والسلمية وكالمقولات العشر التى يفكر العامة والخاصة فى حدودها وكالكليات الخمس التى هى الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض . وهذا الضرب من القياس المنطقى يشترك فيه اليونان والعرب وبقية شعوب الارض ولا يمكن لانسان من العامة أو الخاصة أن يقوم بالتفكير الا فى حدوده . فاذا بدا أن النحو العربى يستعمله فليس الفضل لليونان وانما الفضل للطبيعة .

والضرب الثانى من القياس المنطقى هو قياس المنطق الارسطى ذو الاشكال الاربعة وهو ايضا المنطق الحديث بأنواع حسابه الاربعة وليس فى النحو العربى من هذا او ذاك ما يمكن أن يبرر دعوى الزاعمين ان العرب اخذوا نحوهم عن اليونان ، وانهم نقلوا اقيسة اليونان الى نحوهم ، لان قياس النحاة كله يحمل طبيعة « الانتحاء » وليس طبيعة الاشكال القياسية الارسطية ، ولو كان ما استعمله النحاة منطقا صوريا كهذا الذي ورثه الناس عن ارسطو لمنعتهم صورية هذا المنطق من الاختلاف ، ولكننا نرى الخلافات بين النحاة لا حدود لها ؛ مما يدل على أن منطقهم هو المنطق الطبيعى الذي يستعمله الناس فى تفكيرهم العادي .

والمصدر الثالث من مصادر النحو فى عرف النحاة هو الاجماع . والمقصود به اجماع البصريين والكوفيين على حكم من احكام النحو فاذا اجمعوا أصبح اجماعهم بزعمهم ملزما لغيرهم مسكتا له عن المعارضة والخلاف . ولى على هذا الاصل ملاحظتان هامتان لابد من ابرازهما :

أ — أن الاجماع لو كان حجة واجمع اهل البلدين على أمر لاقفلوا دونه باب الاجتهاد مع كل مايحمله ذلك من أخطار ومصادرة للافكار وتعطيل لركب التقدم فى العلم .

ب — ان النحاة لم يكادوا يجمعون على شىء ابتداء من اقسام الكلم الى علامات الاعراب والبناء الى العوامل اللفظية والمعنوية الى التقديم والتأخير الى المسائل الفرعية فى داخل الابواب . فلو التمسنا ما أجمع عليه النحاة لم نظفر الا بقلة قليلة من المسائل لا تغنى فتيلا بين مصادر النحو الاخرى .

ومعنى ذلك أن الاجماع لا يصلح مصدرا من مصادر النحو ، ولو صلح ما كان لى من المبررات ما يسمح لى باصدار كتابى : « اللغة العربيـــة معناها ومبناها » وكله خروج على ما أجمع عليه النحاة من أطر فكرية .

والمصدر الرابع الاستدلال والمراد به ايراد الدليل على صحة مـــا يذهب اليه النحوي من أحكام إما أن يكون ذلك بواسطة الاستصحاب وهوبقاء الاصل الثابت على حاله واما أن يكون بأدلة أخرى غيره . وقد اعتمد النحاة على الاستدلال عند عدم السماع والقياس والاجماع فهو يأتى آخـــرا فى الرتبة . ومن الادلة التى استعملها النحاة العكس وبيان العلة والاصل وعدم النظير والاستحسان والاستقراء والدليل الباقى . واذا كان بيان العلة من قبيل الاستدلال فانه لينبغى لنا أن نحدد موقف النحاة من العلة لنرى مـــا اذا كانوا قد تأثروا أو لم يتأثروا بمنهج آخر فى هذا الحقل ، فى التـــراث الارسطى أن العلل أربع هى المادية والفاعلية والصورية والغائية ولا غناء فى الاوليين فى مجال العلم لوقوعهما فى الادراك المباشر وتبقى بعدهمـــا الصورية خالصة للوصف والغائية خالصة لبيان السبب . ولا خلاف بـــين العلماء فى الاحتفاء بالصورية واما الغائية فمجالاتها :

أ ــ التعليم وليس العلـــم

ب ــ الدين والميتافيزيقا

ج ــ النظريات العلمية الشاملة كالحتمية والنسبية الخ .

وفى حقل الاستدلال بالعلة نجد النحاة عالة على الفقهاء لا على اليونان فكل ما سبق ذكره من علل النحاة يرد فى أصول الفقه . ولهذا السبب أيضا لم يفرق النحاة بين مطالب النظر ومطالب العمل فى استعمال العلـــة فخلطوا بين التعليم الذي يسمح بالعلة الغائية وبين العلم الذي تأباهـــا طبيعته ومن هنا نجد أن ابن السراج يفرق فى اطار العلة الغائية بين التعليمية والتركيبية والجدلية ونرى ابن مضاء يأتى بعده فيسميها على ترتيبها هـــذا العلل الاوائل والثوانى والثوالث . ويرحب كل منهما بالعلة الاولى فى النحو على رغم كونها غائية ويرفض الثانية والثالثة لانهما لا تفيد ان كيف كانت تنطق العرب وانما تبين عن بعض حكمتهم مما لا حاجة بـــالمتعلم اليـــه . ومعنى هذا أن الاستدلال بالعلة يفتح الباب للعلة الغائية دون تفريق بين

المعلم الذي لا غنى له عنها وبين الباحث العلمى فى النحو وهو لاحاجة به اليها لانه واصف اولا واخيرا . ولقد كانت هذه العلل تمثل الجانب العقلانى فى النحو العربى وتقدم لهذا النحو ما يعرف فى بعض المناهج الحديثة باسم الكفاية التفسيرية . وقد بلغ هذا الجانب العقلانى فى النحو اشده بعد انتشار الاعتزال فى أوساط النحاة وحسبنا أن نذكر من معتزلة النحاة المبرد والفراء والفارسى وابن جنى الى غيرهم من كبار الاعلام .

تلك هى اصول النحو (او الاصول الثابتة) واصول النحاة (او القواعد المنهجية ومصادر المادة) أحببت أن أفرق بينها حتى يتضح بعضها من بعض والله ولى التوفيق .

الرباط **د. تمام حسان**

التطوّر الحضاري
في مصبّ أبي رقراق.

عبد العزيز بنعبد الله

كانت منطقة أبى رقراق مندرجة ضمن الحدود الرومانية (Limes) التى تمتد جنوبى المدينة فى مسافة اثنين وعشرين كيلو متر ولعل (Sala Romana) قد تجاوزت حظيرة شالة من الجهات الأربع حيث عثر على قبور رومانية قرب المحيط على نحو مائتى متر من خط السكة الحديدية القديم الذى كان يصل الميناء بالبرج المقام قرب الشاطىء وقد تم الكشف عن نقود رومانية فى رمال المسبح القديم بالرباط وهو ملاصق لسفليات مقبرة لعلو وقصبة الاوداية ، وهذا يفسر لنا لماذا اعتبر الجغرافى (بطليموس) قاعدة شالة من بين المراكز الرومانية

بساحل الاطلنطيك ، ويذهب بعض المؤرخين الى توهم وجود مدينة رومانية عتيقة بهذه الانقاض كانت تسمى
(Oppidum Novum)
أى المدينة الحديثة (حديثة بالنسبة لشالة) وان كان البعض يرى أنها هى القصر الكبير (1) .

ويظهر من نتائج بعض الحفريات أن شالة كانت مركزا قرطجيا نظرا للعثور على نقود تحمل كتابات بونيقية حديثة تدل على أن هذه العملة قد سكت بهذه المدينة أواخر القرن الاول قبل الميلاد وليس ذلك ببدع ما دامت مدينة (ليكسوس (Liscus) البونيقية قد بنيت قبل ذلك على بعد أميال من العرائش الحالية (عام 1101 قبل الميلاد) .

وقد تأكد أن أرباض الرباط غنية بالآثار العادية حيث سبق التنقيب فى مغارة (دار السلطان) على مسافة ستة كيلو مترات بشاطىء البحر فى طريق تمارة وأسفر الحفر عن أدوات وآلات تشهد بعمران هذه المنطقة فى حقب غابرة من عهود ما قبل التاريخ وقد عثر فى (منجم القبيبات) منذ 1933 على بقايا جمجمة انسان تؤكد هذا العمران ، وكانت الغابات

(1) وصف وتاريخ المغرب ، كودار ج 1 ص 70 (راجع بحثنا حول القصر الكبير فى مجلة « المناهل » .

بين ضفتي الوادى آنذاك أكثر كثافة منها اليوم وهو ما لوحظ بالنسبة لباقى الغابات أو البحائر والبرك (كالجبل الاخضر) بل بالنسبة لمجموع المغرب العربى حيث لاحظ ابن خلدون تكاثف الاشجار فى ظلال وارفة من ليبيا الى طنجة ، وقد بدأ التاريخ الاسلامى لمنطقة أبى رقراق مع الفاتح الاكبر المولى ادريس ، اذ ما كاد الامر يستتب له فى (وليلى) قرب (قصر فرعون) حتى استولى على تامسنا وعاصمتها شالة (2) .

وقد لاحظ ابن حوقل فى القرن الثالث وجود رباط على (وادى سلا) كان يتجمع فيه نحو مائة ألف من المسلمين يرابطون للجهاد ضد البرغواطيين وكان بالجانب الشمالى للوادى مدينة سلا عاصمة بنى يفرن الذين كانوا يمارسون نفس الحركة الجهادية على غرار بنى زيرى والاندلسيين ، ولعل فى كلام ابن حوقل ما يوهم وجود رباطين اثنين متميزين احدهما على الوادى قريبا من البحر والآخر بجانب أنقاض شالة وقد يكون أحدهما رباط عبادة والآخر رباط جهاد حسب ابن خلدون (3) . وكان لبرغواطة أثر فعال فى بلورة تاريخ

---

(2) (روض القرطاس) - طبعة وترجمة بوميي (Beaumier) باريس 1860 ص 16

(3) المقدمة - ترجمة دوسلان - القسم الاول - باريس 1863 ص 13.

مركز مدينة الرباط طوال عدة قرون حيث كانت (شالة) هى عاصمة منطقة (تامسنا) التى كانت تمتد قديما من نهر أبى رقراق الى نهر أم الربيع وان كانت حدودها قد تقلصت بعد ذلك لتقتصر على منطقة الشاوية وقد سمى ابن حوقل نهر أبى رقراق بوادى سلا (المسالك ص 56) وسماه البكرى وادى وانسيفن والادريسى (النزهة المختصرة ص 7) وكذلك الفزارى وادى أسمير والمراكشى وادى الرمان (المعجب ص 358) وابن عذارى بحر سلا (البيان ج 1 ص 26) ومنذ القرن العاشر الهجرى تمخضت التسمية الحالية عند الحسن بن محمد الوزان وهو ليون الافريقى ، وقد ظل عبد المومن بن على مرابطا على ضفاف أبى رقراق منذ عام 550 هـ/1155 م طوال سنتين مراقبا حركات المجاهدين فى الاندلس وبعد ذلك بأقل من عقد من السنين (558 هـ / 1163 م) حشد الخليفة فى ضاحيتى الوادى جيشا بلغ أربعمائة وثمانين ألف رجل امتد معسكره من (عين غبولة) الى (عين خميس) والمعمورة على أن عبد المومن قد توفى فى شهر جمادى من نفس السنة برباطه هذا من حيث نقل جثمانه الى تينمل (4) الا أن الافكار كانت متجهة الى احالة هذا المخيم الجهادى الى حاضرة لاسيما

(4) القرطاس ص 286 / ابن خلدون م. 2 ص 195 / ابن الاثير ص 595

وأن وجود مصب نهر أبى رقراق كان من العوامل الباعثة على تأسيس مدينة جديدة وهذا هو ما حدا المؤرخ الاندلسى محمداً بن ابراهيم بن يحيى الانصارى القرطبى المعروف بالوطواط (718 هـ 1318 م) (5) الى نسبة بناء الرباط الى عبد المومن .

غير أن المؤرخين (6) يكادون يجمعون على أن مدينة الرباط هى من بناء أبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى حيث فكر فى الشروع خلال مروره بأبى رقراق عام 592 هـ /1195م للجواز الى الاندلس من أجل خوض غمار معركة (الارك) الظافرة التى انطلقت بعدها عملية للتشييد والتعمير تمت فى أقل من أربع سنوات ويحلو للمؤرخين المشارقة أو المغاربة المستشرقين كالمراكشى وابن بطوطة أن يوازنوا فى هذه المناسبات بين الحاضرة الجديدة وبين بعض حواضر الشرق فيقولون انها شبيهة بالاسكندرية كما قال ابن خلكان والزبيدى بالنسبة للرباط وغيره فى خصوص فاس المشبهة بدمشق ومراكش ببغداد ويزيدنا صاحب (المعجب) (7) تدقيقا عندما

---

(5) فى كتابه « مناهج الفكر ومباهج العبر » .
(6) تاج العروس ج 5 ص 142 / ابن خلكان ج 4 ص 341 .
(7) ص 230

لاحظ أن الخليفة هو الذى رسم بنفسه تصميم المدينة وضبط حدودها التى تبلورت بعد عامين فى أسوار ذات أبواب (8) وقد ورد ضمن الرسائل الموحدية السبع والثلاثين التى نشرها ليفى بروفنصال عام 1941 والتى تتراوح وقائعها بين سنتى 543 هـ و 603 هـ ـ ثلاث أرخت من رباط الفتح فى عامى 551 هـ و 557 هـ فهل قصبة الاودايا حملت اسم (رباط الفتح) قبل تأسيس مدينة المنصور ؟

ويرى (ابن صاحب الصلاة) أن ربض القصبة أو المهدية كان يسمى (رباط الفتح) فى عهد عبد المومن بن على (9). ويؤكد صاحب (الاستبصار) (ص 53) الذى عاصر المنصور أن يوسف أبا يعقوب هو الذى كان قد أعطى الامر ببناء (الرباط) ولهذه الشهادة وزنها لان كتاب (الاستبصار) ألف قبل البناء الفعلى بنحو ست سنوات عام 587 هـ / 1191 م ولا شك أن وجود القصبة فى مرتفع مشرف على الوادى والبحر كان من الحوافز الفعالة على استغلال البسيط الشاسع وقد وجد الخليفة الميدان فسيحا فاقتطع لهذا الغرض 418 هكتار

---

(8) روض القرطاس ص 386 .
(9) المن بالامامة ص 190 .

تبلورت في معالمها عظمة هيكل المدينة في ضخامة أسوارها وأبراجها ونسق عمرانها وسعة جنانها وعرصاتها التي امتدت الى مشارف شالة المرينية وقد رسم مجالي هذه الروعة صاحب الاستبصار وعبد الواحد المراكشي والحسن الوزان وابن خلكان ومارمول والقنصل الفرنسي Chénier وهكذا جهزت المدينة منذ الانطلاقة الاولى بالأزقة الرحبة والمباني الوطيدة والاحياء الحسنة التوزيع والمساجد والقصور الفخمة مع سوق كبرى مغطاة وحمامات وفنادق ودكاكين و « سبالات » للماء بل مد – حسب المراكشي – جسر بين العدوتين فوق نهر أبي رقراق وما لبثت المدينة أن عمرت بأصناف من رجال الحرف وشتى الحيثيات كما أراد لها المنصور الذي عزز قنوات معلقة نقلت مياه (عين غبولة) منذ عهد الخليفة عبد المومن .

ولعل اقامة جسر يصل (رباط الفتح) بسلا كان من أبرز التجديدات التي عززت وحدة الحاضرتين وسهلت المبادلات بين الشمال والجنوب وقد أشار المراكشي (ص 156) الى ما أمتاز به العهد المنصوري من « كثرة خصب وانتشار أمن ودرور أرزاق واتساع معايش » مؤكدا أن أهل المغرب لم يروا قط أياما مثلها .

وكانت القنطرة عبارة عن معديات أى مراكب عددها ثلاثة وعشرون مترابطة بعوارض قد بلطت بأرضيات من خشب لا تنال منها حوافر الدواب التى بلغ عدد جمالها وبغالها أحيانا ألفا فى كل يوم واذا صدقنا ما قاله الحسن الوزان (10) فان المنصور اتخذ من المدينة الجديدة مصطافا يقيم فيه ستة أشهر فى السنة من أبريل الى شتنبر .

ولكن بالرغم من امتداد الاسوار فان التخطيط الاول للمدينة لم يتجاوز تصميمها الحالى الذى يحده شرقا السور الاندلسى الجديد .

وقد أصبح مصب أبى رقراق - خاصة بعد اقامة مدينة (رباط الفتح) بجانب سلا - عقدة المواصلات بين الشمال والجنوب والمركز الحساس فى طريق قوافل المجاهدين لذلك حاول محمد بن يوسف بن هود الاستيلاء عليه عام 635 هـ / 1237 م بعد أن تمرد ضد الموحدين وسطا على معظم أقاليم الأندلس .

---

(10) ج 2 ص 21 .

وباستفحال خطر الزحف الزناتي المريني على المغرب من الصحراء الشرقية تزايد الشعور باستراتيجية موقع العدوتين الذى كانت قيادته تسند فى الفترات العصيبة الى الامراء أنفسهم مثل عمر المرتضى أخ الخليفة السعيد عام 643 هـ / 1245 م الا أن الأزمات السياسية كانت تطغى أحيانا فتقلص من أهمية بعض المراكز ولذلك تراءى للاستاذ (كابيى) أن رباط الفتح ظل شبه مهجور منذ منتصف القرن الثالث عشر (أى منتصف السابع الهجرى) الى أوائل القرن السابع عشر (أى حوالى منتصف الحادى عشر الهجرى) حيث أسست آخر المطاف مدينة جديدة سميت على ما يلوح (سلا الحديثة) ، ولعل الادريسى أول من تكلم عن « سلا الحديثة » الا أننا لا نعرف بالضبط هل كان يقصد مدينة (سلا) التى هى حديثة بالنسبة لشالة أو يقصد الرباط ؟ والذين سايروا الرأى الاخير يستدلون بأن (نزهة) الادريسى صنفت فى آخر النصف الثانى من القرن السادس الهجرى وهو تاريخ بناء (رباط الفتح) الا أن مؤرخين آخرين يرون الرأى المعاكس نظرا لوجود التنظير عند مؤرخين آخرين كابن خلدون (ج 2 ص 80) الذى ذكر كلا من شالة وسلا فى عرضه لتقسيم المغرب بين أبناء المولى ادريس الثانى بعد عام

213 هـ / 828 م والغريب أن ابن خلدون لم يشر الى مدينة سلا عندما تطرق الى فتوحات المولى ادريس الاول بعد عام 172 هـ / 788 م ومع ذلك فلا يمكن أن نستنتج من ذلك أن سلا يمكن أن تكون قد أسست من طرف المولى ادريس الاكبر أو ابنه .

كما أن ابن حوقل نفسه — وهو من مؤرخي القرن الثالث الهجري — لم يشر الى مدينة سلا على أنه عثر على نقود سكها الادارسة تحمل أسماء مدن ادريسية عدا مدينة سلا ومع ذلك فالظاهر — كما يبدو من كلام ابن خلدون — ان مدينة سلا كانت موجودة فى هذا العصر — . وهذه البلبلة التى أثارها كاييى (11) حول الادارسة قد بدأت بالتشكيك فى القبر الحقيقى لضريح المولى ادريس بفاس وما لبثت أن عقبتها محاولات أخرى حيث زعم كاييى (12) أن ما كتب حول الادارسة لحد الآن غلط وانهم شيعيون وهو وهم خطير لأنه يواكب سياسة الحماية التى كانت تستهدف الفصل بين دولة الملوك العلويين ودولة الادارسة السنيين

---

(11) « تاريخ الرباط » ص 42 .
(12) « تاريخ الرباط » ص 37 .

وهما دولتان علويتان تتصلان في وحدة تاريخية تمتد أزيد من ألف سنة وقد كان المولى ادريس الاكبر سني العقيدة مالكي المذهب اختار لخطة القضاء أحد تلامذة الامام مالك وهو الفقيه محمد القيسي ولكن هنا يجب أن نتساءل لماذا سمى ابن حوقل (13) نهر أبي رقراق بوادى سلا ؟ فهل يقصد شالة التي « يحف بها الرباط » حسب تعبيره ؟ ذلك ما يفهم من مقارنة عناصر هذا النص .

ولعل صاحب الاستبصار (وهو شخص مجهول ربما كان من رفقاء المنصور الموحدى في « غزوة الأرك » وأثناء بناء (رباط الفتح) قد خلط بين شقي أبي رقراق عندما تحدث بما يوهم أن سلا قد بنيت في القرن السادس لأن وجودها كعاصمة يفرنية يرجع الى ما قبل هذا التاريخ .

أما السور الموحدى الذى أسسه يعقوب المنصور بالرباط فقد تم بناؤه ـ على ما يلوح ـ حوالى عام 593 هـ ـ 1197 م وهو يمتد على طول 5263 مترا غربي وجنوبي المدينة التي تحميها من الجهتين الشمالية والشرقية قصبة

---

(13) (المسالك والممالك) ص 56 .

الاوداية ونهر ابى رقراق والمحيط الاطلنطيقى فى مساحة
ينفذ الناس اليها من أربعة أبواب هى غربا باب العلو وباب
الرواح وأخرى داخل الثكنة العسكرية المحاذية للقصر
الملكى ، وجنوبا باب زعير المؤدية الى شالة .

ومازال السور — رغم مرور نحو من ثمانية قرون على
تأسيسه — قوى الدعائم عدا قمته التى تفتتت عناصرها وهو
مبنى من الملاط المقوى (béton armé) الذى يحوى الثلث من
الكلس بينما لا تتعدى نسبة الجير عادة السدس أو الثمن ،
ومعلوم أن الملاط الموحدى هو أقوى الملاطات اذ يشتمل فى
بعض المواضع على آجر مدكوك فى شكل « طابية » وعلى
حصيات صغيرة قد لف بعضها ببعض فأصبحت كالحجارة فى
صلابتها لا ينال منها المعول الا قليلا ، وقد غالبت أسافل
السور جوارف المطر ، اما عرض السور فيبلغ أحيانا مترين
اثنين ونصف متر قد عبدت فوقها طريق مشرفة للحراسة
يدعمها حاجز منيع يقل ارتفاعه عن المتر الواحد فى حين يصل
علو السور الى أزيد من عشرة أمتار ، ويمكن أن نلاحظ اليوم
وجود أربعة وسبعين برجا سبعة منها تمتد من برج الصراط
فى الطرف الغربى الى باب العلو وتسعة الى باب الحد وخمسة

وعشرون الى باب الرواح وسبعة على طول شكنة الحرس الملكي وأربعة وعشرون الى الجهة المارة من باب زعير والمطلة على أبي رقراق قرب ما كان يسمى بالمنزه (وهو مقر السفارة الفرنسية الآن) .

وباب الرواح هي أعظم أبواب السور الموحدى وأكثرها تنميقا ، يبلغ عرضها 28 م وعمقها 26ر93 م وارتفاعها 12 م وتحتوى على أربع قاعات احداها مكشوفة كلها مربعة الشكل (5ر65 م فى مثلها) وعلى ممرين (مساحتهما 4ر20 م فى 2ر20 م) وتعلو القاعة الاولى قبة ذات اضلاع مشعة (الطراز القوطى) (14) عقودها الركنية من الآجر ، اهها ستة عشر اخدودا تتجمع فى قبيبة ذات ثمانية فصوص (أى قويسات أو أقواس صغرى) ونعثر على هذا النموذج من القباب فى عدة غرف بمنارتى (الكتبية) و (حسان) الا أن قبة باب الرواح أضخم وان كانت أقل جمالا ورواء فى حين تمتاز بسمة خاصة هى ان قاعدة كل عقد ركنى تدعمها سويرية متوجة ومحلاة بما يسمى بالاقنثا أو شوكة اليهودى (acanthe)

(14) الزخرف المشع اصله اغريقي يمتاز بتشكيلات زخرفية كثيرة وورداث متفتحة متعددة الفصوص .

وهى نبتة اتخذت أوراقها مثالا للزينة فى الابنية القديمة واختص بها تقريبا الطراز الكورنثى اليونانى وتصطبغ هذه المجموعة الرائعة بالرشاقة والخفـــة ضمن الهيكـــل الضخم المتشكل فى الحنايا والاقواس ، ولاشك ان بعض القاعات كانت مخازن أو مخابىء لاستخدام الحرس العسكرى ، وقـــد جـــدد السلطان سيدى محمد بن عبد الله العلوى كثيرا من المظاهر الاثرية فى هذا الباب (15) بل أضاف عناصر طريفـــة كقـــوس الانفتـــاح المكسورة والمشرعة وهى عبارة عن حنية أو عقـــد قبـــة يعلـــو سهمها أو مفتاحها الى نصف مستوى الانفتاح) ، ويحيـــــط شريط من الخط الكوفى باللوحة المركزية المأطورة للباب فى وضوح وروعة وتجانس بين المجموع والجزئيات (وهو شبيه بمثليه فى باب القصبة وباب كناوة بمراكش) وتقل الرسوم الزهرية فى النقوش حيث لا تعدو بعض الاشكال السعفية كما تقـــــل التـــنمـــيـــقـــات فى الوجـــه البـــاطنـــى للـــبـــاب طبـــقـــا للتقاليد المعمارية المتبعـــة التى تأبـــى الا أن تحلى الجـــدران بكتابات منحوتة على الحجر وصور سيـــوف دقيقـــة وقاذوف (أى آلة لرمى السهام الى مسافات بعيـــدة كالتى توجـــد فى باب العلو) وحسام قصير ذى نصل معقوف .

---

(15) تاريخ الضعيف ص 165 (مخطوط المكتبة العامـــة) .

أما جامع حسان فقد بدأه المنصور عام 592 هـ / 1195م دون أن يتم بناؤه ومنارته أقرب عهدا من منارتى جامع الكتبية وجامع اشبيلية (المعروفة بالخالدة (Géralda) وهى مربعة يبلغ عرضها ربع طولها حسب التقليد المعمارى وهذا العلو وهو أربعة وستون مترا يجعل منها أعظم منارة فى الغرب بل حتى فى الشرق ، ويقع جامع حسان شمالى شرق مدينة الرباط على نحو ثلاثين مترا فوق البحر وهو المسجد الثانى الذى بناه الموحدون بالرباط بعد مسجد القصبة العتيق .

ويعتبر جامع حسان من الآثار التى حققت وحدة الفن الشرقى والفن الاندلسى المغربى فهو رمز لفخامة الدولة الموحدية ومشاعرها فى السمو والعظمة وذوقها فى التناسق الجامع بين الفخفخة والبساطة .

* * *

وقد خضعت العدوتان لأبى يحيى بن عبد الحق المرينى منذ 647 هـ / 1249 م ولكن سلا والرباط ظلتا فى الحقيقة متأرجحتين بين الفريقين بضع سنوات الى أن سطا عليها الامير يعقوب بن عبد الله المرينى حوالى 650 هـ / 1252 م

حيث فــر الوالى الموحدى فأفلت الزمام نهائيا من يــد بنى عبد المومن فى مصب أبى رقراق .

وكان الخليفة الرشيد قد أصدر ظهيرا باسكان المهاجرين من أهل بلنسية وجزيرة شقــر وشاطبــة وغيرهم من بــلاد الشرق فى مدينة رباط الفتح (16) .

غير أن المرينيين ما لبثوا أن واجهوا فى المنطقة محنــة كبرى عام 659 هـ / 1260 م عندمــا بعــث ملــك قشتــالة (الفونس الحكيم) سرية استولت على مدينة سلا فى بحبوحة عيد الفطر فقتلت الرجــال وسبت النســاء والاطفــال وهب السلطان أبو يوسف من تازة لفك الحصار الذى استمر أربعة عشر يوما تحصن خلالها والى العدوتين يعقــوب بن عبد الله فى (رباط الفتح) فجلا الاسبان بعد أن نقلوا معهم أسراهم مــن الســلاويــين .

---

(16) من انشاء كاتبه ابى المطرف بن عميرة المخزومي فيه توصية للولاة بحمايتهم وهو مؤرخ بـ 21 شعبان 637 هـ / 1239 م (« زواهــر الفكر » ـ مخطوط الاسكوريال 520 ـ (الغزيري لوحة 115 و 116) نقلها عبد الله عنان فى « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والانــدلس » (ص 737)

وقد أخذ يعقوب بن عبد الحق المرينى فى سلا البيعة لولده يوسف عام 671 هـ / 1272 م فأنشد عبد العزيز الملزوزى شاعر البلاط قصيدته العصماء التى مطلعها :

يا ظبية الوعساء قد برح الخفا   انى صبرت على فراقك ماكفى

وقد وصف سلا ونهر أبى رقراق فقال :

لله درك يا سلا من بلدة
من لم يعاين مثل حسنك ما اشتفى
قد حزت براثم بحرا طاميا
وبذاك زدت ملاحة وتزخرفا
فاذا رأيت بها القطائع خلتها
طيرا يحوم على الورود مرفرفا

وظل ملوك بنى مرين على عادة سلفهم الموحدين يقضون شهورا فى رحاب (رباط الفتح) لتجهيز جيش الجهاد فى الاندلس كما فعل أبو يوسف أيام خلافته فكان يقتبل بالرباط وفود شيوخ المغرب وقد توفيت زوجته أم العز فدفنت بشالة عام 683 هـ / 1284 م حيث أقام زوجها مسجدا كان هو ثانى

من دفن به بعد أن توفى بالجزيرة الخضراء وكان من آخر انجازاته بناء (دار الصناعة) فى (باب المريسة) بسلا ثم توالى دفن ملوك بنى مرين فى (روضة شالة) حيث أقبر كل من أبى يعقوب وأبى ثابت وكذلك عثمان بن يعقوب (731 هـ) وعامر بن عثمان (752 هـ) .

واستمر الرباط معسكرا للجهاد فى عهد أبى سعيد الذى كان أول من قام ببناء اسطول حربى فى دار الصناعة بمدينة سلا التى حظيت بعناية كل من أبى الحسن المرينى (مؤسس المدرسة قرب الجامع) وولده أبى عنان وقد حظيت شالة بأول سور أحاط بالمبانى المرينية داخل الحاضرة الرومانية .

واذا كان تاريخ العدوتين قد ارتبط بفورة الجهاد فى الاندلس فان هزيمة المرينيين فى (طريفة) سيقلص من أهمية المنطقة التى ظلت تعتبر حتى فى عهد الوطاسيين العقدة التى يقبض ماسكها على مجموع مملكة فاس وذلك بالرغم عن تضاؤل عدد سكانها ، ومعلوم أن الجامع الكبير والمارستان قبالته و (حمام الدورة) من منجزات بنى مرين فى القرن الثامن الهجرى .

* * *

وخلال فترة عقبت معركة وادى المخـــازن ومـــا أسفرت عنه من تجديد فى المعالم الحضارية بالمغرب تــوفى المنصـــور السعدى فأدى خلاف أبنائه الثلاثة الى انقسام المغــرب الى مملكتين (مملكة فاس ومملكة مراكش) وظهور المجاهد العياشى فى الغرب (حيث ناضل ضد الوجود الاسبانى فى العرائـــــش والمعمورة) والدلائيين فى الاطلس الاوسط وقد أصبـــح محمد الحاج الدلائى أمير العدوتين بعد استشهاد العياشى وواكـــب استقراره فى (رباط الفتح) انبـــثـــاق حركـــة القراصنة فى المتوسط والمحيط انطلاقا من مصب أبى رقراق وكانت فـــورة عارمة من كل طبقات الشعب ضد دول مسيحية حاولت غـــزو المغرب تحقيقا لمطامعها وانصبت أطماع الانجليز والاسبـــان خاصة على قصبة الرباط ولكن وصول اللاجئين الاندلسيـــــين وما نتج عنه من تطور القرصنة اقتصاصا من مواقف الاسبان ازاء المهاجرين ـــ قد غير الوضع فى المنطقة فكان أول فوج وصل الى الرباط هم سكان مدينة (هورناشيروس) فى اقليـــــــم (استرامادور (Estramadure) من المسلمين الاقحاح الذين فروا بدينهم وكانوا من أثرياء (الموريسك) الذين اشتروا من ملك

---

(17) كايـــي ـ تاريـــخ الرباط ص 183 .

اسبانيا (فيليب الثالث) حـق حمـل السـلاح وكان طردهم بمقتضى المرسوم الملكى الاسبانى المؤرخ بثالث دجنبر 1609 وواكب وصولهم الى ضفاف وادى الرمان أوائل عام 1610 م / 1019 هـ حيث رحب بهم قائد المولى زيدان آملا أن يسهموا فى اثراء الاقليم بما حملوه من أموال وفى الدفاع عن الاقليم بما يذكيهم من روح عسكرية وثابة لاسيما ازاء الاسبان الذين لم يكتفوا باحتلال الاندلس بل استهدفوا فتـح جيـوب فى شواطىء المغرب على أن الامير السعدى ما لبث أن شكل منهم فيلقا من أربعمائة جندى لتعزيز حركاته فى الجنوب وحمايـة العدوتين ، ودعما للدفاع عن المنطقة قام الاندلسيون بترميم الاسوار وتعزيز الابراج وفتح منافـذ لبطاريات المدافـع فى القصبة التى نقل زيدان اليهـا مختلف أفـواج (الموريسك) المنبثة فى بعض أقاليم المغرب . . محاولا تقـوية مركزهـا الاقتصادى بالتنازل لها عن رسوم (ديوانة الميناء) .

غير أن ضعف الدولـة والـروح الانفصالية التى تذكى الفئات الاندلسية قد أدى كل منهما الى تشكيـل ديـوان أو مجلس ادارة من ستة عشر عضوا لمساعـدة وال أو قائـد منتخب للعدوة الجنوبية واستـغـل هذا الديـوان الوضـع

المضطرب فى المغرب لتعزيز استقلاله عن الدولة التى تفككت أوصالها تحت ضربات المغير الاجنبى حقبة من الزمن سوف تتبدد غيومها وتنقشع ظلماتها بظهور الدولة العلوية التى أعادت الوحدة الى البلاد وحررت جيوبا استهدفها العدو الانطلاق منها لاحتلال المغرب ، وهذا الاقليم الديوانى الجديد قد أطلق عليه الاجانب اسم « جمهورية » وهو مصطلح غربى دخيل لم تتعرف اليه جماعات الاطلس والجنوب ولا جماعة الاندلسيين هذه التى لم يزد عملها على تكوين مجالس بعضها منتخب لتسيير دولاب الحياة لصالح الفئات المتساكنة وان كانت هذه الفئات أو الجماعات قد تحررت أحيانا من نفوذ الدولة بسبب ما لحق هذه من ضعف واضطراب. وقد جرب الاندلسيون هذه الحياة الانفصالية وذاقوا مرارة ما جرته عليهم من ويلات عقودا من السنين ظلت العدوتان خلالها فى تصارع حال دون أى تطور اقتصادى وحضارى قار وقد استغل أهل الدلاء وخضر غيلان هذا الوضع الشاذ لاذكاء نار الشقاق والتطاحن التى استمر أتونها فى مرحلة أولى خلال خمس عشرة سنة (من عام 1037 هـ / 1627 م الى 1051 هـ / 1641 م) واذا كان المغرب قد عرف جهويا مثل هذه الاشتباكات حتى بين الاخوة من فخذات القبيلة الواحدة — فان

عنف واستمرار القتال بين الفئات الاندلسية بالعدوتين كان له طابع آخر وسمته بميسمها الناخر الحاز تلك الخلافات المزمنة التى عرفتها الاندلس منـــذ العصر الاموى وضاعفها تصـــادم مصالح جديدة والواقع أن أندلسيى (رباط الفتح) حرموا من كل ما كان يتمتع به (الهورناشيروس) المحصنون فى القصبة بتأييد كل من المجاهد العياشى وسكان سلا الذين ظلوا يمدون القصبة المحاصرة بحرا ومع ذلك استطاع (اندلسيو الرباط) عام 1040 هـ / 1630 م كفالة بعض مطالبهم فأصبح لهـــم الحق فى انتخاب قائد منهم يسكن بالقصبة نفسهـا وتعيـين نصف أعضاء الديوان والتمتع بنصف ريع جمرك المرسى وهنا انتخب الفريقان شخصيتين بارزتين فى منصب القيادة كـــان لهما دور فعال فى تاريخ العدوتين وهما محمد بن عبد القـــادر سيرون عن القصبة وعبد الله بن على القصرى عن الاندلسيين غير أن الفريق الثالث فى سلا خشى مغبـــة هذه الوحـــدة التى زادهم تخويفا منها رجل كانوا يخلصون لـــه وهـــو المجـــاهد العياشى ولعل هذا الخوف كان فى محله لأن كل فئة كانت تضمر الشر للاخرى وكان العياشى يشك فى اسلام سكان الرباط من الاندلسيين بل يتهمهـــم بالتواطـــؤ مـــع الاسبـــان فى المهديـــة والعرائش لاسيما بعدما رفضوا تزويده بالمدافع والمال ويظهر

ـ حسب الافرانى ـ ان المجاهد العياشى حصل من بعض العلماء على فتوى تسمح بمحاربة من كفر بالله ورسوله والواقع أنها فتوى لا يتأخر أى مسلم عن التصديق عليها اذا صحت لوازمها ولكن الى أى حد كانت تنطبق على سكان الرباط ؟ وعلى كل فان العياشى حاصر الرباط فى السنة التالية (18) بدعوى حمل الفريقين على الانضمام الى حظيرة الجماعة أى الخضوع للسلطان السعدى فانطلقت من سلا أربع بطاريات تقنبل القصبة وصوب مدفع خامس فوهة ناره الى المصب وهجم ابن للعياشى فى خمسة آلاف فارس كانت تخيم فى شالة ولكن القصبة كانت تتلقى المدد من البحر وانبرت الطائفتان المتقاتلتان تبرران موقفهما أمام السلطان الشرعى وهو الوليد السعدى الذى اهتبل هذه السانحة فبسط نفوذه على كل من الاندلسيين والهورناشيروس فاضطر العياشى لرفع الحصار والانسحاب الى ناحية الغرب .

وهكذا يتجلى من هذه الصورة المكبرة أن النزاع لم يكن قائما بين سلا والرباط فقط بل بين سكان الرباط أنفسهم وان الاسباب كانت تافهة وهى تنازع المصالح أحيانا وتنازع

(18) حسب رحلة لمؤلف مجهول اشار اليها (كاييي) ص 217 .

السلطة غالبا على أن أندلسيى (رباط الفتح) لم يكن يهمهم السلاويون بقدر ما يهمهم بلد يوهم من (الموريسك) المحصنين فى القصبة ولذلك ظلت المناوشات بين الفئتين الرباطيتين موصولة كللت عام 1046 هـ / 1636 م بانتصار موقت أسفر عن تشتيت (الهورناشيروس) الذين انحاز بعضهم الى العياشى وفر آخرون الى الجزائر وانضمت أشتات منهم الى سكان الرباط وأصبح القصرى قائدا وحيدا على شقى المدينة الا أنه طمع فى أكثر من ذلك فأقام قنطرة من المراكب لنقل عتاده الى سلا لمحاصرتها فاستنجدت هذه بالعياشى ويظهر مما كتبه الاميرال الانجليزى رينسبوروغ (Rainsborough) فى يوميته (من 3 مارس الى 23 اكتوبر 1637) وكان قد وصل آنذاك بأسطوله الى مصب أبى رقراق لتحرير أسارى انجليز – ان المجاهد العياشى حصل على مساندته فقصفت مدافع الملك (شارل الاول) الجسر العابر الذى أدى تحطيمه الى انسحاب القصرى الى مربطه فى الضفة اليسرى للنهر (19) ولم يقف الامر عند هذا الحد لأن الصراع المفتعل بين العدوتين أمسى قضية حياة أو موت لاسيما وان تدخل

(19) رحلة جان ماج (Jean Mages) (ص 539) .

الانجليز أصبح عنصرا جديدا لم يتنبه الى خطورته حيث طفق يؤجج نار الخلاف ويذكى عوامل التناحر بين الجانبين وكان لانجلترا آنذاك مطمع فى الاستيلاء على القصبة بدعوى قطع دابر القرصنة من معقلها الا أنها كانت تستهدف فى الحقيقة تركيز مبادلاتها التجارية بوضع اليد على مراكز فى الشاطىء المغربى للمحيط وكانت انجلترا تحسب أنها بمساندة العياشى تضرب عصفورين بحجر فتحصل على عطف المجاهد الكبير وتضعف نفوذ الدولة فى شخص الشريف محمد الشيخ الصغير فلذلك عززت بأسطولها حصار القصبة التى هب السلطان لنجدتها فتواطأ العياشى مع سيدى محمد الحاج الدلائى لعرقلة زحف الجيش السلطانى بترويج شائعات حول هجوم موهوم على عاصمة الحمراء ، وتمخض الحصار الموصول عن عزل القائد القصرى وتعيين قيادة من ثلاثة منتخبين أدت الى قيام ثلاثة أحزاب متناقضة فى هذا المجال الضيق من شاطىء الوادى وكانت انجلترا قد وضعت تاجرا هو روبير بليك (Robert Blacke) بجانب السلطان بمراكش حيث حظى بعطفه فصارت هى بذلك تلعب على الحبلين فى مسرحية نقل القصرى خلالها مكبلا فى القيود الى السلطان الذى أرجعه الى منصبه وأدى تناجى الدخيلين الانجليزيين الى رفع الحصار واغتيال

القصرى واقامة السلطان لحاميته بأمرة القائد مراد وهو علج فرنسى وعــودة (الهورناشيروس) وانسحاب العياشى الى أرباض المهدية لمحاصرتها واستمر المجاهد الكبــير مع ذلك فى بث الشقاق بين سكان الرباط فقامت الحرب من جديد واستنجد الاندلسيون بالدلائيين وتمخض الالتحــام عن قتــل الخلــط للمجاهــد العيــاشى عــام 1051 هـ / 1641 م وانصــاعت المستوطنات الثلاث الى سيدى محمد الحاج برياسة ممثـــــل عنه هو قائد سلا السيد الحاج الجنــوى (20) وظــل سكان القصبة بالرغم عن ذلك يراسلون بكيفية شخصية « الولايات العامة » فى لاهاى Etats - Généraux La Haye مما أحنــق الزعيم الدلائى الذى أسر الى الهورناشيروس بمحاصرة الاندلسيين فى القصبة عام 1054 هـ / 1644 م وطردهم منها وتعيين ولــده عبد الله قائدا أعلى للمنطقة وكان يدعى (أمير سلا) يخلفه الجنوى المذكور فى قيادته التى استمرت الى عام 1071 هـ / 1660 وهو التاريخ الذى ثارت العدوتان معاضد الدلائيـــين الذين انهزموا شر هزيمة رغم هبوب ثمانين ألف جندى مــن رجالهم بفضل تحالف خضر غيلان وعبد القادر سيرون واستمر الصراع ست سنوات عين أثناءها القائد عبد القادر مرينو على

(20) حسب شهادة تجار سلاويين (راجع كايبي ص 221) .

رأس الرباط وقصبته والقائد الحاج محمد فنيش على سـلا تحت حماية الخضر غيلان الذى مـا لبـث السلطـان مولاى الرشيد أن نحاه واستولى على المنطقة عنوة دون اراقة قطرة دم ولا اطلاق رصاصة واحدة لأن الشعب الذى طفق طوال مدة الصراع الضحية الوحيدة ــ مل وكل فانصاع الى ممثل السلطة العلوية الفتية وانصاع معه زعماؤه فدخلت العدوتان فى مرحلة هادئة بعد اضطرابات عارمة تواصلت ويلاتها أزيد من نصـف قـرن .

وكان قواد القصبة أو (رباط الفتح) كمفوضين فى الميناء يتراسلون باسم « الديوان » مع بعض الامـراء المسيحيـين خاصة منهم ملك انجلترا شارل الاول و « الولايات العامة » فى لاهاى وأمراء اقليم « أورانج » (الذى لم يلتحق بفرنسا الا عام 1673 م / 1084) وكانت الغاية هى الحصول على العتاد الحربى من هذه الدول بعد مفاوضات معها على قـدم المساواة وقد أبرموا معها اتفاقيات ومعاهدات على يد سفراء أمثال محمد بن عبد القادر برفوق وابراهيم بن شعيب بركاش وبعض أعضاء الديوان وقد أثبت (كاييى) فى (تاريخ الرباط) (ص 230) نقـلا عن وثائق فرنسيـة ــ كثـيرا من هـذه

المعاهدات التى امضيت مع انجلترا وفرنسا شاركت مدينة سلا فى بعضها وحتى فى فترة خضوع الديوان للدلائيين كان أعضاؤه يتدخلون لمناقشة كل اتفاق مع الدول الاوربية اللهم الا فى عهد عبد الله بن محمد الحاج الدلائى الذى كان يوقع هو أو ممثله الحاج الجنوى قائد العدوتين وذلك خلال نحو عشرين سنة من عام 1051 هـ / 1641 م الى عام 1070 هـ / 1659 م .

وقد لفت نظرنا من بين المستوردات الفرنسية عام 1065 هـ / 1654 م التبغ والبارود على أن بعض المناطق الاوربية خاصة جنوة وبيزة كانت تمد القرصان الاعلاج المرابطين بأبى رقراق وتقتنى منهم المواد والسلع المقتنصة وحاولت دول أخرى تأسيس مراكز تجارية على ضفاف أبى رقراق حيث أقامت انجلترا عام 1048 هـ / 1638م بمرسوم ملكها شارل الاول (21) (شركة برباريا
(Barbary Company
للقيام رسميا بصفقاتها فى كل من الرباط وسلا بالاضافة الى مراسى المغرب الاخرى وكانت العدوتان تعجان

---

(21) رسائل البراءة الصادرة عن شارل الاول (راجع كايبي ص 236) .

آنذاك بالتجار الانجليز والفرنسيين والهولنديين وغيرهم مما فسح المجال لتعيين قناصلة أوربيين مثـل (هنـرى بـرات) (Henri Prat) الفرنسى (1058 هـ / 1648 م) وقبلـه القنصل الهولندى بيستر فيلت (Juriaen Van Bystervelt) 1045 هـ / 1635 م) الذى كان يقطن بالقصبة ولكن انجلترا لم يكـن لها قنصل بالمنطقة رغم علاقاتها القديمة بالاندلسيين وقد ورد قبيل ذلك فى مذكرة مؤرخة بـ 1631 م / 1041 هـ (دوكاسـتر ـ س . أ . ـ السعديون ج 3 ص 358) أن الرباط أجمـل وأمتع مدينة فى ساحل افريقية جودة أرض وعذوبة مياه ولعل فى ذلك كثيرا من الايغال لأن صاحب المذكـرة ينـص على أن قراصنة سلا اقتنصوا فى ظرف عشرة أعـوام أزيـد من ألف سفينة مسيحية . وكان مصب أبى رقراق قد أصبح منذ عـام 1023 هـ / 1614 م المرسى الاسلامية الاطلنطية الاقرب الى أوربا رغم كون حاجزها الرملى (barre) الذى أشار اليـه صاحب الاستبصار (ص 53) كان يعوق بعض الشىء دخول المراكب اليهـا غـير أن هـذا المصـب اتسـع تحت تأثـير الزلزال الذى وقع فى لشبونة عام 1169 هـ / 1755 م بعـد وفاة المولى اسماعيل بعشرين سنة فأصبح فى وسـع السفن الكبرى التى تزيد حمولتها على مائة وخمسين طنا الدخول الى

الميناء (22) . والواقع أن الاندلسيين أقاموا معالم مدينـــة جديدة داخل نطاق رباط الفتح حيث شيدوا سورا قلصوا بـه حاضرة المنصور الموحدى يمتد من النهر (برج سيدى مخلوف) الى باب الحد أو الاحد قاطعا السور الموحدى جنوبا ويظهـر أن مساحة المدينة فى حدودها الجديدة بادراج حى لعلـو (23) والقصبة ــ لم تصل الى ماءة هكتار أى ما ينيف بقليـل على ربع المساحة الموحدية ويذكرنا التصميم الاندلسى لهذه الرقعة الحديثة من رباط الفتح بالتخطيطات المعمارية الرتيبة المعروفة فى أوربا أو الولايات المتحدة الامريكية حيث أقيمت أربـــع شوارع أساسية من الشمال الى الجنوب يقطعها عرضا شارعان

---

(22) اسماعيل الاكبر امبراطور المغرب ــ ماكسانج ص 71 / وصـف تاريخ المغرب ج 1 ص 156 / دوكاستر ــ السعديون السلسلـة الاولى م. 2 ص 265 ــ م. 3 ص 332 .

(23) كان يسمى جبل الزعفران والواقع انه جبـل العـرض بفـاس السلوة ج 3 ص 149 ، ويرى الاستاذ عبد الله الجراري (من اعلام الفكر المعاصر ج 2 ص 1103) .

(24) انه هو مقبرة لعلو حيث دفن أبو سالم بن ابى الحسن المرينـي المتوفى عام 762 هـ / 1360 م فى حين ان مدفنه بالقلة بفـاس (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 361 (خ)) (راجع روضة النسريـن لابن الاحمر ــ المطبعة الملكية بالرباط)

اثنان لتحديد الحارات والاحياء وقد نوه جان ارمان مصطفى في رحلته (Relation de Jean Armand Mustapha) بهذه الهندسة الرصينة وأسست في فترة الاندلسيين هذه كثير من المباني الاستراتيجية كبرج القراعنة الذى تنحدر درجه من القصبة الى الوادى معززا بست وسبعين مدفعا جلها من الحجم الكبير مع حامية قدر عدد رجالها عام 1032 هـ / 1622 م بألف وخمسمائة من بينهم رماة مهرة . أما المدينة فقد سكنتها أسر أندلسية مثل آل بركاش وكراكسو وبالافريج وبيرو وطريدانو ولوبريس وغيرها من العائلات العريقة التى قابلتها في سلا أسر عريقة أخرى مثل آل فنيش واذا كان المؤرخون يرون أن (الهورنشيروس) سكان القصبة كانوا من الاندلسيين الاوائل الذين فروا بدينهم الى المغرب فان من جاء بعدهم خلال فترات متعاقبة ـ لاسيما بعد النفى العام ـ لم يكونوا كلهم من ذوى الايمان الوطيد ولعل بعضهم احتفظ بالحنين الى (الفردوس المفقود) غير أن النزاع المسلح الذى استعر بينهم وبين اخوانهم من سكان سلا والقصبة وسم هؤلاء الطارئين بميسم خاص حدا أهل سلا الى تسميتهم بـ : « مسيحيى قشتالة » وقد عزز (جوهن هاريسن) الانجليزى هذا الرأى (24)

(24) مسيحيو المغرب دوكاستر ـ الوثائق ـ السلسلة الاولى م. 3 ص97.

وكذلك بعثة (الكابوسين) المسيحيــة (25) وحتى اذا صحت هذه الاطروحة فان تفسيرها يكمن فيما اتصف به سكان الرباط آنذاك من الشيم الحضارية التى جعلت البعض منهم غرباء فى المنطقة لاسيما وأن سكان سلا كانوا آنذاك من الفريق الذى عرف فى الاندلس بنشاطه الفياض فى دعم الازدهار الزراعــى فى اسبانيا فى حين كان أندلسيو الرباط من الحضريين الذيــن وسموا بنوع من « الميع الارستقراطى » صيرهم أقرب مظهرا الى المسيحيين الاسبان وأعلــق بهــم فى سلوكهم وعاداتهم وطموحاتهم ! وما لبثت هذه الفوارق أن انمحت منذ أوائــل العصر العلوى حيث اندمج الفريقان فى المجتمع المغربى مــع استمرار « أسطورة الصراع » بين العدوتين الى عهود متأخرة.

* * *

وقد انبرى المولى الرشيد لتحرير المغــرب من الامارات المستقلة التى سيطر عليها كروم الحاج والدلائى والعياشــــى والخضر غيلان وعبد الله اعراس وكان عــرب الاودايــة من الفئات الاولى التى شكلت جيشا نظاميا فتيا ما لبــث المولى اسماعيل ان عززه بالعبيد الذين وضع نظاما رصينا لتكوينهم

---

(25) Histoire de la mission des P.P. Capucins du Maroc, p. 341

فى (مشرع الرملة) وهو معسكر لتدريب الجند الفتيان غير بعيد عن أبى رقراق (بين سلا ومكناس) وكان هذا المعسكر يضم نحو مائة وخمسين ألفا من الشباب كانوا سند السلطان فى طرد الاسبان من المعمورة (عام 1092 هـ / 1681 م) والعرائش (1101 هـ / 1689 م) وأصيلا (عام 1104 / 1692 م) وتحرير طنجة عام 1096 هـ / 1684 م) من قبضة الانجليز مما أثار تذمر أوربا وانزواء السلطان موقتا عنها لانكبابه على تحصين الثغور والمواقع الاستراتيجية حيث أقام أربعة وسبعين حصنا فى طول البلاد وعرضها وجهزها بالحاميات القوية كما قام - على غرار قصر فيرساى (Versailles) « مدينة الرياض » بعاصمته الجديدة مكناس تضم سورا عتيدا طوله أربعون كيلو متر يضم الحدائق والقصور والقباب والاهراء ومخازن العتاد !

وبعد خلل عابر وسم عهد المولى عبد الله عاد نجله السلطان سيدى محمد فواصل سياسة جده بتنظيم الجيش واقامة أبراج وتحصينات فى معظم مراسى المغرب وتكوين أسطول طرد به البرتغاليين من الجديدة عام 1183 هـ /

1769 م وبناء الصويرة كمركز تجارى نموذجى متفتح نحو المحيط وقد عرف المولى سليمان كيف يحفظ هذا التراث بسياسة لبقة تحاشى فيها الخنوع لأوربا رغم تهديدات نابليون ودول مسيحية غير أن وجود فرنسا بالجزائر شكل منفذا للاستعمار قاسى المولى عبد الرحمن الأمرين فى مدافعته وكان من آثار وقعة ايسلى (1260 هـ 1844 م) وحرب تطوان (1277 هـ / 1860 م) الفل من شوكة المغرب على الصعيد الدولى حيث بدأ عهد المولى الحسن الاول بسياسة « تدافع » حرص ملوكنا بفضلها على حفظ التوازن السياسى الخارجى للبلاد بالرغم عن تكتل أوربا ضد المغرب وبروز معالم الاستعمار الجديد الذى أدى مع فجر القرن العشرين الى وضع لبنات الحماية فى اتفاقات سرية لتوزيع الشمال الافريقى بشقيه الشرقى والغربى ، وأمست العدوتان طوال هذه الثلاثمائة سنة فى ظلال الملوك العلويين حاضرتين بارزتين من حواضر المغرب المزدهرة بقائديهما الاثنين مع ثالث يشرف على الميناء تحت المراقبة الصارمة للسلطة المركزية ولعل القنوات التى مدها العلويون لنقل ماء غبولة الى الرباط قد وضعت على القنوات الموحدية حسبما لاحظ الاستاذ

باسى (26) خلال التنقيبات المحققة عام 1922 حيث بـــرزت بقايا القناة القديمة خارج مداخل سور المدينة قرب بــــــاب شالة من حيث تنعرج قبالة الجامع الاعظم لتتجه الى قصبـــة الاوداية ولعل الاستاذ باسى لم يلاحظ أن هذه القناة تمـــر بالزاوية التجانية قرب « زنقة القناصل » حيث مدت قنـــــاة فرعية باذن من جلالة السلطان الحسن الاول ، وكانت قنـــاة الموحدين قد تعرضت الى أخطار حـــوالى منتصـــف القـــرن السابع الهجرى أثناء حروب استعرت بين الموحدين وبنى مرين غير أنها استصلحت سنة 684 هـ / 1285 م على يد السلطان ابى يوسف المرينى (27) .

وقد عرفت الرباط وسلا قوادا لامعين أمثال احمد بـــن حدو وعبد القادر مرينو والاميرال عبد الله بن عائشة كـــان لهم ثقل فى ميزان العلاقات مع أوربا وظلت قرصنة الاعلاج فى العهدين الرشيدى والاسماعيلى موصولة انطلاقا من ضفاف أبى رقراق دون أى اسهام من سكان العدوتين غير أن الاسطول النظامى ما لبث أن تعزز فى عهد السلطان سيدى محمد بـــن

(26) Un aqueduc Almohade à Rabat, in Revue Africaine, 1923 (3è et 4è trim. p. 523).

(27) ليـــــون الافريقـــــــي ج 2 ص 184 .

عبد الله بخمسين قطعة يشرف فيها ستون ضابطا على خمسة آلاف من البحارة وألفين اثنين من الرماة وعادت دار الصناعة فى سلا الى نشاطها المرينى بالاضافة الى أوراش الرباط قبالة جامع حسان على الضفة الجنوبية للوادى تزج فى المحيط بسفن جهز بعضها بخمسة وأربعين مدفعا .

واذا كان سكان العدوتين قد انصرفوا بالكلية عن القرصنة فان تجارتهم مع أوربا ازدهرت حيث أصبح ميناء أبى رقراق أنشط مراسى المغرب مع مرسى مرتيل بتطوان .

وكانت روح المهادنة تذكى ماوكنا فى تشجيعهم للتبادل الهادىء الوديع حتى بواسطة تجـار اجانب يقيمون بمختلف الموانى غير أن روح التسامح ما لبثـت أن انقلبت الى لوازم معكوسة تحت تأثير سياسة الحيف والاستغلال التى كانـت تنهجها دول أوربية ضد المغرب وهكذا فعندما حاصر الانجليز مصب أبى رقراق عام 1096 هـ / 1684 م لم يسع السلطان الا أن يصدر أوامره لطرد جميع التجار الاجانب من مراسى المغرب وحاول المولى اسماعيل أن يمد اليد الى ملك فرنسـا لويس الرابع عشر لتبادل الاسرى ومحو بواعث الخلـل

والاضطراب غير أن فرنسا كانت متشبثة بالحفاظ على الاسرى المغاربة لضمان سير مراكبها الشراعية .

وكانت قصبة الاوداية قد احتفظت بقيمتها الاستراتيجية مما حدا المولى الرشيـد الى بنـاء سـور حديقـة الاوداية و « القشلة » (هى سجن لعلو الحالى) التى عززها بثلاثين مدفعا تتجه فوهاتها باستمرار الى المحيـط فى رقابة موصولة صـارمـة !

وقد انصبت آثار الهدوء والامن والنظام التى عرفتهـا العدوتان لأول مرة على مختلف مظاهر العمران فارتفع عـدد السكان من نحو أربعة آلاف نسمة فى عهد بنـى وطـاس الى نحـو عشريـن ألفـا .

واذا استـثـنـيـنـا فـتـرات الاضـطـراب العابرة أيـام المستضىء فان السلطان سيـدى محمد بن عبد الله ـ ايقانا منه ببواعث الفوضى ـ قد طرد الاوداية مـن القصبة وشتتهـم فى المدينـة التى اندرجت فى التنظيمـات الادارية والعسكرية الجديدة وقد جهز السلطان حامية الربـاط بستين مهراسا ومائتى مدفـع يتلقى طبجيـة الربـاط (أى

المدفعجيون) وعددهم آنذاك ألفان تدريبا بقيادة الحاج سليمان التركى وكانت هذه الحامية أقوى الحاميات فى حواضر المغرب اذ عهد السلطان عام 1172 هـ / 1758 م الى والى المدينة (على مرسيل) بتشييد برج جديد هو (الصقالة) التى شارك فى بنائها علج انجليزى بالاضافة الى بطاريات للحيلولة دون نزول قوات بحرية أجنبية جنوب غربى القصبة خاصة فى (برج الصراط) والمنارة الجديدة بها .

وقد بذل السلطان جهودا لايقاف القرصنة كما شجع تطور الصناعة والتجارة فى العدوتين واختصت الواردات بالجوخ والتطنيات بينما حوت الصادرات الجلد والصمغ والنحاس ثم الصوف الذى وصفه مؤرخون غربيون بأنه صنف رقيق وأجمل من الصوف الاسبانى وكذلك التبغ الورقى الذى كان أجود من تبغ ولاية (فيرجينيا) الامريكية ومنذ العهد الاسماعيلى أصبحت أربعون الى خمسين سفينة انجليزية تزور مرسى أبى رقراق سنويا وقد تأسست دار تجارية دنماركية عام 1171 هـ / 1757 م بالرباط حيث نقل السلطان قنصلية الدنمارك من أسفى واستأجرت « شركة افريكانس » (Afrikanse Compagnie) مداخيل ديوانة العدوتين عام

1174 هـ / 1760 م بخمسين ألف دوكا وان كان نشـــاط هذا الميناء قد تقلص بعد تأسيس مرسى الصويرة رغم بقاء الكثير من التجار والقناصلة الاوربيين فى الرباط ايمانا منهم بأن هذا المركز أنسب لتجارة الساحل (28) .

وعندما اعتلى محمد الثالث العرش كانت مدينة الرباط محصورة داخل السور الاندلسى فأقام لها حامية من العبيـــد وشيد فى أكدال والاوداية فى القصبة (والاوبـــيرا) مظاهـــر عمرانية جديدة يتوسطها قصر مع مسجدين هما (جامـــــع السنة) ومسجد (أهل فاس) فى المشور بالاضافة الى أربعة مساجد أخرى فأضفى بذلك على (رباط الفتح) طابعا فخما كحاضرة ملكيـــة .

وعندما اعتزم سيدى محمد بن عبد الله اقامة اكـــدال داخل المدينة الموحدية لاحظ أن أراضى المخزن قد سطا عليها بعض أثرياء المدينة وأحالوها الى جنـــان وعرصات فاستصدر عام 1187 هـ / 1773 م فتوى من العلماء بطردهم منها (29).

(28) Chénier, Recherches historiques sur les Maures et Histoires de l'Empire du Maroc, vol. 3, p. 26.

(29) تاريـــخ الربـــاط للضعيـــف ص 184 (خ) .

وكانت مدينة الرباط تضم بين جنباتها أزيد من خمسين مسجدا وزاوية فى أوائل هذا القرن ، وقد أسس معظمها فى العهد العلوى أهمها جامع السنة الذى أكد الضعيف، ان بناءه تم فى جمادى 1199 هـ (مارس 1785 م) على يد الملك الهمام محمد بن عبد الله الذى أنفق عليه أموالا طائلة ، ويظهر أنه ظل منذ تأسيسه نحوا من عشرين سنة خاليا لبعده عن المدينة وقلة السكان حوله ، وقد قام السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن بتجديد بناء هذا الجامع الذى أصبحت الصلوات الخمس تقام فيه بانتظام مع خطب الجمعة وذلك بعدما بادر الى زيادة تعمير حى توارگة بعبيد البخارى واهل سوس ثم اقامة دار المخزن والمشور السعيد ولم تزد الترميمات الجديدة على دعم صحون الصلاة بروافد خارجية دون تعديل التخطيط الاصلى للجامع مع اضافة جناح وباب جديدين خلف المقصورة وربما ايضا دار للوضوء قرب الصومعة ومخدع مستطيل وراء المحراب يرجع تاريخه الى عهد السلطان مولاى عبد العزيز (1325 — 1907) ، وأول ما يبده الزائر لجامع السنة مساحته الشاسعة وتناسق اجزائه وبساطته ، واذا اعتبرنا تخطيطه الاصلى فان المساحة تكون عبارة عن مربع كامل (74٫70 م فى 74٫50 م) أى 5565 متر مربع ، وهذا

الجامع من أكبر مساجد المغرب ولا يفوقه في الضخامة عـدا جامع حســان (523 25 متر مربــع) وجامــع القرويــين (6300 متر مربع) .

وقد قامت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ـ بأمر من جلالة الحسن الثانى ابــده الله ـ بتجديــد هيكل جامع السنة فنقلت عام (1969) منارته من الطرف الشمالى الــى الطرف الجنوبى للمسجد ، وكان ذلك عنوانا ناصعا عن امتداد روعة الفن المغربى الاندلسى بطابعه الخــاص الذى اندرست معالمه فى الوطن العربى كما تجددت سقوف الصحون والبلاطات وازدانت مختلف الاروقة بنقوش خلابة وبرزت براعة الصانع المغربى فى النحت على النحاس الاصفر اللماع الذى لبست به أبواب الواجهة بشكل لم يسبق له نظير فى تاريخ الفن بالمغرب فكانت هذه المظاهر وكثير من اشباهها فى اجــزاء هذا التجديد صورا حية لعمق المكاسب الاندلسية والشرقية الاسلامية فى حضارتنا الحديثة التى تضم الى رواء الجمال العصرى جلال الفن التقليدى ، وقد أصبحت الصومعة الجديــدة شامخــة فى هيكلها الضخم يراها الناظر وقد أدلت فى سمت هندسى محكم على اكبر شارع فى العاصمة وهو شارع محمد الخامس رمز

النهضة المغربية الحديثة ورائد الفكر الحضارى والاسلامى الجديد فى المغرب العربى .

وهكذا بدأت (حاضرة الاندلسيين) تزدهر فكان من مظاهر أناقتها النسبية ، أزقتها المبلطة كما وصفها رحالون غربيون خاصة منها « زنقة القناصل » مقر ممثلى الدول الاوربية الا أنها ظلت مع ذلك من الوجهة الاقتصادية (رغم توفر مصنع للانسجة القطنية بها) أقل نشاطا من كثير من المدن الاخرى مثل سلا ومراكش وفاس ومكناس وتطوان كما يتجلى ذلك من مقارنة المكوس والضرائب بهذه الحواضر وهذا بالرغم عن اقفال مرسى أنفا ونقل تجارها الى الرباط بأمر من السلطان المولى سليمان الذى اتخذ منها منطلقا لمحاربة القبائل المتمردة ومقرا لخليفته المولى هشام فى حين وسع الحاضرة الاندلسية عام 1222 هـ / 1807 م بنقل اليهود من حى (البحيرة) الى ملاح جديد بحارة (وقاصة)اقتنى أرضه من ماله الخاص وحبسه على اليهود بعد أن جهزه بمختلف مرافق العمران وهذا مظهر من عناية ملوكنا بهذه الجالية من المواطنين الذين أراد السلطان أن يوفر لهم السكن المريح فى مكان اخضرت رحابه بالجنان والعرصات

الا أن اقتصاد المنطقة ازداد تقلصا من جراء استفحال المجاذبات الدولية بسبب (حروب نابليون) التى حالت دون وصول السفن الأوربية الى سواحل المغرب وكان الاسطول المغربى فى هذه الآونة مجهزا بنحو عشرين قطعة اضطر السلطان لأسباب شتى الى نزع سلاحها تقليصا للصراع البحرى مع أوربا والواقع أن العهد السليمانى شكل فترة هادئة فى تاريخ المغرب أقام السلطان خلالها قصر (القبيبات) المعروف : بـ «دار البحر» مع بضعة مساجد ولعل من مجالى هذه الدعة النسبية ارتفاع عدد سكان الرباط الى ما بين 25.000 (30) و 30.000 (31) نسمة الا أن هذا الهدوء ما لبث أن تخللته اضطرابات تزايدت خطورتها فى عهد المولى عبد الرحمن بما كان يثيره أهل (زعير) بأرباض الرباط حيث عاثوا فسادا فى نفس الوقت الذى كان (بنو عامر) يقضون مضاجع أهل سلا بعيثهم ولعل ذلك هو الذى حدا السلطان عام 1249 هـ / 1833 م الى تعبئة أهل سوس من جيش الاوداية وتركيزهم فى القصبة التى لا تزال تحمل

---

(30) حسب Grey Jackson فى كتابه :
An account of the empire of Marocco, Londres, 1809, p. 87.

(31) حسب Broussonnet فى كتابه :
Magasin encyclopédique ou Journal des sciences, p. 103.

اسمهم الى الآن مع اقطاعهم أراضي بين الرباط وتمارة وكان العبيد آنذاك قد اندرسوا تقريبا الا أن بطاريات الرباط أصبح لها وزن تخشى مغبته قطع فرنسية هاجمت مصب أبى رقراق عام 1268 هـ / 1851 م قاصدة قنبلة سلا الثأر منها بسبب هجوم مراكبها على سفينة فرنسية وتلقت الرباط آنذاك انذارا بعدم التدخل ولكن مدافع القصبة لم تكن لتتأخر عن نجدة اخوتها بالعدوة الشمالية التى أبلت البلاء الحسن مما اضطر الاسطول الفرنسى الى الاقلاع في نفس الليلة وكانت انجلترا تلعب وراء الستار ضد فرنسا دعما لتجارتها التى بلغت حصة الاسد فى العدوتين حيث تكدست واردات من القطنيات والحرائر والصوفيات والفولاذ والنحاس والحديد والسكر والشاى ارتفعت قيمتها من مائة ألف فرنك عام 1266 هـ / 1849 م الى 4.158.465 ف (قيمة الصادرات منها 1.863.515 فرنك) عام 1274 هـ / 1857 م وكان جبل طارق آنذاك هو المستودع التجارى الذى يمد الرباط وقد دخلت فى نفس السنة الى الميناء ست وثمانون سفينة مجموع حمولتها 6.684 طنا أربعون منها فرنسية واحدى وعشرون برتغالية وثمان عشرة انجليزية وسبع اسبانية والسبب فى هذا التطور هو معاهدة 1844 م التى شلت يد المغرب سياسيا

وفتحت بابه فى وجه أوربا مما أسفر عن نمو المبادلات معها حيث أمست الرباط مهبطا لرواد افريقيا من الرحالين الذين بدأوا يمهدون لغزو الغربيين ولكن السلطان الذى كان يعى أبعاد هذا الخطر أبى الا أن يعزز الثغور فأقام مخيما لنخبة الرماة فى اطار الجيش النظامى شاركوا فى معركة تلمسان عام 1246 هـ / 1830 م والواقع ان الرباط كانت لها جاذبية فكانت تلفت الانظار لدورها وقصورها الفخمة وحدائقها الغناء التى وصف روعتها كثير من الرحالين (32) وكان واليها وجابى جمركها ورئيس مرساها وناظر أحباسها يتجمعون فى ادارة واحدة قرب حى القناصل ويظهر أن سكان العدوتين فى هذه الفترة بلغ ستين ألف نسمة (33) وهو عدد لا يبدو باهظا اذا اعتبرنا أن الرباط أصبحت « حاضرة تجارية كبرى » ــ كما يقول القس كودار (34) وأمست هى وسلا معا « مركزا اقتصاديا من الدرجة الاولى » . كما يقول نائب القنصل الفرنسى (35) لاتجاريهما من مدن المغرب سوى حاضرة فاس

(32) Cotte (Narcisse), le Maroc contemporain, Paris, 1860, p. 52.

(33) Beaumier, le Choléra au Maroc, sa marche jusqu'au Sénégal en 1868, Paris, 1872, p. 9.

(34) Godard (abbé), le Maroc, notes d'un voyageur (1858-1859), Alger, 1859, p. 49.

(35) Caillé, p. 349.

وكان اقرار الامن بها محط عناية السلطة المركزية وقد ضرب محمد الرابع أروع مثل فى البطولة والتضحيـــة عندمـــا هـــب شخصيا عام 1287 / 1870 م صحبة أحد أبنائه للاقتصاص من عصابات (زعير) التى أقضت مضاجع شعب وديـــع كان البطل المغوار يحس بأنه مؤتمن على راحته وطمأنينته وأصبح الدور الاساسى لجيش الاوداية معززا بأهل السوس (وهم توارقة الحاليون) هو الوقوف فى وجـــه العابثـــين من هـــؤلاء وغيرهم وقد تكونت منهم منذ عام 1299 هـ / 1881 م ثلاث سرايا تدربها بعثة عسكرية فرنسية تلاهـــا بعد سبع سنوات اقامة بطارية عصرية على الساحل على بعد أقل من كيلو متـــر واحد من القصبـــة باشراف المهندس الالمـــانى (روتنبورغ) (Rottenburg) وبذلك أصبحت (العدوتان) أكثـــر حصانة (36) بعد مدينة طنجة من كل الحواضر نظرا لتوفـــر مائـــة وأربعة وستين مدفعا من بينها ثلاثون من عيار اثنى عشر مع تعبئة ستة وأربعين طبجيا أو مدفعيا لحراسة الشاطىء ومراقبة كل الحركات المشبوهة فى عرض البحر .

---

(36) (المغرب المعاصر امبراطورية تنهار ص 259) .

وهكذا بدأت حاضرة الرباط منذ محمد الرابع ونجله الحسن الاول تسير بخطى حثيثة نحو مركزها كعاصمة حيث أصبح السلطان يحتفل بأيام العيد فى أبهة وفخار أمام وفود تنحدر من مجموع أنحاء المغرب وتزايد حذر الشعب بعد حرب تطوان وما عقبها من ويلات فكان السكان فى تربص مستمر يترقبون الطوارىء وبدأت الاعصاب تتوتر لأقل تدخل أجنبى لان الشعب بدأ يحس بالدسائس التى تحاك فى الخفاء فتبرق من رمادها بين الفينة والاخرى شرارة مزعجة وكان سكان الرباط خاصة يكدسون السلاح توقعا للشر وكذلك فعلوا عندما شب نزاع بين المغرب وانجلترا عام 1307 هـ / 1889 م بصدد وضع أول حبل تلغرافى بطنجة فاحتاط المخزن واستنفر عسكره فى النقط الحساسة من السواحل ، ومع ذلك ظل التبادل التجارى موصولا مع أوربا وخاصة فرنسا وانجلترا ودخل فى نفس العام عنصر جديد فى واردات أبى رقراق هو (البترول) كعنوان على اتجاه المغرب نحو التطور وتضاعف عدد البواخر الراسية فى ميناء الرباط أزيد من ثلاث مرات (102 بدل 31) فى ظرف ربع قرن (أى بين 1282 هـ / 1865 م) و 1309 هـ / 1891 م) لاسيما بعد أن ظهر فى المسرح الايطاليون وكذلك الالمان بشركتهم (أطلس) منذ

1308 هـ / 1890 م لربــط مرسى (هامبــورغ) بمــراسى المحيط وكانت شركة (بــاكى) (Paquet) تنقل المسافرين بين (مرسيليا) والرباط منذ عشرين سنة خلت لذلك العهد ومــا ان اعتلى الحسن الاول العرش حتى كان حى القناصل بالرباط يضم ممثلى تسع دول (هى فرنســا وانجلتــرا والبرتغــال وايطاليا والنمسا ـ هنغارية والولايات المتحدة الامريكيــة وألمانيا وهولندا) يسهرون على مصالح مواطنيهم بينما ظل المفوضون فى طنجة العاصمة الدبلوماسية وعرفت الربــاط فى نفس الوقت مكتبــا بريديا أسسه الانجليز عقبــه تأسيــس مكاتب أخرى بعد بضع سنوات حيث صدر ظهير شريف عام 1310 هـ / 1892 م لتــنظيم دواويــن المخــزن البريدية فى خطوط ثمانية كانت الرباط مقرهــا المركــزى وكانت حــاضرة المنصور قد ازدانت منذ بداية عهد محمد الرابع ببروز معالم القصر الملكى العامر احتفل به عام 1281 هـ / 1864 م علماء العدوتين فى مهرجان فاخر داخل رحاب المشور فكان ذلــك بالنسبة للرباط فاتحة عهد جديد ! !

ولم تستكن (العدوتــان) مــع ذلك الى هذا العمــران الحضارى العارم لان بدايــة القــرن العشرين كانت منطلقــا

لدسائس استعمارية تبلورت فى اتفاقات سرية عام 1322 هـ / 1904 م واجهها السلطان المولى عبد العزيز بحزم فى مؤتمر الجزيرة الخضراء عام 1324 هـ / 1906 م وكان المغرب قد أعد نفسه للدخول فى معمعة الديموقراطية ضمن الملكية الدستورية منذ أن أصدر السلطان مولاى عبد الحفيظ عام 1326 هـ / 1908 م مشروع دستوره فى اطار النهضة العامة التى بدأت معالمها تظهر فى آفاق العالم العربى والاسلامى ولكن تكتل الاستعمار الغربى حال دون هذا التطور الطبيعى للمغرب الناشىء الذى ما عرف فى حياته طوال أزيد من ألف سنة أى نوع من السيطرة الاستعمارية الى أن فرضت عليه الحماية الفرنسية عام 1912 م ولكن الاربعين سنة التى قضاها المغرب مقيدا فى نطاق مفتعل كان مناسبة التحم فيها العرش والشعب فى صراع مسلح موصول لم يتوقف الا بعد 1934 ليخلفه كفاح سياسى قاده جلالة المرحوم محمد الخامس وولى عهده آنذاك جلالة الحسن الثانى منذ عام 1944 كلل بثورة الملك والشعب وبزوغ عهد الاستقلال المنتزع عام 1955 وكانت (الرباط) فى هده الفترات كلها منطلقا للتلاحم ومسرحا للكفاح فى ظلال العرش .

الربـاط **عبد العزيز بنعبد الله**

حلم راهبة..!

علي الصقلي

ومالت على كتفي كصبيـــة ... تموج سنى ساحرا وسنـــاء
ومن مقلتيها نـــداء تهـــاوى ... الى عالـــم الحلم تلـــو نداء
وظـــل ســـلام على شفتيها ... تلاشـــى بأذني رجع غنـــاء
ومالت ... ومالت كنيلوفـــر ... طـــوت جفنه نسمات المساء
وأغفت، ولم تغف عين الصليب ... على صدرها حدبـــا وولاء
كذا الحسن من أعين العاشقين ... يرى صانعا أعـــين الرقبـــاء
ومن ثم..من فوق صدر كريم ... تراقص أرجوحة من ضيـــاء
أطـــل على ليـــل بردتـــهـــا ... نهـــار الصليب، وسال رواء!

*   *

وراح القطـــار يهدهدهـــا ... ويهدي اليها بساط حريـــر
عليه الملائك قـــد رفرفـــت ... مناغية للمـــلاك الصغيـــر

ورفت عليها ظلال السكون سوى فتنة صرخت ، وعبير
وطيف ابتسام الى قلبها وما شغف القلب حبا يشير
على ثغرها حام من قبل أن يحوم عليها الكرى ويغير
وود الآلى حولها لو رأت بأحنائهم كم لها من سرير
وألفيتنى ، وسناها على جبينى يرين ، كأزهى أمير !
ولم لا ؟ ! ألست أنا جارها وأنى بين الرفاق الاثير

وظلت كذلك بنت السماء تغازلها سنة سندسيه
ويحملها الحلم فى كفه كاحدى صبايا الحنان الفتية
الى عالم ، فيه كم فارس يطير بأجنحة قرمزيه
يبادلها الحب صاعا بألف لتعرف منه الخفايا الحفيه
وتشربه ملء أعماقها بأحضانه خمرة كوثريه
فمن وشوشات حديث يشى لقيس بأخبار ليلى الاسيه
يعطره الحب فى كل حرف ، وتلميح طرف ، وآه شهية !
الى قبلة تستثير الجحيم بأغوار أضلعها ، عسليه
الى ضمة كل معنى الحنان فيها تصور ، والاريحيه
فيعصر نهدين كم ظمآ اليه ... الى كفه المخمليه
ويطعم منها هنا وهناك أطايب فاكهة بشريه
فتحيا الهوى مثل ما علمت حكاياه أيام كانت صبيه

الرباط — **على الصقلى**

ازمة العالم الإسلامي

بين الدّين والحضارة

محمد الكتاني

— 1 —

يحس العالم الاسلامى منذ انبعاثه فى القرن الماضى الى اليوم بازمة يزداد الشعور بها وبضغطها الحاد كلما ازداد المسلمون وعيا باوضاعهم وتخلفهم وبعوامل ذلك التخلف وتفاقم نتائجه ، وهو احساس يعكس اشكالا من القلق والياس ، أو التخاذل والتردد انطبعت بها مواقف الساسة والمصلحين فى شتى المناسبات والظروف .

اما مبعث القلق والياس فهو الشعور الملح بان التاريخ الاسلامى قد توقف عن السير الى الامام منذ قرون . وان قافلة المسلمين منذ عصور الانحطاط الى اليوم تشبه الى حد ما قافلة تائهة . نقول هذا بالرغم مما يقال أو يكتب عن العالم الاسلامى من تقويم ايجابى ، وانه آخذ باسباب التطور والنمو تحت تاثر الاخذ بأساليب الغرب فى الاقتصاد والسياسة والادارة والتعليم بل ربما كان هذا الاخذ بالمناهج الغربية ، مع ما ينطوي

عليه بعضها من تصادم وتناقض مع طبيعة التراث وقيم المحافظة هو احد عوامل تلك الازمة كما سنـــرى .

والواقع أن ازمة العالم الاسلامى أزمة حضارية بالمعنى الشامل ، ذلك انه يمكن تلخيص هذه الازمة المتشعبة في ظاهرة اجتماعية أساسية ، هى توقف الحركة الحضارية الاسلامية ، وجمود المؤسسات الحضارية ، ونضوب الابداع . وانسداد باب الاجتهاد وتقوقع الفكر العربى على نفسه .

غير ان الاصطلاح المتداول الذي يطلق على هذه الازمة هو « التخلف » وقد كان هذا التخلف يتفاقم فى ظروف خاصة ، أي أن عالمنا الاسلامـــى كان يتخلف ويتردى من سيء الى اسوأ فى الوقت الذي كان فيه الخصـــم التاريخى أو التقليدي للعالم الاسلامى ــ وهو الغرب ــ يزداد قوة وتقدما يمكنانه من الغزو والسيطرة والغلبة فى كل معركة يخوضها معنا أو نخوضها معـــــــه .

ان أزمة التخلف هذه أو الجمود الحضاري تتشكل كل مرة بشكـــل خاص حسب زاوية النظر التى ينظر منها الملاحظ . فتارة تأخذ طابعا سياسيا يبدو فيه النظام السياسى السبب الاول فى التدهور والتخلف ، وتـــارة تبدو وقد أخذت طابع الازمة الاجتماعية ، أزمة قوامها الفقر وانعدام الاطر وازدياد الحاجات ، ومرة ثالثة تأخذ الازمة صورة أزمة نفسية وروحية تتعدد اسبابها ومظاهرها بتعدد مباضع التحليل ومجاهر الرؤية . وأمزجـــــة الباحثيـــــــــــن

وفى الوقت نفسه كانت همم القادة والمصلحين والمفكرين لا تنى عن بذل الجهد وابداء النصح وتوجيه المسلمين نحو الخروج من هذا التخلف الذي يحيط بهم ويشل ارادتهـــم .

واتخذت هذه المحاولات المتواصلة فى سبيل بعث العالم الاسلامى وانهاضه من كبوته ، واستئناف مسيرته نحو نهضة حقيقية شاملة هادفة منهجين رئيسيـــين :

اولهمـــا : منهج المحاولة الدينية . وهى تتمثل فى حركات الاصلاح الاسلامى والتجديد الدينى التى نهض بها المفكرون الاسلاميون منذ جمال الدين الافغانى الى اليوم ، وهى محاولة تنطلق من تصور مبدئى هو ان اصلاح العالم الاسلامى لن يتم الا بما صلح به أوله . وذلك بالرجوع الى دينه فى صفاء عقيدته . وعدالة شريعته ، وأن ما أصابه من ضعف وتخلف كان ناتجا عن ابتعاده عن دينه ، وعن تنفيذ أحكامه وتطبيق شريعته (1) .

ثانيهمـــا : نهج المحاولة العلمانية أو الموضوعية ـ كما يسميها اصحابها ـ وهى المحاولة التى تمثلت فى بعض أنظمة الحكم السياسية وأعمال المنظمات السياسية والاحزاب ، تلك المحاولة التى انطلقت من اساليب الاصلاح الاوربى الحديث ، من الاخذ بمناهج الغرب فى تنظيم الادارة ، والتخطيط الانمائى والاصلاح السياسى وانشاء الهياكل الديمقراطية التمثيلية للجماهير . وهذه المحاولة هى التى قادها الزعماء السياسيون على اختلاف نزعاتهم ، ونهضت بها الحكومات التقنوقراطية من غير تقيد بالشريعة أو التـــزام بأحكامهـــــا (2) .

وهذه المحاولة تنطلق من تصور اساسى ، وهو ان الازمة التى تصيب مجتمعا من المجتمعات لا تعدو أن تكون ازمة حضارية اي أزمة اختلال وسائل التنظيم والاستفادة من المعطيات الطبيعية للبيئة وتوجيه الطاقة البشريـــة لاستغلالها واستيعابهـــا .

وعند المقارنة بين المحاولتين او المنهجين . نلاحظ ان المنهج الاول يرتكز على المنطق الدينى ، اذ يعتبر الدين قوام الاصلاح والتوجيه ، ومناط التوفيق فى تحريك الفعالية الانسانية فردية واجتماعية نحو البناء والتقدم .

اما المنهج الثانى فيرتكز على المنطق العلمى ، اي انه منهج اجتماعى يعتبر التخطيط المادي والتنظيم الاداري ، والاخذ بالمنطق العلمى والاقتصادي والسياسى وتناول المشكلات الاقتصادية والاجتماعية ذات الاهداف القريبة

هو مناط التوفيق فى تحريك الفعالية البشرية وحثها على التقدم والعمـــل البنـــــــاء .

ويهمنا من هذين المنهجين الاصلاحيين امر واحد هو التمييز منذ وقت مبكر بين الدين والحضارة أو بين الدين والمدنية فى المجتمع الاسلامــــى الحديث . حيث تواجد فى العمل الميداني مفهومان للعمل الاصلاحى : مفهوم أول يعتبر مشكلة العالم الاسلامى أو العالم العربى الاسلامى منحصرة فى اطارها الحضاري ، من حيث يفسر تخلف المسلمين بعدم مواكبتهم للحضارة الحديثة ، والتكيف معها والاخذ بأسبابها . ومفهوم ثان يعتبر المشكلة ماثلة فى تراجع المسلمين عن الاخذ الدقيق بأحكام دينهم وأخلاقه ونظامه الالهــى الذي لا يمكن أن يعتوره نقص أو خلل . ولكن يعتور المسلمين ، ذلك من جهة تخليهم عن التمسك بأهدابه أو سوء تمثلهم له .

وكان لكل مفهوم تصوره الخاص لظواهر التخلف والضعف، كما كان له منهجه الخاص فى الاصلاح والتوجيه ، بل كان هناك نمطان من الوعى : وعى دينى يتحرك فى ضوئه هؤلاء . ووعى قومى وسياسى واجتماعى يتحرك فى ضوئــه أولئـــــــــك .

فماذا كانت مبررات هذا التمييز . وماذا كانت أسبابه ونتائجــه ؟ ؟

كانت مبرراته وأسبابه كامنة فى اتصال الشرق الاسلامى أو البـــلاد الاسلامية قاطبة بالغرب ، ووقوعها تحت السيطرة الاوربية . فقد رأى الكثيرون بأن الغرب استطاع أن يحقق الحضارة المثلى بفضل العلم واكتشاف قوانين التحرك الاجتماعى واستغلال الطاقة وتنظيم الانتاج ، وكانت هـــذه المدنية أو الحضارة الغربية فى نظر الجيل الاول من مفكري عصر النهضة فى العالم الاسلامي واقعا قائما ، ومنطقا صارما وعلما باهرا . بالرغم عـــن كونها لا تنطلق من أي عقيدة او دين أو تصور ميتافزيقى أو غيبى .

وكنا نحن المسلمين وقد اتصلنا بهذه المدنية أوج الاعتزاز بمنطقهـــا العقلى وعقيدتها فى التقدم البشري عن طريق العقل والتحرر من كل سلطان سواه طائفتــــين :

— طائفة متصلة بثقافة الاسلام وبتاريخه ، ترى فى الاسلام ارادة الله وشريعته المعبرة عن أكمل ما يجب لصلاح الانسان فى المبدأ والمعاد ، أي لصلاح الانسان فى دنياه وآخرته . ولا يصح بحال وضع هــــذه الحقيقة موضع المناقشة والجدال . وهذه الطائفة كانت تنظر الــى التجربة الاسلامية من خلال التاريخ الاسلامى نفسه لتجد فيها حــل مشاكلها الحاضرة وأزمتها الراهنـــة .

— وطائفة كانت متصلة بالثقافة الغربية وبتاريخ الغرب ، ترى فى تجارب أوربا خير مثال لمنهج التقدم والاصلاح ، وهذا المنهج هو اكتشاف القوانين الطبيعية التى يتحرك بها التاريخ وتتم بها المدنية الانسانية . وتحركت كل طائفة بوحى من ثقافتها تسعى نحو الاصلاح .

وواجه المفكرون الكبار امثال محمد عبده هذا الانقسام فى التوجيــه بين المنهج الدينى والمنهج المدنى فى الاصلاح . بل واجهوا هذه الحقيقة أو ما بــدا لهم انه حقيقة على الاقل : وهو أن العلم والنظام والقوة والتقدم الماثلة كلها فى الحضارة الغربية هى ما أراده الاسلام لمعتنقيه فى دعوته الى عمارة الارض ونشر الحضارة على دعائم العدل والعلم والنظام ، فكــان شعورهم حينئذ يزداد يقينا بأن الدين لا يناقض المدنية ، وأن تحقيق الاسلام وتحقيق الحضارة مطلبان متكاملان . ومنذئذ طفق أنصار هذا الاتجاه يكتبون عن الاسلام والمدنية وفى مقدمتهم محمد فريد وجدي فى كتابه « المدنية والاسلام » وبدأ الرد على أقاويل ومطاعن الشرقيين ومن لف لهم فى ان الاسلام يتعارض فى روحه مع المدنية كما هى دعوى « رينان » و « هانوتو » و « فــرح أنطون » كما بدات محاولات التوفيق بين الطرفين كما فعل انصار المدرسة التوفيقيـــــــة (3)

هذا اللقاء بين الشرق والغرب فى المجال الفكري فرض على المفكرين وهم يواجهون واقع المجتمعات الاسلامية ان يميزوا بين العقيدة او الاسلام كنظرية او كنظام وبين حركة التاريخ التى تخضع للقوانين التى تخضع لهــا الحضارات والمدنيات الانسانية كلها فى ازدهارها وخمولها ، نشاتهـــا واضمحلالها . وبهذا التمييز كانوا يضعون الاسلام بعيدا عن عوامل الانحطاط

نفسه . على أن هذا التمييز بين الدين والحضارة كان أمرا طبيعيا ومنطقيـا في مجال البحث والتحليـل .

لابد اذن من أن نميز بين أمرين : الدين الاسلامى فى صورته الكاملة ، كما هى ناطقة عن نفسها في القرآن ، محجة بيضاء ليلها كنهارها ، لا يضل عنها الا هالك وحركة التاريخ الاسلامى فى صورتها المتغيرة عبر العصور والاحقاب . وهذا التمييز بين التاريخ الاسلامى وحضارته وبين الديـن الاسلامى من حيث هو المثل الاعلى الذي تقترب منه حركة التاريخ وتبتعد ، وتتوازى معه أو تتقاطع ، تتكامل أو تنفصل هو أمر منطقى ، وطبيعـى ــ لاننا نقع من ذلك على حقيقة أساسية فى تاريخ الانسانية كلها وهى نسبة الثبات للتطور ، أو نسبة المتغيرات الى الثوابت فى الحركة الانسانية عامة . ومن من الناس يريد أن يثبت التاريخ البشري فضلا عن التاريخ الاسلامـى على نسق واحد ، فلا يعروه ما يعرو الامم من تأثير السنن الكونية ؟ ان الفكر الاسلامى نفسه نظر الى التاريخ نظرة موضوعية من خلال فكر ابن خلدون الذي فسر حركة التاريخ تفسيرا طبيعيا حيث لاحظ أن للدول أعمارا كأعمار الافراد وقوانين تحرك تاريخها الى أمد معلوم (4) . ومن هذه الزاوية نظـر الامام محمد عبده عندما ميز بين الاسلام بحقائقه وشريعته الموحى بها من الله ، وبين المدنية أو الحضارة التى تخضع لقوانين التاريخ والاجتماع . وكذلك صنع تلاميذه على اختلاف نزعاتهم . وقد قاد التمييز بين الحقيقتين هؤلاء وأولئك الى القول بأن أوروبا قد اكتشفت قوانين الحضارة الانسانية عن طريق العقل ، فاما الشيخ فاعتبر أنه لا تناقض بين الاسلام من حيث الجوهر وبين المدنية الحديثة فى لبابها ، ومن ثم سار الى أمد قريب أو بعيد فى عقلنة المفاهيم الاسلامية من خلال فتاويه وتفسيره للقرآن . وأما أشياعه فاختلفت طرائقهم فى طريق هذه العقلنة بين معتدل ومتطرف (5) .

— 2 —

هذه مقدمة وجيزة تضعنا فى لاحب من الطريق تجاه الموضوع ، فنحن نثير من جديد قضية الدين والحضارة من حيث ينظر اليهما أنهما ظاهرتان متميزتان ، وعلى هذا الاساس ينظر في تكاملهما وتطابقهما أو ينظر فـى

انفصالهما وانقطاع اسباب احدهما من أسباب الآخر ، وذلك على اساس تقويم الوضع الاسلامى الحدث في ضوء هذا التحليل وأحب أن أشير فى هذا الموضوع متخففا من كثير من المقدمات والدخول فى مناقشات لا مجال لاثارتها فى هذا الحديث القصير .

ما مفهوم الحضارة او المدنية (6) اذن ؟

اذا رجعنا الى المصادر الاوربية أو الابحاث الانثروبولوجية والاجتماعية التى قام بها المختصون الاوربيون وجدنا انهم يقررون بأن المدنية او الحضارة الانسانية هى نتيجة عمل الانسان نفسه ، حين يعمل وينتج ويبدع وينظم ويبنى ويشيد بالوسائل المادية وحدها ، وبوحى العقل وحده . فالانسان يحول طاقته المادية والعقلية الى مدنية ، ونحن نعلم أن الحضارات الانسانية هى ثمرة عبقريات الشعوب والامم والافراد ، نتيجة شروط موضوعية تتاح لهم فى الطبيعة ومناخها وخصبها كما يقرر ذلك وليام ديورانت صاحب (قصة الحضارة) (7) . وقد يختلف معه من يختلف فى تقدير البواعث والدوافع نحو انشاء الحضارة فيقول بنظرية التحدي والاستجابة (8) أو يقول بسواها ، ولكن النتيجة تبقى دائما هى هى ، أي أن الحضارة عمل مادي بأسباب مادية . الا أن الواقع يشهد بأن الحضارات الانسانية لا يمكن ان تخضع فى تفسير بواعثها ودوافعها لنظرية مادية وحدها او نظرية مثالية وحدها ، بل هى ثمرة عناصر مشتركة متداخلة ، متفاعلة تفاعلا جدليا لا يستأثر فيه العقل وحده أو الروح وحدها أو المادة وحدها بدور أساسى مطلق لا مجال معه لسواه .

نحن اذن أمام حضارات انسانية متعددة بتعدد الثقافات التى تمخضت عنها او نشأت فيها، لاختلاف الدوافع والنزوعات الروحية والعقلية وتفاعلها مع البيئة الطبيعية وشروطها المادية . ومن أجل هذا التمايز الثقافى الذي يعكس فى واقع الامر تصورات ومواقف فكرية ووجودية متباينة تسرى فى شرايين الحياة التى يحياها الناس ، فتنشأ حضارات مختلفة الطعوم والاذواق والنتاجات العقلية ، تتجلى فى الاداب والفنون والفلسفات التى تتمخض عنها كل حضارة . ولولا ذلك لكانت كل حضارة حركة مكررة او حركة شبه

بيولوجية ، يتماثل فيها كل قديم وجديد وغابر وحاضر على نسق معلوم ، بل لكانت الحضارات حضارة واحدة لا يختلف فيها سابق عن لاحق . والغريب اننا نجد اليوم من يزعم بأن الحضارة الغربية المعاصرة ينبغى ان تهيمن على حياة الامم كلها وتصبغهم بصبغتها بعد أن تخرجهم من كل صبغة أخرى ، فلا يكون هناك شرق ولا غرب ، وانما حضارة كونية شاملة تتخلى فيها كل امة عريقة عن أصالتها وتراثها .

واي بؤس اظلم من هذا البؤس حين تزول الخصائص والميزات التى تميز فردا من فرد وامة من امة ، او حين يحمل الناس على التنازل عن خصوصياتهم وما يميز آحادهم فضلا عن ان تحمل الامم والشعوب على ذلك. حينئذ يصبح الناس قطيعا واحد من الاحياء يحسون احساس الواحد وينفعلون على نحو واحد ، ويستجيب كل منهم بنفس القوة والدرجة لكل مثيرات الغريزة ونوازع العقل وهواتف الوجدان ، فآنت تنظر الى الكل ولا تبصر الا واحدا ، ويغنيك الواحد عن كل أفراد نوعه وأمته . ونحن لا نتوهم ان يحصل ذلك فضلا عن أن نجادل فى حصوله .

اختلاف الحضارات كاختلاف الامم حقيقة قائمة وضرورة لازبة لكن كيف ننفذ الى جوهر الحضارة لنستشف روحها ولبابها وخصائصها المميزة ؟ هل ننفذ الى ذلك من مظاهر الانتاج المادي ومظاهر التنظيم السياسى والاجتماعى ، ام ننفذ الى ذلك من مشاهد العمران وآيات العمارة والتشييد والبناء فى الاثار والهياكل والمتاحف ؟ ام ننفذ الى ذلك من خلال ما ينتظم حياة الناس من شرائع وقوانين ؟ ام كل ذلك قشور من ورائه لباب ومظهر ينطوي على مخبر ، فننفذ الى القيم والعقائد ، وما تنطوي عليه من منظور خاص الى الكون والحياة ودور الانسان فيها . وحينئذ ينبغى أن نبحث فى الاداب والفنون والقوانين والاعراف ، ذلك الخيط الرفيع الذي ينتظم كل شىء فى حياة الامة ويوجه اخلاقها ويوحى اليها بما ينبغى ان تناضل من اجله او تضحى فى سبيله وتسترخص الغالى والنفيس فى سبيل بقائه .

لا اريد ان اذهب مذهب التوغل فى التحليل ، وانما اكتفى بأن اخلص الى نتيجة تكون كالمقدمة لما نمضى اليه فى هذا الحديث ، فالحضارة نسق من

الحياة متكامل يتزيى بعدة مظاهر مادية واخلاقية ، يظاهر بعضها بعضا ، فتكون فى مجموعها نسقا مطردا من سلوك الانسان تجاه نفسه وتجاه الطبيعة والكون ، فيبدع وينتج ويتعاون ويحارب ويسالم من أجل هدف أعلى وقيمة قصوى ، لا يضعها موضع المساومة ، وعنها تنبثق كل القيم والمعايير فى الفـــن والمنطق والاخلاق والسلوك .

فالمظاهر المادية والروحية لكل الحضارات تقع على هذا التقابل ، وتنزل عند حكم الانتظام بهذا المنطق الصارم ، علت أو دنت ، ضاقـــت أو اتسعت اتصلت بغيرها من الحضارات أو انقطعت . لابد لكل حضارة اذن من نزوع نفسى معين أو نزعة روحية واضحة أو موقف ايديولوجى محدد ، سواء استمدت هذه المنازع من وحى الغريزة أو من وحى العقل أو من وحـــى الدين . وهنا تكمن عبقريتها وتتجلى خصوصيتها . وحينئذ تتمثل لك الحضارة بنيانا شامخا او متواضعا ، زاهيا بألوانه أو واضحا ببساطته ولكنه بنيـــان متماسك على كل حال ، أي خيط ناظم للمجتمع ، ومجتمع منتظم بتراثـــه واخلاقه وقيمه . ومن خلال هذا النظام والانتظام نستطيع الحكم على أي حضارة من الحضارات وتقويم منزلتها من حيث الشرف والضعة والاصالة والتقليد . بل نستطيع الحكم أيضا على كل مظاهرها المتعددة ومدى مظاهرة كل جانب من جوانب تاريخها الحضاري على اثبات اصالتها أو اثبات نقيضها . خذ الحضارة العربية الاسلامية التى تقوم على أساس من النظـــــام والانتظام اللذين يحكمهما حبل الدين الاسلامى تر هذه الحضارة بعد ان استكملت بنيانها واستوت على سوقها واستوسق لها الامر فى الشرق والغرب أخذت ما اخذت عن الامم ونبذت ما نبذت على اساس واضح واختيار واع بل تر هذه الحضارة سواء فى عمارتها او ادبها أو تجارتها أو تخطيط مدنها او نظام حربها أو سك نقودها وما تشاء من هـــذه الجزئيات تعكس مبدأ الوحدانية ، ومبدأ التوازن بين المادي والروحى ، اي مبدأ الوسطية التى تقرر رسالتها بين الامم ، وترسم خطها الحضاري بين الحضارات (9) .

« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » .

فكل هاتيك المظاهر في حقيقتها رموز تنطوي على أسرار توحي اليك بكل معاني التوحيد . والفن نفسه يتصل بالوحدانية وبمظاهر العقيدة، فيتجنب التمثيل المفضي الى الوثنية ومظاهر الشرك والانحراف الاخلاقي ، ثم يتكامل مع الحياة الاجتماعية السليمة في صوره واغراضه . وخذ اللغـــة العربية ، وانظر كيف امدها القرآن بهذه القوة الاعجازية التي يتحول بها الادب نفسه الى اعجاز بين الاداب ، ثراء في اللفظ ، وثراء في ضروب التعبير والمجاز ، ونظام صارم من النحو وانتظام على ترامي منـــــادح القول وضروب التعبير ، يكفي أن يصل البلاغيون في تعداد فنون بديعة الى اكثر من مائة نوع (10) . لغة لشدة اسرها تبدو مذهلة للعلماء ، فيعتبرها البعض توقيفا من الله ، أي وحيا من ضروب الوحي ، ويعتبرها البعض اصطلاحا ، ويضطرب البعض حين تتقاذفه الحجة من هنا وهناك فيشهد بتردده ولا يقضي منه العجب كما فعل ابن جنـــي (11) .

والخلاصة ان الحضارة كيان متطابق مع ذاته باجزائه ، ناظـــم لحياة الناس ، يصوغ أعمالهم وسلوكهم وتطلعاتهم في قوالب متجانسة . وقد استبان ان الحضارة لابد لكي تبلغ هذه الغاية من أن تنطوي علـــى دين أو ما يشبه الدين الذي يحدد قيمها ونوعيتها الشاملة . وقد اختلف فلاسفة الحضارة وعلماؤها في الغرب حول تحديد هذه النزعة الشاملة من حيث الاصطلاح ، فمنهم من سماها (النظرة الى العالم) ، ومنهم من سماها (الفكرة الدافعة) ، ومنهم من سماها (القيمة القصوى) ومنهم من سماها (المبدأ الناظم) (12) ، فكأنهم بهذه الاصطلاحات يحومون حول الدين بالمفهوم الذي نعطيه للدين ، فالدين الحق نظرة الى العالم وفكرة دافعة وعقيدة بناءة وينطوي في كل جزئية من جزئياته علـــى القيمـــــة القصوى المنشودة بين كل القيم ، وعلى المبدأ الناظم الذي يحيل الشتات الى نظام والركـــام الـــى بنـــاء .

ذلك شأن الحضارة في مفهومها وطبيعتها ومقوماتها . أما مفهوم الدين وتحديد مقوماته وطبيعته فأمر آخر قد لا يختلف في واقعه عمـــا قررناه أو ما لاحظناه في معنى الحضارة ولكن شاءت عقليات النـــاس وطريقتهم في التفكير أن تجعل من الدين او تنظر الى الدين على أنه شيء

آخر غير الحضارة . ومن هنا وقر فى نفوسهم ان الحضارة شىء والدين شىء آخر . واحب ان ابادر الى القول بان من الضروري توضيح مقصدي من الدين عند اطلاقه ، فالدين بمعناه الشامل العام لا يتمثل الا فـــى الاسلام . وتفصيل ذلك باب آخر من ابواب النظر والتحليل . وحسبى أن اشير الى ما قرره جيسوب (13) احد أساتذة الفلسفة وعلم النفـــس المعنيين بالظاهرة الدينية والذي كتب رسالة عن الدين انتهى فيها الى تقرير الخصائص الاساسية للدين الصحيح ، فحصرها فى الايمان بوجود قـــوة عليا هى مصدر الكون ، وفى اتصاف هذه القوة بالكمال المطلق والعلـــم المطلق والاستجابة للكائن الانسانى ، وهذه الخصائص على بساطتها لا تتمثل الا فى الاسلام وصدق قول الله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » فكل عقيدة سماوية مشمولة بالاسلام بغير احتياج الى استدلال : « مـــا يقال لك الا ما قيل للرسل من قبلـــك » .

فالدين اطلاقا لا يتمثل الا فى الاسلام ، الذي نسخ باحكامه ما نسخ من الشرائع السابقة ، وابقى ما ابقى ، وطهر عقيدة التوحيد ممـــا اصابها من التشويه والوثنية . وجاء ليتمم اخلاق الانسان . لكن هل يفهم الناس الدين على هذا النحو ؟ سننظر فى هذا الامر حسب ما يتسع لـــه المقـــــــام .

لقد ظفر الدين كظاهرة انسانية ببحوث العلماء والفلاسفة ، علـــى الرغم من ان نظريات العلماء والفلاسفة تبقى مجرد افتراضات وتفسير احتمالى فى جلها ، لانها لا تنفذ الى الحقيقة ، فالحقيقة فى الدين هى مـــا يعاش ويمارس لا ما يقال على سبيل الظن والتاويل . ومع ذلك ، اليس للعلم تجربته ، التى هى مقياس التصديق والتكذيب ، اليس العلم هو المتبجج دون سائر المعارف الانسانية بانه وحده يعتمد على التجربة فلم لا يلجا الانسان فى بحثه عن الدين الى التجربة نفسها ؟ لا نحب ان نثير هذا الموضوع ايضا فقد اثاره الفيلسوف المسلم الكبير محمد اقبال ، وانمـــا نريد ان نعترض علـــى المنهج العلمى فى بحث الدين ببعض قواعـــده نفسهـــــــــا (14) .

جوهر الدين فى رأي الباحثين من رجال الغرب انه عقيدة تنتهى اليها اسباب وجود كل شىء ، ويبرر بها وجود كل شىء ، وتستدعى عبادة الانسان على أساس ما تتصف به القوة الكونية التى ترتكز عليها تلك العقيدة من امداد للكون بالبقاء والاستمرار ، وما تتصف به أيضا من كمال مطلق بالقياس الى الكون . ذلك رأي الاستقرار والتتبع لظواهر العقيدة الدينية فى كل بيئة عرفت تلك العقيـــدة .

وجوهر الدين عندنا نحن المسلمين أنه التصور الوحيد الذى يعبر عن حقيقة الكون والحياة فى علاقتهما بالانسان ، وفى خضوع هذا الكون بكل ما فيه الى حقيقته الاولى التى صدر منها . وهو أيضا تحديد للتبعات التى يتحملها الانسان من حيث علاقته بالله باريء الكون ، وبالكون نفسه من ناحية أخرى . لم نعتبر هذا التصور هو وحده التصور الحقيقى ؟ لانه التصور الذي يقدمه لنا من يملك القدرة على تصور الحقيقة فى كليتهـــا وشمولها ، فاذا كان العقل يدرك أمورا ويعجز أمام أخرى ، فمـــا اجـــدره بأن يكف عن الادعاء بأنه مصدر المعرفة وحده . أما والحدس واللقانـــة والالهام فادراكات نسبية أيضا يطلع من خلالها الانسان على ما يقدر لـــه من الغيب . وهى ليست بالقوى العقلية الخاضعة للانسان ، يتصرف فيها كما يشاء ، بل تتاح له كالاشراقات التى تومض حينا وتنقطع أحيانا أخرى، فالانسان بحكم ما زود به من قوى عقلية ووجدانية ليس مصدرا للمعرفة الكاملة بمفرده ، ولكن بما يتاح له من وسائل أخرى . فلم يبق اذن مـــن مصدر للحقيقة الشاملة الا من صدرت عنه تلك الحقيقة . والديـــن هـــو تبليغ تلك الحقيقة عن طريق الوحى . فاذا كان الامر كذلك فما أجدر المؤمن بأن يسلم نفسه لتلك الحقيقة كاملة ويتلقى فيض اشراقها على نفسه ، ويحتكم الى احكامها راضيا مختارا وهذه حقيقة الاسلام . ولهذا يخاطب المسلم فى القرآن عند كل حكم من الاحكام بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا . . .) فالقرآن يذكر المخاطب فى كل لحظة بأنه مؤمن سلفا بالحقيقة الشاملة التى يتفرع عنها كل حكم ، والا لما كان هناك معنى لخطابه بالامر والنهى والحلال والحرام وما بين ذلك من مراتب الندب والاباحة . فعلى المسلم المؤمن ان يعتقد بأن خطاب الله هو فى منتهى القوامة والسداد

والملاءمة لطبيعته البشرية (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ومن ثم خاطب القرآن كل انسان على وجه الاستغراق بأنه وحده يهدي الى الحقيقة . (ان هذا القرآن يهدي للتى هى اقوم ، ويبشر المؤمنين . . .)

ثم تأتى أحكام العبادات والمعاملات جارية كلها على نسق واحد تنتظمه عقيدة التوحيد وتستهدف استخلاف الانسان فى الارض وتنشد له كفالة استقامته لتحقيق المثل الاعلى من وجوده وهو التكامل مع قوانين الكون وطبيعة الحياة التى هى مراد العبادة فى قوله تعالى : ((وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)) .

اما القصد من الدين ان جاز ان يطلب قصد آخر اكثر مما اسلفنا فهو تنظيم حياة الانسان بما تقتضيه طبيعة حفظ كيانه وضمان سعادته وذلك عن طريقين :

1) مخاطبة الانسان بأمور لها تأثيرها على مصيره وسعادته ، وهو يعجز عن الوصول اليها بعقله لانها تتجاوز حدود العقل ، فهو يخبر بها ويطالب بالاعتقاد او الايمان بها عن طريق الاستبصار وعن طريق الاعتقاد ، ان هو عجز عن الاستبصار . وذلك كحقيقة البعث التى لا يمكن للعقل أن يدركها بمنطقه الخاص ولهذا الح القرآن على هذه العقيدة وهو يعلم أن الناس يمارون فى شأنها الى ابعد حدود المماراة ، لانهم يحتكمون الى عقولهم فى شأنها . وكحقيقة الوحى والنبوءة ، التى الح القرآن عليها ايضا ، لانها مصدر الاستدلال على كل شىء من امر الاحكام الشرعية .

2) والطريق الثانى مطالبة الانسان باعمال عقله وقواه الادراكية فى المجالات التى يستطيع ان ينتهى فيها العقل الى حقيقة من الحقائق او منفعة من المنافع . وعلى هذا الاساس خوطب الانسان فى القرآن بان ينظر فى ملكوت الله ، اي عالم الطبيعة . وان ينظر فى القوانين الطبيعية وظواهرها ، وان ينظر فى حركة التاريخ البشري وما يشتمل

عليه مجال الطبيعة ومجال التاريخ من حقائق ، للانسان ان يقول فيها كلمته لو استعمل المنهج الصحيح . القصد من الدين اذن تنظيم للحياة عن طريقين الوحى والعقل ، على أن يتكامل العنصران . واذا جاز القول ، بأن العقل يصنع المدنية ، وينشىء الحضارة فانه يجب القول بان كل حضارة يصنعها العقل ويوجهها تبقى ناقصة اذآ لم تكتمل بشريعة الوحى . وهذا هو موقف الاسلام من كل حضارة غابرة او حاضرة . وبهذا المعنى جاز لنا أن نقول ان الدين الصحيح هو نواة الحضارة الحقيقية ، ثم يأتى العقل فيخطط ويبدع ويملأ الاطـــار الحضاري بنتاج القوى العقلية والوجدانية والمادية فيتقرر بذلـك النظام فى اطار الحضارة والانتظام معا ، ويتكامل ما يصدر عن العقل وما يصدر عن الحدس وما يصدر عن البصيرة وما يصدر عن الوحى فى مجال واحد هو المدنية التى تعمر الارض وتحقق التوازن بيـن مطالب الجسد والروح . وبهذا ندرك كيف يتكامل الدين والحضـارة تكامل اتساق وانسجام وتجاوب .

اذا عرفنا طبيعة الحضارة على نحو ما تقدم ، كما عرفنا طبيعة الدين ايضا . ونحن نعنى الدين الاسلامى وحده ، لانه الموصوف بالشموليـة والتكامل كما نعلم جميعا ، وربطنا بين الدين والحضارة على اســاس التكامل بينهما امكنا أن نستنتج أن هذا التكامل هو صورة التوازن الذي ينبغى ان تنهض عليه حياة الفرد والجماعة . وان كل حياة انسانية تخلو من احدهما هى اشبه بالعدم أو الفوضى ، فحياة مادية صرف بدون نظام يوجه سلوكها نحو غاية عليا أو قيمة قصوى ، أو انتظام لقواهـا المتعددة ونزعاتها المختلفة وغرائزها المتصارعة هى حياة آيلة الى الفوضى والصراع والخوف على النفس . وحياة روحية مجردة فاقدة للتوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح هى حياة خـواء .

ولسنا نتصور ان يكون التكامل بين الدين والحضارة ، خلوا بالمرة من كل صراع بينهما . اذ لابد فى كل حياة حضارية رفيعة او كل حيـاة دينية عالية من معاناة للصراع بين المادة والروح ، يتجاذب سلـوك

الانسان . ولابد لاحدهما ان يسلم نفسه للاخر فى مجال ، وان يتحكم فى مجال آخر ، وهذه طبيعة الحياة ، ولكن العبرة ان يسود الاعتدال بين الدوافع والرغبات وان تتحقق انسانية الانسان فى استمرار نوعه واثراء حياته وتذليل سبل عيشه وابعاد كل عوائق تقدمه وتطوره ، وفى عبادة ربه وتحقيق رسالته على أرفع وجـــه ممكـــن .

وفى الحضارة الاسلامية — فى بعض مراحل تاريخها — نموذج لهذا التوازن او التكامل بين الحضارة والدين ، وبفضل هذا التوازن والتكامل استطاعت هذه الحضارة ان تكون حضارة عالمية وسيدة للحضارات فى حقبة من تاريخ الاسلام ، ازدهرت فى ظلها الحياة الاقتصادية ، وعـــم السلم والرخاء ، وازدهرت الحياة العلمية كما ازدهر العلم التطبيقى فى مجال الطب والصناعة والحرب والملاحة الى جانب ما حققت من أخـــلاق رفيعة ، ونجذات خالـــدة .

— 3 —

لم توقفت اذن مسيرة التوازن أو التكامل بين الحضارة والدين فـــى التاريخ الاسلامى الى ان وقع العالم الاسلامى حديثا فى هذا الصراع الدائر بين دينه الذي كان نواة لنشأة حضارية عظيمة ، وبين حضارة الانســـان المعاصرة ؟ لم وقع الصراع بين الثبات والتطور ؟ هل خان التاريخ عهده ونقض وعده أم خان المسلمون عهودهم ونقضوا ما أبرموا من أمـــور دينهـــــم ؟ ؟ .

ليس لى فى هذه المحاضرة ان احلل هذه الاسباب ، ولكن احب ان اقتصر على التاكيد بان ازمة الصراع الحضاري فى العالم الاسلامـــى الحديث ازمة ما زال الباحثون يكتبون عنها ويحللونها فى ضوء مـــا يتبنونه من مناهج وايديولوجيات . ومما لا شك فيه ان هذه الازمة ناشئة عن صراع تاريخى بين الشرق والغرب ، كانت الحروب الصليبية من بعض حلقاته ، ثم كانت حركة الاستعمار الاوروبى لاقطار الاسلام نهايـــة لتلك الحلقات فى نظر الغرب ، وان الاستعمار هو الذي اصاب العالم الاسلامى

بكل هذه الادواء والازمات التى يتخبط فيها ، ولكن قابلية العالم الاسلامى نفسه للاستعمار وضعفه امام الغزاة وتهافت أمره وانهيار مؤسساتــه وعقم عقوله وجمود طاقاته كل ذلك كان أمرا نابعا من كيانه فـــزاده الاستعمار تفاقما ، فاضاف خبالا الى خبال وعجزا الى عجز .

ويكفى القول بان هذه الازمة انما تمثل توقفا حضاريا من ناحية واكبه غزو حضاري جديد من ناحية أخرى . وهذا الغز وهو الذي نقل الناس من أفق الى أفق ، ومنمدارالى مدار ، مع حفاظهم على الارتباط بالمدار الاصلى لحضارتهم ، فمنذ نهاية القرن الثامن عشر أخذ العالم الاسلامى يتصل بالحضارة الغربية ، وبدول الغرب القوية الغازية . فكان يقع تحت تاثير سلطانها السياسى ونفوذها العسكري وغزوها الفكـري والحضاري . وأخذ المسلمون يتحركون مع حضارة جديدة تنطلق باسم العقل والتقــدم والتطور ، وهم الذين كانوا يتحركون مع حضارة تنطلق باسم الوحى أو باسم الدين فكان التحدي الاول والاكبر بين الحضارتين يعنى الصــدام بين روحين وطابعين ، روح الاسلام وطابعه الالهى وروح الحضــــارة الغربية وطابعها المادي (15) .وقد نشأ عن هذا الصداع ازدواجية يطبعها التوثر فى الشخصية الاسلامية المفكرة ، ويطبعها التلفيق والتردد والتجاذب بين القطبين الحضاريين فى كثير من الاحيان . واذا كانت عامة الجماهير الاسلامية ما زالت ألصق بحياتها التقليدية ، مستجيبة لتقاليدها الدينيلا متشبثة بعقيدتها ، فان هذه العقيدة قد فقدت فعاليتها الدافعة وقوتهـــا الخلاقة فقبعت من وراء التخلف تبرره فى تواكلية وجبرية قاهرتين . أمـــا الخاصة من المسلمين فانها تعانى من هذا الصدام والتحدي الحضاري ازدواجية من نوع آخر ، هى ازدواجية الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية . فتجد المسلم المثقف فى أحسن الاحوال يضمر العقيدة الدينية ويعطلها فـــى سلوكه اليومى . يعجب بتراثه الاسلامى وينقاد للغرب ، ويتيه فى ركام من التحليل لاوضاعه لا ينتهى منها الى نتيجة . وقد تعثر على طائفة تدعو الى مقاطعة الحضارة الغربية واعتبارها جاهلية القرن العشرين ، بينما تعثر على طائفة أخرى تدعو الى نقيض ذلك ، وتؤمن بالغرب ايمانا مطلقا ، وبضرورة الاندماج فى حضارته الكونية الشاملة .

ويوازي هذه الازمة النفسية والفكرية انهيار شامل فى المؤسسات الحضارية الاسلامية ونظمها ، الى حد أن الفقه الاسلامى توارى أو كاد يتوارى الا من مجال الاحوال الشخصية . فالبنية السياسية لكل المجتمعات الاسلامية الحديثة تقاس قيمتها بمقدار اقترابها أو تمثيلها للنظم السياسية الاوروبية ، والبنية الاقتصادية تقوم على التسليف والتأمين بالفائدة والنظام الربوي ، فاذا انتقلت الى العادات والتقاليد راعك هذا التطور بين جيل وجيل ، بحيث تحطمت كل الجسور لالتقاء الاجيال فى المجتمع الاسلامى المعاصر واذا نظرت الى الفنون والاداب وجدت كل شىء فيها تنسخه مظاهر التأثر بالغرب فى فنونه وآدابه من بناء ((الفيلا)) الحديثة الى قصيدة الشعر الحر أو الشعر المنثور . والنتيجة أن البنية الحضارية الاسلامية والبنية الثقافية توقفتا فى النمو وجمدتا ، ثم تجاوزتهما الحياة الحديثة وفككت أوصالهما .

الازمة التى يعانيها المسلمون حاليا هى فى صميمها ناتجة عن اختلال التوازن بين حاجاتهم ووسائلهم ، بين عقيدتهم وقانون التطور ، بين واقعهم وبين ما يطمحون اليه . ولو أنه تقاربت هذه الاطراف فى معادلة جديدة لاكتشفوا من جديد طريقهم نحو القوة والازدهار ، وهكذا نلاحظ أن التناقض بين العقيدة والتطور ، أي بين دينهم وطبيعة الحركة التاريخية هو وجه بارز من وجوه تلك الازمة . وهذا الوجه هو الذي حاولنا أن نحدد بعض المفاهيم الاساسية المتصلة به . وبقى أن نتحدث عن سر هذا التناقض الذي وقع بين طبيعة الدين وطبيعة الحضارة فى الحياة الاسلامية المعاصرة .

الواقع أن هذا التناقض ناشىء من امرين . الامر الاول هو التباين بين طبيعة الاسلام وبين طبيعة الحضارة الغربية . وهو امر لا يحتاج الى بيان او شرح . فهذه الحضارة ترتكز على اسس مناقضة فى كثير من المواطن للاسس التى يرتكز عليها الكيان الحضاري فى تصور الاسلام ، فلا عجب أن يظهر هذا التناقض ويهز الحياة الاجتماعية للمجتمع الاسلامى غداة اتصالنا بالغرب واقتباسنا منه ، وانفعالنا بتياراته ، ووقوعنا تحت طائلة غزوه الفكري . فالحضارة الغربية اليوم حضارة مادية ، لا اعتداد

لها بالقيم الروحية ولا نظرة لها للانسان من حيث هو كائن مستمر بعد الموت ، وانه محاسب على أعماله ملاق ربه . وهى حضارة يطبعها التطور الذي لا يعرف المحافظة على شىء ، ولا يعتد بغير الخصب المادي والتقدم الآلى ، فهى تفتقر الى هذه القيم الروحية ، والمبادىء الثابتة التى تضع الحياة الانسانية تجاه حقيقة اعلى من الحياة الدنيا ، وأبقى وادعى الى الاطمئنان . ومن ثم أصيبت هذه الحضارة بالتورم المادي ، فهى لا ينقصها العلم ولا ينقصها المال ولا ينقصها الانتاج وانما ينقصها الامن على النفس وينقصها السلم بين الافراد والجماعات ، وينقصها الايمان بالمطلق ، اي الايمان بالله وما يتفرع عن هذا الايمان من حقائق واحكام . فاذا أقبل المسلمون على هذه الحضارة وارادوا الاندماج فيها ، ومظاهرتها على التقدم ، ومشاركة اهلها فى عقائدهم ونوازع حياتهم اضطروا الى التخلى عن كل القيم التى يفرضها دينهم فى سبيل التكيف معها ، بل اضطروا الى التضحية فى سبيل ذلك باعز ما يملكون ، وهو آصالتهم ومقومات كيانهم الحضاري وشخصيتهم الوطنية والتاريخية .

اما الامر الثانى فهو سوء فهمنا للدين وللحضارة او ضيق هذا المفهوم بحيث يوقعنا فى تصورات خاطئة وعجز مزمن عن الملاءمة بين عقيدتنا وواقعنا . وذلك اننا نتورط فى مدركاتنا فى كثير من الآفات التى توقعنا فى الخطا والانحراف فنحن — مثلا — نخضع فى جل مدركاتنا لطبيعة الحس الذي هو صلة الوصل بيننا وبين العالم الخارجى ، فعن طريق الحس نعى وندرك ونؤول ما نعى وما ندرك الى افكار ومفاهيم، وما من فكرة او تصور الا وتجد فيه شيئا كثيرا من كثافة الحس والمحسوسات قبل ان تجد فيها المعنى المجرد المقصود ، وهذه آفة ، وآفة اخرى تعرو او تصيب ادراكنا ، وهى اننا لا ندرك من الاشياء المعروضة للعقل او للوعى الا ما نريد ان ندرك ، فنحن نواجه الظواهر المادية نفسها بهذا الاسلوب ، فنبصر منها جوانب ونعمى عن جوانب ، نستبقى امورا وننبذ امورا اخرى هذا النبذ لطائفة من المدركات والحقائق والابقاء على اخرى يحددهما وعى موجه بارادة سابقة للوعى نفسه . ولذلك ننتهى فى ادراكنا الى علم ناقص ، ومعرفة يشوبها الجهل ، وخير مثال على ذلك ادراكنا لطبيعة الدين وطبيعة الحضارة . فنحن ندرك من الدين مثلا ما يخص

المحسوسات ، من الاحكام المتصلة بالامر والنهى ، والعبادات المشخصة بالحركة والعمل الحركي ونحن ندرك من الدين أولا ما يحرمه ويمنعه ، ويحول بين غرائزنا وحاجاتها ، وعلى هذا النحو نتصور الدين قيودا وحدودا وحرمانا فى كثير من الاحيان ، ولا ندرك فيه المعانى الروحيــة والقيـــم المجردة ، والانضباط الارادي ، والاتزان بين نــوازع الغريــزة وحــدود الفضيلة . ونحن اكثر من ذلك لا ندرك الدين فى شموليته وتكامله ، بل ندركه بصورة مجزاة ، او على هياة مفككة الاوصال . وهذه النظرة التجزيئية هى التى تجعلنا لا نربط بين المقاصد والغايات وبين الاحكام الشرعيــة وحدودها . وعندما يختل فهمنا وادراكنا الى هذا الحد يفقد الدين او الشعور الدينى فعاليته ويتحول الى طقوس وقشور ، وتتسرب اليــــه الاوهام والطفيليات ، فيباعد بيننا وبين حقائق الحياة التى نحياها .

ومثل ذلك يقال عن فهمنا وادراكنا لطبيعة الحضارة . فنحن نلمس الحضارة اكثر مما نعقلها ، ونستمتع بها اكثر مما نفكر فيها ، لهذا تتمثــل لنا الحضارة الغربية مثلا تاثيثا وعمرانا وآلات ومخترعات ، واقبالا علــى الرفاهية ، أكثر بكثير مما تتمثل لنا ابداعا وفنونا وفلسفات ونظما للتفكيــر ومناهـــج للعمــل .

من خلال هذا التطور المادي والجزئى لمعنى الحضارة او لمعنــى الدين ماذا يبقى من حقيقة للدين او للحضارة فى نظر معظم الناس ، ولا اتحدث هنا عن الخاصة التى تحسن الفهم وتحسن الادراك ؟

يبقى من ذلك هذا التصور الغوغائى ، الذي يعتبر الدين زهدا فى الحياة وفرارا منها واغراقا فى النسك والعبادة وحرمان النفس من اطايب العيش ومباهجه والذي يعتبر الحضارة اقبالا على الدنيا واغراقا فى متعها وجريا مع التطور انى حطت ركابه . ومن هذا التصور يصبح الدين نقيضا للحضارة ، لانه يجرد حينئذ من شموليته وتكامله ، وتصبح الحضارة نقيضا للدين ، لانها تجرد حينئذ من دوافعها الروحية وقيمها العقلية .

— 4 —

وننتهى من ذلك الى تشخيص ازمة الشعور عند المسلم المعاصر الناتجة عن الشعور بأن الدين والحضارة معنيان منفصلان وظاهرتان متمايزتان . فهو يجهل شمولية الاسلام وتكامله اللذين يصبح الاسلام معهما قوة محركة واساسها مكينا لقيام أي حضارة انسانية متوازنة ، وهو يجهل الحضارة التى يعيشها ، ولا يدرك منها آلا القشور ، والاشياء المثيرة للخيال او المثيرة للغريزة ، وينتهى الى تضييق نطاق الحضارة ، والى جعلها مناقضة لكل اتجاه روحى ، ثم يتأرجح بين القطبين : قطب الدين كما يتصوره . والحضارة كما يتصورها .

ولقد اشرنا من قبل الىأن الحضارة الحديثة فى قيامها على العلم وسيادة القانون الوضعى ، وآلاخذ بالعلمانية مناقضة بطبيعتها للاسلام فى مواطن متعددة . ولكن المسلم المعاصر يتحرك مع هذه القيم ، ويخضع لمنطقها فى حياته اليومية راضيا او ساخطا مع شعوره العميق بأنه يعطل فى السلوك اليومى وفى التكيف مع الحضارة القائمة كثيرا من القيم التى تفرضها عقيدته ويفرضها دينه . وهكذا تتخلص الازمة النفسية فى معادلة واضحة تهيمن على حياتنا (دين بلا امتداد حضاري + وحضارة بلا امتداد روحى) ، اي ان المسلم يؤمن بدين لا يجد من مؤسساته الحضارية حوله شيئا ذا فعالية . اللهم ، الا المساجد المزخرفة كأنها متاحف ، فهو يخضع اقتصاديا واجتماعيا واخلاقيا لقيم العصر وتقاليد الحضارة الاوربية ولا سيما فيما يتصل بسلوك المراة واختلاطها وعريها وانماط التعليم التى يتلقاها ابناؤه ، وضرورات التعامل مع الحياة الاقتصادية ومؤسساتها ونظمها ، ما وافق منها تعاليم دينه وما خالف منها تلك التعاليم والاحكام ، كانتاج المحرمات والمتاجرة بها ، والتعامل بالنظام الربوي ، وما الى ذلك ، فهو يخضع لحضارة لا مكان فيها للقيم التى آستقرت فى وجدانه الدينى ، لانها حضارة يقاس فيها الانسان بمعدل دخله السنوي ، واستهلاكه للانتاج الترفيهى . ولا مكان فيها للافضلية بالتقوى والامانة وشرف النفس . وتلك غاية الانفصام الذي يمكن ان يقوم بين حضارة مادية متحركة حركة عشوائية غرائزية وبين عقيدة روحية

تعمق الاحساس بانسانية الانسان وكرامته . والنتيجة التى تنعكس علــى مجتمعنا الاسلامى من هذا التجاذب بين قطبين هو التمزق فى شخصية المسلم وعقم ملكاته واستلاب عقله وشلل ارادته .

قد يعترض معترض بأن هذا الانفصام بين الحضارة والعقيدة متحقق بنفس القوة ونفس الحدة عند الغربيين انفسهم بناة هذه الحضارة وأربابها . فلم لم يصابوا بالتمزق والعقم والاستلاب . بل نرى حضارتهم ماضية فى طريق التقدم موفورة القوة موصولة الاسباب بالنماء والتطور . ولست فى حاجة الى ان ابين المغالطة القائمة فى هذا الاعتراض . فالمجتمع الاوروبى مجتمع مسيحى رغم فصل الدين عن الدولة ، فهذه الدول أو الحكومات اللا دينية فى اوروبا تبذل كل جهد فى احترام المسيحية وحماية مذاهبها فى الخارج . « فانجلترا حامية البروتستانية وفرنسا حاميــة الكاثوليكية بــل راعية التبشير بها خارج اوروبا . كلها فى آسيا وافريقيا . وليست حمايــة هاتين الدولتين للمسيحية على هذا النحو فحسب وانما حمايتهما للمسيحية كما يتمثل فى صون العقيدة وفى التبشير بها فى آسيا وافريقيا يتمثل ايضا فى مطاردة القوى الروحية التى تقف فى طريق التبشير بها فى آسيا وافريقيا يتمثل على وجه اخص فى مطاردة الاسلام فى هاتين القارتين (16) . وهذا يعنى أن العلمانية فى اوربا اسلوب للعمل تتيحه طبيعة المسيحية نفسها لقيامها على الجانب الروحى وحده أما الذين كفروا بالمسيحية وبكل عقيدة دينية فقد استبدلوا منها ايديولوجيات تقوم لديهم مقام العقائد .

والثانية أن هــذه الحضارة ليست خالية من التورم والانحـــلال والتناقض والقلق . قلق الانسان على مصيره ، وقلق الدول على مصيرها بين القوى الكبرى فى العالم ، بعد ان تحول العلم الى سلاح يصـــدر لارهاب الشعوب والافراد . وبعد ان تحول الانتاج الصناعى الى صــراع بين الدول النامية والدول المنتجة ، بل تحول الى صراع طبقى داخل الدول المنتجة نفسها . ومع ذلك فالانفصام الذي يعانيه الاوروبى هو اقل حدة بكثير مما يعانيه المسلم ، لان الاوروبى لا يتردد بين قطبين للحياة : المادة والروح ، ولا بين قطبين فى التشريع : احكام الوحى واحكام العقل ، ولا

يتردد بين أخلاقين تبعا لذلك ، وحضارته رغم خلوها من هذه القيم الروحية متصفة بالفعالية والنظام والتطور ، وهذه القيم تملأ حياته بالحركة والانتاج والاستهـــــلاك .

وبعد ، فما علاج ازمة العالم الاسلامى الحضارية ؟ ان علاج هذه الازمة كامن فى حقيقة بسيطة وهى تكامل الاسلام مع حضارته ، وذلك بان يستعيد المسلمون قدراتهم على الابداع ويفتحوا أمام انفسهم ابـــواب الاجتهاد ، ويعيدوا للمؤسسات الحضارية روحها وحيويتها ، واذا مـــا اقتبسوا مـــن الحضارة الحديثـــة بعض أشكالها ومنجزاتها ومناهجهــــا ومؤسساتها جوهروه بجوهر الاسلام ، وطبعوه بطابعه ونبذوا منه مـــا نبذوا وابقوا منه ما ابقوا على هذا الاساس وحده . وهو ان الاسلام يجب ان يبقى المبدا الناظم لكل شتات ، والمحور الذي ينتظم كل فعـــل وسلوك وموقف وابداع . وبذلك يستعيد الاسلام فعاليته ومؤسساتـــــه الحضارية ، فيستقطب حياة الناس وسلوكهم حول قطب واحد هـــــو عقيدتهم وحينئذ يدور كل شىء فى حياة المسلمين حول قطب واحد فيبرؤون من التمزق ، ويتحررون من الاستلاب وينتجون بعد عقم . بل يخرجون بذلك من هذا المدار الحضاري الذي يمزقهم او يذهب باصالتهم . لانهم لا يتحركون حوله الا حركة عشوائية لن تنتج مهما طال امدها ، ويعودون الى مدارهم الحقيقى حول مبدا يتجاوبون معه ، لانه صادر من ذاتيتهم ، ومعبر عـــــن خصوصيتهم بين الامم والشعوب ، وحينئذ يتصورون الدين والحضارة هذا التصور السليم ، وهو ان الدين روح دافعة ونظام ضابط ، وأن الحضارة تشخيص لتلك الروح وانضباط مع ذلك النظام ، فلا دين بلا حضارة ولا حضارة بلا عقيدة تمثل النواة التى تنتهى اليها كل شرايين الكيان الحضاري كما تجتمع فى القلب كل شرايين الجسم . ولعله فى علاج الازمة على هـــذا النحو اقتراح ضمنى لعلاج ازمة العالم كله ، لو صدق المسلمون فى اظهار دينهم علـــى حقيقتـــــه .

فاس محمد الكتانـــى

هــوامـــــش :

1) انظر عن هذه الحركات الاصلاحية باجمال :

ــ فصل الدعوات ونهضات الاصلاح من كتاب الاسلام فى القرن العشرين للعقـــاد ص 172/96 .

2) انظر مثلا كتاب : الثورة العقائدية فى الشرق الاوسط ليونارد بايندر . وتعريب خيرى حماد . والفكر العربى فى معركة النهضة . للدكتور أنور عبد الملك ولاسيما الفصـــل السابع (الفكر العربى السياسى) من كتاب القومية العربية للدكتور حازم زكــى نبيه. وكتاب (عرب معاصرون) للدكتور مجيد خدورى .

3) انظر كتابات محمد عبده . ولاسيما فى رده على فرح انطون وهانوتو . (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) المجلد الثالث ص 243 / ... تحقيق محمد عمارة

وانظر ايضا كتاب الفكر العربى فى عصر النهضة لالبرت حورانى ولاسيما فصـــل (الاسلام والمدنية الحديثة) . ص 198 / ..

4) انظرخاصة : العصبية والدولة للدكتور عابد الجابرى . فصل الدولة وتطورها ص 320 وابن خلدون لايف لاكوست . فصل (صيرورة الدولة) ص 116 من النص المترجم .

5) اقرأ عن مدرسة المنار ــ وهى التى حملت مبادىء الاصلاح عن محمد عبده ــ وعــن رجالها . كتاب (الاسلام والتجديد فى مصر) . لتشارلز آدمس تعريب عباس محمود .

6) ناخذ هنا بمفهوم المدينة باعتبارها جزءا لا يتجزأ من مفهوم الحضارة . والمتفق عليه عند المختصين ان المدينة فترة خصب عارضة للحضارة فى أوج اكتمالها تتميز بالتزايد المكمن للمحتوى الفكرى والمنجزات المادية . انظر خاصة كتاب الدكتور محمد رياض عـــن الانسان دراسة فى النوع والحضارة . ص 173 .

7) انظر مقدمة الكتاب خاصة (المجلد الاول) باب (عوامل الحضارة) .

8) نقصد نظرية العلامة أرنولد توينبى . انظر كتابه : (مختصر التاريخ) الجـــزء الاول ص 99/1 .

9) للمستشرق فون غروباون نظرية بخصوص تكامل الحضارة الاسلامية باعتبارها دائـرة مغلقة تاخذ كل فاعلياتها ومنجزاتها الابداعية والثقافية والمادية معا طابع التناســـق والتكامـــل .

10) ننظر الى كتاب (البديع فى صناعة الشعر) لابن أبى الاصبع الشاعر المصرى المتوفى سنة 654 هـ والذى عرف باسم (تحرير التجبير) والذى بلغ فيه المؤلف الى استخراج زهاء مئة وعشرين لونا من الوان البديع .

11) انظر كتابه الخصائص . الجزء الاول ص 40 .

12) انظر فصل (توام الحضارات) من كتاب فى معركة الحضارة للدكتور قسطنطين زريق . ص 111 . ولاسيما صفحات 131 ، 132 حيث يورد مصطلحات مختلفة لفلاسفة الغرب تحوم كلها حول هذا الغرض . امثال مشبجيلر . ونور ثروت وسوركين وهو يحيل على كتاب يلخص كل هذه المواقف بالانجليزية للعلامة سوروكين .

13) انظر خاصة كتاب العقاد . (عقائد المفكرين فى القرن العشرين) . فصل (ما هى العقيدة الدينية ؟) ص 17 .

14) انظر كتابه : تجديد الفكر الدينى فى الاسلام وانظر خاصة رأيه بصدد الصراع بين الدين والحضارة كما واجهه المسلمون والنصارى . ص 16 .

15) انظر كتاب الدكتور حسن صعب (الاسلام تجاه تحريات الحياة العصرية) ص 9 وما بعدها .

16) انظر فى تحليل ذلك كتاب الدكتور محمد البهى : الدين والحضارة الانسانية ص 16 ؟ من سلسلة كتب الهلال .

م . ك

إنسانٌ مبتكَرٌ (1)

محمد الصباغ

من هنيهة مقفاةٍ ولهـــى ، تدفقـــتَ ، فاستوعبـــتَ كليـــةَ الزمـــنِ الشعـــري الحاضـــرِ المِرنـــان .

فى صباحك الفائز ، خرجت « اشبيلية (2) » من رفيـــف محارةِ الزمن المعتق ، فتاة من زخرفِ التاريـــخ ، متألقـــة ، متبرجة ، مسكونة بالدهشة والانبهار ، وانسابت حافيةً نحو الأمداءِ البعيدة ، والمرافىء المهجورة ، تفرغ فيها لألأةَ بحيـــرةِ

---

1) **بمناسبة فوز الشاعر الاسباني فِيثِنْطِي الِكْسَنْدِري بجائـــزة نوبـــل للآداب 1977 ، بعث اليه صديقه الكاتب بهذه التهنئة مترجمـــة الى الاسبانية . انظر (الاعلام الثقافي) فى هذا العدد .**

2) **مسقـــط راس الشاعـــر .**

مدادك ، ونصاعةً أصابعـك : فعالمُـك الفردوسي المشـوق ، مهْوى الأَفئدة ، ومسْرى المـدى المسحور . و « اشبيليـة » شراعٌ يمد أَشرعةً تبحر ببوارق يراعك ، ولوامـع خاطراتك ، وخلاصةِ أَزمنة إِلهامك : تسريحةً تحت ضوء قمر ، أَو نزهـةً فى نصاعة جِيدٍ جميلة ، أَو رحيلاً أَخضر عبر الوهم والمنتهى .

من هنيهةٍ مقفاةٍ ولهى ، تدفقتَ ، فاستوعبتَ كليـةَ الزمنِ الشعري الحاضر المِرنان ، بأَبعاد قوافى جداوله ، وعندلات أَيكاته ، وهواجسِ مراياه ، حتى قفيتَ ما يصعب تقفيتـه : فالسنونُ الجهمُ رفةُ حرير ، والغمرُ الهولُ ملمسُ حفيـف ، وأَحراش الكونِ لهْوُ ريشةٍ بمزهر ، ولأَمُ المحال قافيةُ منـالٍ سـكـرى .

منذ وعيتك ـ وإِحساسى بك المسترسل فى خفقـات المهجة ، ولفتات المقلة دفقـات أَصائل وأَصبـاح ، إِلى هـذه الهنيهة التى أضفر فيها فطنتَك وأَلمعيتَك إِكليلَ غار ـ وأَنـا أَترسم خوارقَك ، قافيةً . . . قافيةً . . . فأَترقب فى كل حين ، دوي انفجار اسمك من الأَجراس هنا . . . وهناك . . .

ترقبتُه ، حتى هَمَى علي ، فتشتـتَ أَبجديـةَ مجـد ، وهِجاء نصر ، فإِذا بى أَتلمس عالَمك البنفسجى عاريـاً مـن

أَوراقه يحبو رضيعاً ، وأَتلمس زمنَك الشعري متجرداً مــــن أَقماطه ينزلج ذوبَ شعاع ، وسحيقَ رؤيةٍ ورواء .

فكل ما حفظتُه ــ عن ظهــر قلــب ــ من نــزواتــك ، ونواميسك ، وحفيفِ نصاعتك ، وهديرِ رياحــك ، وهذيــــانِ نسيمك ، وجدتُه سجينَ هدبى وأَصابعى .

وأَلتفتُ إِلى ما بعد طلعةِ الأَمس ، فأَتذكر قطاف أَسمارنا من « موسوعة » الخواطر والشجون ، نتنيه فى طيــــــات صفحاتها إِلى حد التشرد ، وأَنت حيالى هندسة ضوءٍ لبنــاء منارة ، أَو خاطرة عبير لتخطيط حديقة ، أَو تصميم لمد رقرقة جدول ، أَو رسم شقشقة عش .

حيالى كنتَ ، وما زلتَ ، من مبتكرات الإِنسان بشكلــك المطرز بالهالة ، تفرز : الإِبــداعَ ، والنضرةَ ، والإِرهــــافَ ، والعافية ، لسكان خلجاتك النابضة فى منقوشاتك الشعريــــة التى أَصبحت اسبانيا تصدرها الى الخارج مــع مــا تصــدر من التحــف والــروائــع .

ويــا فيثنطى ، حسبك هذا المجد الذى نثرتَه بهــاءً على جدران ، وشرفات ، وطرقات ، تأريخ بلادك الغريد .

الــربــاط **محمد الصياغ**

صِقلية
في مذكرات السفير ابن عثمان

د. عبد الهادي التازي

كان من ابرز المبادرات التى اكسبت العاهل المغربى محمد بن عبد الله (1171 ــ 1204 = 1757 ــ 1790) شهرة دولية واسعـــة حملته المكثفة للقضاء على الرق نهائيا فى شتى جهات المعمور ، وكان مما زاد فى اهمية تلك المبادرة أنها لم تكن عنصرية تستهدف أمة دون أمة ولا ملة دون ملة ولكنها كانت تشمل الانسان ، حسبما تفسره معظم اتفاقياته الدوليـــة .

وقد رددت صدى بعثاته الدبلوماسية من أجل تحقيق ذلك الغرض صحف الممالك الاوروبية وتقارير الولايات الامريكية وأرشيف الامبراطورية العثمانيـــة كذلـــك (1) .

وقد كان فى صدر الذين جندهم للقيام بتلك المساعى شخصية دبلوماسية لامعة مثلت المغرب أحسن تمثيل ونجحت فى مهمتها كامل النجاح ، ويتعلق

1) التازي : دور المغرب الطلائعى فى تحرير الانسان واقرار السلام والعدل بين الشعوب « الكلمة التى قدمها للمؤتمر الدولى لرجال الاديان من اجل السلام والعدل بين الشعوب» المنعقد بموسكو فيما بين 6 ــ 10 يونيه 1977 .

الامر بالسفير محمد بن عثمان المكناسي الذي كان يتمتع بخصال الدبلوماسي الذي لا يتردد في الاستجابة لحضور دعوات الموسيقى والرقص وحضور مجالس الانس ، ولا تعجزه الاجابة عن الاسئلة التي تطرح عليه كما لا يترفع عن السؤال عما يريد الاستفادة منه ، ثم هو بعد هذا وذاك يحترم تقاليد الامم التي يعتمد لديها . ويعمل على التعريف بها في الوقت الذي يقدم فيها بلاده معطيا بذلك المثل لما يجب أن يتحلى به السفير كموظف سام معد لربط صلات التعارف بين الامم والشعوب .

واذا كان ابن بطوطة أول مبعوث مغربي أخذت له صورة عند زيارته للصين ، واذا كان السفير المغربي ابراهيم الدوك (1) أول من حمل الوسام من الولايات العامة ، فان ابن عثمان أول دبلوماسي يقوم بطبع « قراطيس » تعريفه لتقديمها لزملائه في الممالك الاوربيـــة . . .

واذا كانت المصادر المغربية قد اهملت الحديث عن صفاته فان المصادر الاروبية نعتته بأناقة المظهر وجمال الشكل وأنس المعشر ، وهي الخـــلال التي يستكمل بها السفير مقوماته ويستقطب بها حظوظ نجاحه !

لقد شد الرحلة للسفارة ثلاث مرات ، فمرة الى مدريد ، وثانية الـــى مالطة ونابل ، وثالثة الى اسطمبول ، وقد كان من أروع ما قام به في هذه التنقلات أنه دون مذكراته عنها ، تلبية لطلب الملك ، حيث حملت رحلته الاولى اسم « الاكسير في افتكاك الاسير » (2) وحملت الثانية اســـم « البدر السافر » (3) بينما حملت الثالثة اسم « احراز المعلى والرقيب » (4)

---

1) كان (الدوك) هذا رئيس البعثة التي أرسلها الامير عبد الله الدلائي (1069 = 1659) الى هولاندا وقد كان مثلا في قوة الشخصية ووفرة العقل والمال ، ويضرب المثل به في (العدوتين) عندما يستهول موت عظيم أو كبير فيقال : « مات الدوك » فاحرى مـــن يستعظم موتـــه ...

2) نشرها الاستاذ محمد الفاسي رئيس الجامعة ضمن منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي سنة 1965 .

3) توجد منها نسخة بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ح 52 ونسخة بالمكتبة الملكية تحت رقم 1315 لكن الاولى اقدم من الثانية وقد كتبت في آخرها : « وكان الفراغ من تاليفه بعد تلف المبيضة اوائل جمادى الثانية وتاخر كتبه الى سابع عشر ذي الحجة الحرام سنة سبعة وتسعين ومائة والف . ومن المهم ان نشير الى أن هذه الرحلة تضمنت ذيـــلا نقديا ممتعا لبعض رفاقه في هذه السفارة تعطي فكرة عن تمسكه بضرورة احتـــــرام الدبلوماسيين لواجبهم كممثلين لارفع سلطة في بلادهم ...

4) توجد نسخة في المكتبة الملكية تحت رقم 5664 .

وقد تضمنت كل هذه الرحلات معلومات فريدة ، ولم تقتصر على أن تكون مجرد يوميات ولكنها تجاوزتها الى تقديم حقائق عن الاحداث الدولية الجارية . . . وتاريخ الممالك الحاضرة بما فيها حرب الاستقلال الامريكية وحروب وراثة العرش فى أروبا اضافة الى أنها تعطى من الناحية الادبية صورة لتدرج ابن عثمان فى كتابته حيث تحول أسلوبه فى الرحلتين الاخيرتين الى صياغة بلاغية كانت تنقصه فى الرحلة الاولى ولو أنه لم يتخلص نهائيا من الطريقة المألوفة آنذاك فى الدعاء — أحيانا — على المخالفين له فى المعتقد (5) كما أنه لم يتهيب استعمال بعض المفردات الاجنبية مما كان يرى أنها أدل على تحقيق غرضه . . .

***

لقد رشح ابن عثمان منذ سنة 1193 = 1779 للسفارة لدى بلاط كارلوص الثالث ولما يبلغ عمره الاربعين وكانت الظروف التى تم فيها اختياره لهذه المهمة بالغة الاهمية من حيث الوضع الدولى . . . وهكذا نجده يجتمع بالملك كارلوص فى ارانخويس (Argenjuez) وينتهى الى تحقيق الغرض الذي جاء من أجله وهو الافراج عن عدد كبير من الاتراك التابعين لولاية الجزائر وتونس وطرابلس وسائر بلاد المشرق .

***

ولقد نص الفصل العاشر من اتفاقية ارانخويس المبرمة يوم 26 جمادى الاولى 1194 = 30 مايه 1780 على فتح الباب لامير نابل فراند والرابع ابن ملك اسبانيا للانضمام الى الاتفاقية المذكورة (6) كما وقع نائبه الدوق دي سانت اليزابيت على عقد بتاريخ 23 مايه 1781 حول هذا الالتزام (7) .

---

5) كان لابن عثمان خصم سياسى عنيد هو أبو القاسم الزيانى الذى كان يتتبع حاله ومقاله، ويتهمه أحيانا بانه يتاثر بعادات النصارى وانه موال لهم ... ولذلك نجد ابن عثمان يحرص فى بعض المناسبات على التعبير عن صلابة عوده ، وشديد يقينه ، وربما عرض أحيانا بذلك الخصم ناعتا اياه بالتعصب وضيق الافق .

(6) Jacques Caillé, les accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed ben Abdellah, 1960, p. 39.

7) المصدر السابق ص 239

ولم يكن غريبا علينا أن نسمع عن ترشيح ابن عثمان للقيام بمهمة مماثلة لدى حاكم مالطة أولا ثم أمير نابل ثانيا ، وهكذا نراه يغادر المغرب اواخر سنة 1195 = نونبر 1781 على رأس وفد يتألف من السادة : ابن قريش والمير السلوي وابن جلول ، والبنائي بعد أن كان سبقه الكاتب محمد الحافي الى مالطة لتقصى اسماء الاسرى .

وينجح السفير في مهمته بمالطة بالرغم من المصاعب الذي اعترضته بسبب الاشاعات التي صحبت مقدمه (8) ، ثم يتجه الى (نابل) أواسط شعبان 1196 = غشت 1782 حيث اقام السفير في ضيافة الامير فيرناند والرابع .

لقد كان يوم استقبال السفير في (نابل) من الايام المشهودة حيث قدم ابن عثمان أوراق اعتماده الاصلية بمحضر الوزراء ورجالات الدولة وقد تلقاها عاهل نابل بكلتى يديه على ما هى العادة وبعد تبادل أطراف الحديث دعى السفير لمقابلة زوجة الملك الاميرة النمساوية (ماري كارولين) (Marie Caroline) وكانت محاطة بفضليات المملكة وزوجات الاكابر ، حيث ثنت ركبتيها وفقا لتقاليد السيدات الاروبيات عند تحية عظماء القوم ، مؤكدة أنها ستكون الى جانبه في كل ما يرضى جلالة ملك المغرب الامر الذي تفاءل به السفير الذي كان يعرف جيدا أن أمر نابل كان بيد الملكة . . . لقد خطر ببال السفير هذا البيت الشعري الذي سجله في مذكرته والذي يكشف عن دور المرأة في قضايا الوساطة :

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرا
مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا ! !

---

8) شاع في مالطة ان العاهل المغربي يدبر في ارساله المراكب الخمس مؤامرة ضد حاكم الجزيرة بمساعدة الاسرى الموجودين هناك ، ونتيجة لهذا صدرت الاوامر باستعجال ترحيل الاسرى الامر الذي استدعى تاجير مركبين من جمهورية دوبرونيك سار احدهما الى بنغازى والثانى الى طرابلس وكان يحملان نحو المائتين وخمسين اسيرا ، وقد تم افتداء اسرى آخرين بلغ عددهم الى ستمائة وثلاثة عشر فاجرت لهم المملكة المغربية ثلاثة مراكب اخرى من (دوبرونيك) سار احدهما الى طرابلس وثانيهما الى صفاقس والثالث الى تونس وحسب رسالة عندى موجهة من ملك المغرب الى حاكم دوبرونيك بتاريخ 12 جمادى الاولى 1196 = 25 — 4 — 1782 فان المطلوب توجيه مركب الى تونس والمركبين الاخرين الى الاسكندرية .

وقد حدث أن قدمت للسفير فى أول يوم من مقامه بقصر الضيافة اطباق من الفواكه والحلويات تضافر على حملها اليه ستة من الاسرى المسلمين . فتقبلها ابن عثمان شاكرا ومعربا فى الوقت ذاته عن امنيته فى « أن يلحق بها من حملها » الامر الذي استجاب اليه الامير فيرناندو . . .
وقد انتهت المفاوضات أخيرا الى ابرام عقد سلام مع السفير المغربى بتاريخ 11 ذي القعدة 1196 = 18 اكتوبر 1782 (9) ، حيث بعث فيرناندو فى اعقاب التوقيع على الاتفاق بثلاثين أسيرا كهدية ثانية فى انتظار عمليات الفداء الكبرى .

قال فيرناندو لابن عثمان : « بالرغم من حالة الحرب التى توجد بيننا وبين من تعلقتم بافتدائهم من اتراك الجزائر وتونس وطرابلس والمشرق فاننا سنفرج عنهم استجابة لملك المغرب واننا نتوقع منه أن يقوم بمساعيه الحميدة لتحرير الاسرى المسيحيين الذين يحتفظ بهم السلطان عبد الحميد وممثلوه فى الولايات التابعة له » .

وفى الوقت الذي كان يحضر فيه ابن عثمان رسالته للعاهل حول ملتمس أمير نابل تمت عملية افتداء مائة أسير ، يضاف الى هذا أن الدبلوماسى المغربى استطاع أن يقنع مفاوضيه بشرعية استرجاع السفينة التى استولى عليها — فيما قبل — اسطول نابل وهى فى طريقها مشحونة بالحنطة الى طرابلس المتضررة بالجفاف .

كانت أيام ابن عثمان فى نابل — فى ما عدا جلسات العمل — كلها زيارات ودعوات واستقبالات واستعراضات ومشاركات لسكان البلاد فى حفلاتهم واعيادهم . . .

وقد أبى فيرناندو الا أن يلتحق بالسفارة فى نابل ليقوم صحبة الملكة بتوديع السفير وتسليمه الجواب الكتابى عن خطاب ملك المغرب . . .

(9) J. Caillé, les accords internationaux, p. 242

وقد ودعت السفارة على متن مركب تابع لاسطول راكوزة (10) كان صاحبه القابطان (جاكمو) جعل مركبه تحت تصرف السفارة تذهب بهـا انى تشاء وبدون عوض رغبة فى كسب عطف جلالة العاهل المغربى .

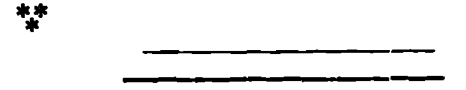
وهكذا غادروا البلاد يوم 4 محرم 1197 = 10 دجنبر 1782 فـى اتجاه الساحل المغربى . . .

***

وكما كان الامر بالنسبة للرحالة ابن جبير منذ قرون . . . فقد أرغمت العواصف البحرية ابن عثمان بما يصحبه من أسرى على الرسو يوم 14 محرم 1197 = 20 دجنبر 1782 بجزيرة صقلية أو (كيمياء الشمس) كمـا يسميها الشاعر الصقلى ابن حمديس (11) .

ان المرء ليشعر من خلال قراءته للمذكرات التى حررها ابن عثمان (سواء عن باليرم أو سرقوزة) بأنه أمام دليل تاريخى وجغرافى وزراعى واجتماعـى وديموغرافى وحضاري ومعماري وسياسى يضاف الـى (المكتبة العربية الصقلية) التى كان الفضل فى انشائها للمستشـرق الايطالى المشهور ميشيل أمارى . وقد أربى فى وصفه لعاصمة صقليـة على ما كتبه الجغرافى المعروف الادريسى . . وابن الخطيب . . ويعتبر ما كتبه ابن عثمان أوحد زمانه ممن تتحدث للناطقين بالضاد عن هـذه الجزيرة التى كانت تزود ممالك أوربا بما تفيضه مروجها الخضراء . . . سواء فى الشمال أو الجنوب أو الشرق . . .

***



10) القصد الى جمهورية (دوبرونيك) (Dubrovnik) التى تقع اليوم ضمن يوغسلافيا وليس القصد قطعا الى راكوزة التى توجد جنوب جزيرة صقلية .

11) يقول ابن حمديس :

ومشرق كمياء الشمس فى يده ففضـة الماء من القائها ذهب

... لقد سجل التاريخ القديم عن علاقات جد مطرفة بين المغرب وصقلية عندما وردت سفارة من غليالم الثانى على أبى يعقوب المنصور وهو بافريقية سنة 575 = 1180 فانتهت الى اتفاقية مهادنة بحرية كان لها اثر على ارجاع غليالم لكريمة الخليفة ابى يعقوب التى سطا القراصنة على المركب الذي نقلها وهى فى طريقها للزفاف بأحد أمراء افريقية .

وقد بعث فريديريك الثانى بدوره سنة 640 = 1242 سفارة الى مراكش تحمل الهدايا الى الخليفة الموحدي الرشيد ، ولما صادفت وفاته استقبلها أخوه السعيد الذي أجاب عن الهدايا بمثلها . . . وقد جاءت مذكرات ابن عثمان — بعد أزيد من خمسة قرون — لتترجم عن جو الود الذي ظل سائدا بين صقلية والمغرب بل ولتقدم لقراء اللغة العربية لوحة ملونة لمختلف مظاهر الحياة فى صقلية التى تنتسب اليها عشرات البيوت الاصيلة ممن احتضنتهم الارض المغربية .

وتأتى اهمية مذكرات ابن عثمان من أنها كانت أيام فيرناندو الرابع وانها كانت تعاصر خمائر الوطنية والاستقلال التى كانت تتأجج فى الجزيرة ضد البوربون تلك الخمائر التى مهدت لثورة صقلية وحركة أماري وكافور . . . فقد سجل استقباله لوالى المدينة الذي ورد لتحيته فى موكب حافل ، وقد كان هذا كافيا للتعبير عن المشاعر ، بيد أنه لم يلبث أن تلقى استئذانا بزيارة أهل البلاد أنفسهم الذين وردوا « فى عدد لا يحصى من الخلق » حيث ألقوا أمامه فى القبة الكبرى خطاب ترحيبهم معلنين عن أن الجزيرة جزيرته ، وكأنما يقدمون اليه هم مفتاح المدينة !

وقد أكد ابن عثمان فى مذكراته الفكرة التى تقول أن الوجود العربى بالجزيرة لم يظهر أثره الا بعد انسحاب العرب ، وهكذا نقرأ عن معالم تاريخية وملامح عربية بل وعن تعلق تلقائى بالاثار الاسلامية ، فقد وقف على مبانى عديدة عملت فيها يد العمال المسلمين ووجد نفسه أمام قوم لا يختلفون عنه فى العادة والسلوك والمعشر . . .

واذا كان زميلنا الدكتور مورينو أهمل فى تعريفه بصقلية الحديث عن الثروة الحيوانية فان ابن عثمان يتحدث فى معرض كلامه على ازدهار

الفلاحة وفن البساتين ووفرة الزروع والخيول عن نوع من الاغنام لا يوجد بالمغرب وهو الذي يمتاز بالذيل الممتلىء ، ومن الطريف أن يذكر أن هذا النوع معروف بالاغنام الشعيبية ، وهى ظاهرة لها علاقة بتأثر صقلية بالشرق الذي يحتفظ بهذا النوع من الخرفان الـــى اليوم .

وقد قام ابن عثمان بتقديم مقارنة بين أهل صقلية وسكان (نابل) وكأنه يشير الى البصمات التى خلفها الوجود العربى بالجزيرة مؤكدا « ان الصقليين انسوه غربته وانسوه وحشته ولم يدعوا فرجة الا وجدوها ولا نزهة الا جددوها » على حـــد تعبيــره .

وكما شاهد ابن عثمان (الاوبيره) فى اسبانيا ونابل فقد استجاب لحضورها فى صقلية معتبرا « ان هذا التكريم هو فى الواقع تنويه بقــدر العاهــل المغربـــى » .

وقد قدم وصفا دقيقا وجيداً لاوبيره (باليرم) — التى كانت تفوق فى نظره أوبيرة مالطة — بما كان يضيئها من شموع كثيرة وما كانــت برامجها تشتمل عليه من موسيقى ، لقد أثارت انتباهه تلك الرســوم التى تخيلها الفنانون ، كما وقد أعجب بحركات اللاعبين . . . وبعد أن أسدا الستار عاد مرة ثانية ليرى مشاهد اخرى تمثل البحر والاساطيل ، وليرى حوارا غراميا بين عشيق ومعشوقة . . . ووصف ابن عثمان للاوبيرة لا يقل عن وصف صحفى دقيق فى تعبيره ، مشوق فى صياغته . . .

ولم يفته ان يسهب فى الحديث عن أيام (الكرنفال) بما يتخللها من مفاجئات وتعليقات . . . لقد امسى ابن عثمان من هواة هذه المشاهد حيث نجده يتردد على رؤيتها مرات عديدة أثناء مقامه بالجزيرة !

وكما فعل ابن عثمان عند سفارته السابقة الى اسبانيا فقد تحدث عن الحياة الدينية فى العاصمة ونظام الارث وعبادة الصوم فى العالــم المسيحـــــــى . . .

وبعد ان يبحر السفير يــوم 10 صفر = 15 يناير 1783 باشارة من ربان المركب يعود مرة اخرى بعد ان قضى خمسة ايام بين صـــراع

الموج وهول العاصفة ، وقد صادفت عودته احتفالات البلاد بيوم اعياد ميلاد الملك كارلوص (20 يناير) فوجدها ابن عثمان فرصة لبى فيها دعوة لحضور حفلة الاستقبال الكبرى حيث روح عن نفسه من عنـــاء تلك الايام الهوجاء التى قضاها فى المركب .

لقد قدمت له الاشربة المعقودة على الثلج التى لم يخف ابن عثمان استحسانه لهـا ، والتى لم تزل عادة الصقليين الى اليوم ، يتفننون فيها حسب أذواقهم وأرزاقهم . . . وقد اهتم ابن عثمان بالميزانية النـى تخصص من طرف الحكومة لاجل توفير الجيلاطى (Gélati) للنـــاس .

وكانت مناسبة لتجديد الحديث عن تقاليد الرقص فى الحياة الاجتماعية الاروبية ، وتعلق الانسان ــ بل حتى الحيوان (12) ــ بالطرب والموسيقى « حتى تعب اولئك الخود وتصبب على وجناتهن الموردة عرق زاد فى نصاعة محياهن » على حد وصف السيــد السفيــر !

لقد كان ابن عثمان يلاحظ فى كل مناسبة حضور السيدات الصقليات الى جانب أزواجهن يساعدنهم على القيام بواجب الترحيب والمؤانسة . . .

واذا كان التاريخ الدبلوماسي للمغرب احتفظ قبل ستة قرون باســم ابن العربى سفير المرابطين لدى بلاط العباسيين على أنه بارز وبــز فى الشطرنج شخصية تنتمى لطرابلس فان التاريخ سيحتفظ ايضا باســم ابن عثمان على أنه بارز وبــز شخصية اخرى فى صقلية امام اعضاء نادي بلرم الذي كان ضمن مزاراته فى العاصمــة .

لقد اسهب ابن عثمان فى الحديث عن هذه المقابلة المثيرة من غير ان يخفى ستراتيجيته فى اصطياد منافسه ! ! وقد كان مسرورا جدا من غلبه لخصمه واعتبر ذلك نصرا يذكر فى عداد توفيقاتـــه .

---

(12) ذكر ابن عثمان انه شاهد كلبا يتفاعل مع جوقة للموسيقى الامر الذى يذكر بما نراه اليوم فى (السيرك) حيث نجد الاسود والفيلة تتبع حركات الموسيقى .

وقد كان مما استرعى انتباه ابن عثمان كنيسة سان مارتينو (San Martino) التى توجد على بعد سبعة أميال من (بلرم) (13) التى زارها صحبة الاسقف (فيلا) ، ان الكنيسة رمم تبعد أن كانت تأثرت عند فتح المسلمين لصقلية وانها تحتضن عددا من المخطوطات العربية كان من بينها سيرة ابن سيد الناس اليعمري ، وعدد من الكتب الطبية (14) .

ان ما حكاه ابن عثمان عما شاهده فى هذه (الكنيسة) يعطى فكرة عن انها كانت أيضا معهدا علميا للبحث حيث شاهد من خلال صناديق زجاجية مخلوقات غريبة وطيورا مجمدة كان منها الشرقراق وكانت فرصة ليقدم لنا طريقة تحنيط الحيوان على ذلك المعهد . . .

وبعد أن تستوقفه دار الحضانة المعدة لتعليم الاشغال اليدوية للبنات يسترعى انتباهه انتشار الكتابة حتى بين الصم والبكم متخلصا الى حديث طويل وعريض عن مؤسسة علمية عليا تحتوي على مكتبة تضم زهاء ثلاثين الف مجلد ، ويتلقى فيها الطلاب علم الحساب والنجوم وعلوم البحر واللاتينية والطب والفلسفة والادب .

لقد شاهد هنا الهياكل البشرية معروضة للدرس ، وكانت بالنسبة اليه فرصة للتدبير والتأمل فى تركيب الانسان !

---

13) رسمها الناسخ (سنمرتيل) والقصد الى (San Martino)

14) من الطريف ان نكتشف ان الذى صحب ابن عثمان الى (سان مارتينو) كان راهبا من أصل مالطى قدم على صقلية واشغل نفسه بامر جرد المخطوطات العربية ولم يكن هذا غير كيسيبى فيلا (G. Vella) الذى ذكر أنه فى اثناء المحاولات الرامية للعثور على المخطوطات وصل الى باليرمو قادما من نابولى عام 1782 السفير محمد بن عثمان المكناسى الذى كان قد كلف من الامبراطور المغربى بمهمة تمس العلاقات بين الطرفين ، قال فيلا : وقد تحدثنا معا حول موضوعات مختلفة وكنت أنا القائم بوظيفة المترجم ، وذهبنا الى دير سان مارتينو حيث كانت المكتبة هناك غنية بالمخطوطات ومن الغريب ان يذكر فيلا ان ابن عثمان وعده بان يرسل اليه ما يكمل بعض المخطوطات التى تتعلق بتاريخ صقلية على يد أخيه السيد مصطفى حيث ان ابن عثمان كان على اهبة سفر الى القسطنطينية الا ان البروفيسور روزيطانو يشكك — ومعه الحق — فى بعض المعلومات التى يقدمها فيلا حول تلك المخطوطات .

Guiseppe Vella : Codice Diplomatico di sicilia Sobt, dit Governo dela arabi Palermo 1789, p. 30-34.

أمبرتو ريزيطانو : تاريخ الادب العربى فى صقلية 1965 ص 22

وقد كان فيما زاره ابن عثمان دير للرهبان المنقطعين : كابوشيني (Cappuccini) حيث لقى منهم ترحيبا زائدا . . .

وقد تأثر ابن عثمان عندما نزل الى سفلى الدير حيث شاهد المقابر (catacombe) والموتى وقوفا مع الجدران فى أقواس داخلة فى جوف الجدار وكل واحد علقت على عنقه خشبة مكتوب فيها اسمه . . . ومن تساقطت عظامه يجمعونها ويضعونها فوق مرافع ومن كان من أكابرهم يضعونه فى صندوق ، وقد وقف ابن عثمان على صفوف من تلك الصناديق (15)

ومن هذا الدير انتقل لزيارة طائفة من دور الراهبات . . . كان منهن المعروفات باسم (المونخات) .

وان من أبرز الصفحات التاريخية التى سجلها ابن عثمان عن صقلية تلك التى تتعلق بالزلزال المهول الذي حدث زوال يوم الاربعاء 2 ربيع الاول 1197 = 5 يبراير 1783 وتجدد بعد منتصف الليل من يوم الثلاثاء الموالى . . . لقد فر الناس بأنفسهم الى الاجنة والبساتين ودمرت طائفة من المدن كان فى أشهرها مدينة مسينة . . . ان حديثه عن هذا الزلزال يظل مرجعا للمهتمين بتاريخ الظواهر الطبيعية للجزيرة بما يضمه من أرقام وما يحتويه من تفصيلات وما يعبر عنه ن يأس وبؤس دفعا بالسكان الى الالتجاء الى الكنائس طلبا للمغفرة والتماسا للعفو .

ويصف ابن عثمان الفن الرائع والمدهش الذي شاهده فى كنيسة على بعد ثلاثة أميال من المدينة تكون فى صدر ما يقوم السائح اليوم بزيارته فى بالبرمو : (مونريال) Monréale لانها فعلا متحف على مستوى عالمى ، وقد قدم نبذة تاريخية مسهبة عن حياة غليا لم الاول والثانى ،

---

15) كانت الدولة الرومانية تناهض الدين المسيحي ، ولذلك كان المسيحيون فى القرون الثلاثة الاولى يقومون بعملية الدفن على هذه الطريقة ، فى سفلى المعبد الى أن صدر قرار قسطنطين أوائل القرن الرابع ، ومع ذلك فقد بقيت تلك الطريقة تقليدا لرجال الدين والعائلات الارستوقراطية حيث كان لكل طائفة دينية او اسرة معبد أو « زاوية » يدفنون اعيانهم بها غير أن هذه العادة تلاشت مؤخرا حيث عوضت المقابر العمومية هذا التقليد القديم

لقد أبهته ما وقف عليه هنا عن عجائب الذخائر وما عاينه من الصور المموهة بالذهب والفضة ، وما لفت نظره من الترصيع بقطع المرمر الدقيقة وهو يستغرب من صمود هذا الاثر العظيم مع تقادم الاعصار . . . ويحكى عن مشاهدته لجثتى غليا لم الاول والثانى الموجودتين كل منهما فى تابوت على حدة (16) ، وهو يفسر وجود الاضرحة الملكية هنا بأن صقلية كانت هى دار الملك وليس نابل ! لقد قدم ابن عثمان صورة دقيقة جميلة لمونريال قبل أن تستيقظ حاسة الجهات السياحية لذلك وانا على مثل اليقين من أن سفيرنا زار أيضا (الكابيلا البلاطية) التى تعتبر قمة للفن ، وزار أيضا الكاتدرال التى تحتضن قبر فريديرك الثانى ، ولكن ضياع مبيضته الاولى حرمتنا من اعطاء وصفه لهذين الموقعين الجميلين . . . كما تسبب فى تأخير او تقديم بعض الاحداث عن مكانها اللائق بها .

ويتخلص ابن عثمان من هذا التاريخ الى بداية ظهور المسلمين بالجزيرة ، ويلاحظ أن السفير المغربى أجمل الحديث عن المحاولات الاولى التى تمت أيام الخليفة عثمان ابن عفان حوالى سنة ثلاثين من الهجرة = 650 ، اجمله فى قوله أن النزول الاول تم أيام مروان بن الحكم سنة 64 = 684 وان الفتح تتابع وتوالى ولكن من غير أن يردد اسم زيادة الله الذي ارسل سنة 212 = 827 بقواته بقيادة القاضى أسد بن الفرات دفين (باليرم) الذي نزل فى (مزارة) أولا ثم (سرقوزة) . . . وبعد أن يستعرض تاريخ المسلمين فيها وانسيا بهم فى اتجاه روما وغاراتهم على جميع بلاد (ليطاليا) على حد تعبيره يصل الى الظروف التى ظهر فيها روجيرو النورماندي وما صحبها من حروب وفظائع أدت الى النهاية — وخاصة أيام فريديرك الثانى — الى اجلاء المسلمين نهائيا عن ديار نشأ بها جدودهم وأسلافهم .

وقد وقف ابن عثمان طويلا أمام سطو النورمان وتسلطه ، وكان عليه أن يلوذ بالايات والامثال ويستلهم بالعظات والحكم ليتغلب عن مشاعر

---

16) تعرضت كنيسة مونزيال للقصف ابان حروب عام 1811 حيث أصيب احد التابوتين بعطب وهو ما دعى الى اعادة بنائه واحكام الاغلاق ، وهكذا فان ابن عثمان يستاثر دون غيره بتقديم لما قبل قرنين من الزمن .

الحزن والاسى أزاء تلك الاحداث الجسام ، وكأنى بـــه يردد زفرات ابن حمديس عندمـــا قـــال :

ذكـــر صقليـــة والاســـــى يجـــدد للنفـــس تذكـــارهـــا
فان كنـــت أخرجـــت مـــن جنـــة فـــانـــى أحـــدث اخبـــارهـــا
ولـــولا ملـــوحـــة مـــاء البكـــا حسبـــت دمـــوعى أنهارهـــا !

وقد دفعه هذا الحديث الى تفقد آثار المسلمين الباقية هناك بعد أن قضوا فيها بضعة قرون . . . وهكذا وقف على آثار لمسجد كبير تغبير عن حاله الاول (17) ، كما رأى بظاهر المدينة بحيرة كبيرة نعتقد أنهـا البحيرة التى تغنى بها الشاعر عبد الرحمن الاطرابنشى (18) ، هذا الى حمام كان أحد مرافق (المنزه) المجاور الذي كان — فيما يقول ابن عثمان رواية عن الناس — من منشئات مروان ولو أن الرواية اليوم تحكى أنه من منشئات جعفر الكلبى قبل أن يوسعه رجيرو الثانى .

ولم يعدم ابن عثمان من يناظره بلغة عربية فصيحة (19) حول مواضيع فلسفية معقدة ، ولا شك ان وجود مثل هؤلاء المستشرقين على ذلـك العهد ينم عن الاهتمام بقوم تركوا لهم فى صقلية جذورا عميقة يعبر عنها الكلم والصورة ، ويترجم عنها الطبع والعـــادة . . .

فهل كان يوم 16 ربيع الثانى = 21 مارس آخر عهد ابن عثمـــان بصقليـــــة ؟

---

17) القصد الى كنيسة القديس يوحنا شفيع النساك (San Giovanni degli Eremiti) وهي التي بناها روجار الثاني ودشنها القديس المذكور والتي يقول الدكتور مورينـو عنها انها تشبه جامعا تقام فيها صلاة الظهر ..

18) الاطرابنشى نسبة الى مدينة طرابانى (TRAPANI) غربى الجزيرة وهو يقول :

فوارة البحرين ، جمعت المنـــى عيش يطيب ، ومنظر يستعظـــم
قسمت مياهك فى جداول تسعـــة يـــا حبـــذا جريانهـــا المتقســم
فى ملتقى بحريك معترك الهـــوى وعـــل خليجيـــك الغـــرام مخيـــم

19) نميل الى الاعتقاد بان هذه المباظرة كانت له مع زميله الراهب فيلا السابق الذكر او على الاقـــل بمساعدتـــه .

لقد رشنح للسفارة مرة ثالثة أوائل سنة 1200 نونبر 1785 بقصد قضاء مهمة لدى القسطنطينية العظمى ، وهو اليوم يسافر رفقة السفير العثمانى اسماعيل افندي الذي كان وصل الى المغرب لرفع رسالة الـــى السلطان محمد الثالث فى امر يتعلق فى سلوك أتراك الجزائر التابعة آنذاك للسلطان عبد الحميد ، ولا ننسى أن العاهل المغربى كان قد التزم بالعمل علي تحرير سائر الاسرى وأنه قبل طلب الوساطة التى التمسها منه ملك نابل بشأن الافراج عمن تبقى فى الاسر فى اسطامبول أو الولايات التابعـــة لهـــــا . . . (20) .

وكما حدث فى المرة السابقة عندما التجأت السفارة المغربية الـــى صقلية بسبب اصطخاب البحر ، فقد حدث هذه المرة أن تغير المـــاء المنقول مع السفينة المغربية ، فاضطرت بعد اقلاعها من قرطاجنة وقضائها فترة طويلة بين تلاطم الامواج أن ترسو (بسرقوزة) للتزود بالماء يوم 10 شعبـــان 1200 = 8 يونيـــه 1786 .

وقد استدعت العملية وقتا تجاوز العشرين يوما ظلت السفارة تنتظر أثناءها داخل السفينة وكما أثنى الثناء العاطر على سكان صقلية الشمالية فقد ازجى عبارات الاطراء والمدح على سكان صقلية الجنوبية حيـــث وصف سكان سراقوزة بالانبساط وطلاقة الوجـــه . . . لقد كانوا يريدون من السفير أن ينزل لمشاهدة معالم المدينة التى ينتسب اليها أرشميـــــد (Archimède) الفيلسوف الشهير حتى يقف علـــى مغارة طلبـــة الاذن والمسرح اليونانى ، والكاتدرال ولكن السفير اعتذر لاهل المدينة .

ومع ذلك فقد جرى اتصال مستمر بين السفير وحاكم المدينة . . .

وقد تحدث ابن عثمان عن منعة سرقوزة (أورتيجية (Ortigia) = وعن الجسور المعلقة التى كانت تنصب نهارا على الخنادق الاربعـــة المحفورة خصيصا من طرف الامبراطور كارلوص كينط لتحصين الثغـــر

20) يظهر مما رواه الراهب (فيلا) ان ابن عثمان كان يعرف ــ وهو فى صقلية ــ انـــه سيسافر الى (القسطنطينية) .

الذي دخل المسلمون عن طريقه الى الجزيرة ، وذلك قبل أن تنسف هذه الجسور في أعقاب الثورة الايطاليــة تعبيرا عن القضاء على الخنــق والظلــــــم . . .

وابن عثمان لا ينسى هنا فى كتابه (احراز المعلى والرقيب) أن يحيل على (البدر السافر) لقراءة أخبار الفتح الاسلامى ، وبعد أن يتحدث السفير عن وفرة الزيتون ومعاصره وكانت تناهز الخمسين . . . يتحــدث عن أن أهل المدينة لما يئسوا من نزول الى اليابسة للاحتفاء به ، اقبلوا رجالا ونساء بقضهم وقضيضهم الى المركب ذات ليلة محفوفين بجوقــــة للموسيقى ، وقد كسيت السفينة وظللت وعلقت بها منارات البلــــور حتى لصارت قاعــدة المدائــن !

وقد أسهب ابن عثمان فى وصف هذه الليلة الساهرة بما اشتملت عليه من مشروبات معقدة على الثلج وما صحبها من رقص الاكابــــــر والكبريات « من كل فتانة الطرف كثيرة الدلال والظرف . . . فلا ترى أعجب من ليلتنا : ظباء القفار ، فوق أمواج البحــار . . . »

وهكذا على هذه الفترات الجميلة ودع ابن عثمان صقلية لآخر مرة يوم 4 رمضان : أول يوليه 1786 .



وبعد فهل يستحق ابن مكناس ، مع هذه الباقة التى قدمها لصقلية ، أن يعطى اسمه لشارع من شوارع العاصمة التى أدخلت عليه الســرور بما قدمت اليه من ضروب الترحاب والتكريم ، تلك العاصمة الجميلــة التى أخذت بمجامع لبه فكتب عنها عشرات الصفحات ودون عنها جميل الذكــــريـــــات .

تلك أمنية أعرب عنها لمعالى رئيس منطقة صقلية المستقلة ولسيادة عمدة العاصمة ورئيس جامعة باليرمو . أمنية ستتوج مبادرة توأمة مدينة فلورانس مع مدينة فاس وتمهد لتوأمة باليرم مع مدينة مكناس

الربــاط **د. عبد الهادي التازي**

النص الكامل المتعلق بصقلية مما في : رحلة ابن عثمان المسماة (البدر السافر)

« . . . ولما شرعنا في البحث عن المركب الذي يحملنا (من نابل) الى بلادنا فوجدنا عدة مراكب « ص 222 — 223 » فبينما نحن نتخير في ايها يكون ركوبنا اذ أتانا رئيس من رؤساء البحر من جنس (آلراكوزة) (1) وقال : انني سمعت بانك تبحث عن مركب تتوجه فيه الى بلاد سيدنا امير المومنين . فقلت : نعم ، فقال : هذا مركبي احملك فيه الى حيث تريد ولا اقبض منك درهما واحداً في كرائه محبة في خدمة سيدنا أيده اللـه واستجلابا لخاطره عسى ان يلاحظ جنسنا بين الاجناس فقلت له : لكم ما تريدون وانكم ستنالون بهذه الخدمة حظا وافرا من خاطره ، ثم اخذ الرئيس في الاستعداد وحمل الماء والزاد ، واطلع اثاثنا وحوائجنا الا ان الريح لم يساعدنا للسفر ، فبقيت حوائجنا بالمركب ونحن بالبر نحو العشرين يوما فتحرك ريح مساعد فركبنا البحر من (نابل) رابع المحرم فاتح سنة سبعة وتسعين (2) فهيات الاكداش (3) فركبنا وتوجهنا الى شاطىء البحر فوجدنا الفلايك فركبنا وتوجهنا الى المركب فصعدنا اليه واخرج صاحبه المدافع ثم سافرنا بقية يومنا والليلة بعده ، واتى البحر من الاهوال وتناقض

---

1) القصد الى (دبرونيك) يوغسلافيا ، ويعاد الى الذاكرة أن دبرونيك كانت منذ 1191 = 1778 محل مؤاخذة من طرف العاهل المغربي بسبب اتهام سفنها بوضع الحجاج المغاربة في طرابلس وتونس عوض أن تنزلهم في الموانىء المغربية كما هو الشرط وقد ارسلت دبرونيك سفارة الى المغرب لتقديم حججها على أنها بريئة ، وهذا ما كان سببا في عوة العلاقات الى سالفعهدها

التازى : تاريخ الدبلوماسى : (فصل المغرب — دبرونيك)

2) كان ذلك يوافق 10 دجنبر 1782 .

3) الاكداش ج كدش وهو تعريب اللفظ الاسبانى Coche كوتشى اى العربة التى تجرها الخيل والبغال .

الصفحتان : 234 ـ 235 من مخطوطة البدر السافر المحفوظة فى المكتبة العامة ، وقد ابتدأ الحديث فى آخر السطر الاول عن ان صقلية مخزن للممالك الاوربية ...

الاحوال بما عنده ، وأقبلت الرياح مخالفة بعد أن كانت مساعفة مساعدة ، ونزلت علينا بكلكلها عساكر الرياح ونشرت علينا . لولا فضل الله — بنود الاحتياج فخلت الاقطار الشاسعة والجهات الواسعة ، فحالت بيننا وبين القصد والامال . وما امكننا الا الفرار امامها الى حيث ينتهى البحر ، ان دامت ، لاي شاطىء كان ، من الحجارة أو الرمال ، فسلبنا من القلـق والفزع منزور الهجوع ، وأيسنا من العود الى الدنيا والرجوع ، وشوارع المركب خاشعة خاضعة ، والسفينة لثدي الامواج راضعة ، حتى ايسنا من ((ص 224 — 225)) الحياة بما ظهر من عديم الايات ، فاوفد اللــه بخبر الفرج ركائب البشرى ، ونشر علينا رحمته نشرا ، فهب ريح اخرجنا من تلك المزادة التى استحال منها الخروج ، وانقذنا من حيتان ضواحى تلك المروج ، فاستنشقنا من روح الله الارج ، واستبشرنا بالفرج ، واطمانت النفوس . ورفعت من ميدها الرؤوس ، الى أن وصلنا جزيرة صقلية ، فاختلت القوانين ، ولم يطرد ما رسم من امور البحر فى الدواوين ، وفتحت افواهها ورفعت اصواتها الرياح الدبور ، بأن لا عبور ، فعجز الحول ، وخشينا فى المسئلة العول ، أو أن يكون قد وقع القول ، فقذفت علينـــا من كل جانب كتائبها ، وقطبت فاطلعت مسودة سحائبها ، فلا تسمع الا تصفير الجبال وهمهمة الرحال ، فاستشاط البحر غضبا ، وقال يا عجبا ! اعلى هذا الريح يصول فى وقت هيجانى على جميع الفصول ، وأنا البحر الزاخر الذي تحمل الفلك اثقال الدنيا فتمر فى مواخر ، فيستعرض لهـــا كأنه بى ساخر ، فجرد من عساكر أمواجه جنودا ونصب رايات لمقارعـــة الرياح وبنودا ، واقبلت من كل جانب أمواج مفارقها قد شابت تقتفى أثـــر الرياح فما قصرت وما ارتابت تسمو الى السماء فى طلب الرياح ، فكـــم من مرة مدت أيديها الى ا لجفن لتاخذ منه حبالا ، فاكسبت العيون أرقـــا والقلوب فرقا — لولا فضل الله — وخبالا ، فبقينا نصاول البحر ونقارعه ، ونتلقاه بالله وندافعه ، فراينا بحرا لا يطاق غلابا ، وخشينا ان يكون ذلك من الله عذابا فتفتح جبال امواجه فى المركب انقابا ، فما امكن الا ارخاء العنان امامه قسرا ، وان تعرضنا ((ص 226 — 227)) لهيجانه لا يعقب الا غرقا أو كسرا ، وان النجدة فى مساعفة الرياح ولو بلغت بنا مدائــن هرقل وكسرى . بعد أن اشرفنا على التلف فى البلاد الخالية الى طريقنا المقصودة ، وضالتنا المنشودة ، ففرحنا الا انه فرح مكدر ، بارتقاب مـــا

يخشى من هول البحر المقدر ، فسرنا الى ان جاوزنا جزيرة صقليـــة ، فاعترضنا ريح عائق ، نعوذ بالله من كل بلية ، فعزمنا على أن نتمسك ببلاد الاسلام ، ونشفع هذهالخدمة الشريفة بملاقاة بعض العلماء والصالحين الاعلام ، فيممنا تونس حذرا مما أصاب يونس ! فما بقي بيننا وبينها الا مقدار خمسين ميلا بحسب التقريب ، ونودي أن لا تتريب ، ولا ما يريب وجعلت الجماعة تتطلع الى أنكشاف البـــر ، بأعناقها وتجدد النظر بئاماقها ، اذ تحركت رياح متغايرة ، سحائبها في الجـــو متطايرة ، ردتنا قهرا الى حيث كنا ، وافصحت بلسان الاجمال أن لم نفر امامها ، لتصيرن لنا بطن الحوت كنا ، حتى تمنى أن لم يكن في الوجود كل منا ، وبقينا نسير في غير قصد حتى بلغنا الجهد ، تلعب بنا ايدي الرياح في الغدو والرواح ، ثم بـــدا منا العجز والاستسلام ، وللملك العلام ، والقلب قريح والجسم طريح ، والصق بالوسادة الخد ، ولسان الحال بتعطيل لسان المقال يقول : يا ليتنا نرد ، فكم مرة ترتفع جبال الماء فيدخل المركب بينها في سرب ، قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، والمركب بين الفريقين من شدة تقلبه « ص 228 ــ 229 » كقطعة حديد بيدقين ، وطرد المئاقي ، وبلغت الروح التراقي ، وجفت من دموعها المئاقي لولا الله واقي ، فبقينا على هذه الحالة من يوم سفرنا تسعة ايام لا صلاة ولا منام ، فرجعنا الى الله تعالى أن يرحمنا لضعف اقتدارنا ، وبعد دارنا بقلة زادنا من التقوى . وفراغ مزادنا الا من كل مصيبة وبلوى . يا عالم السر والنجوى ، ثم ناديت رئيس المركب وقلت له سر بنا الى حيثما توجه من المراسي لتستريح . حتى يأتي الله بما يوافق من الريح ، فأجسامنا في تعب وتبريح ، والقلب قريح ، وجفن العين جريـــح .

« الـــوصـــول الـــى بلـــرم »

فقصدنا مرسى من مراسي صقيلية ، يقال لها بلرم (4) سافرنـــا اليها يوما وليلة وارسينا بها . وحللنا في جنابها ، فلما ارسينا بالمخاطف ،

4) يرسمها الناسخ دائما بررم بالراء بدل اللام سواء في مخطوطة (المكتبة الملكيـــة) او (الخزينة العامة)

وامن الوجل والخايف تهادينا بشرى السلامة وعددنا النجاة من تلـــك الاهوال كرامة ، فاتت الينا الفلايك من المدينة تستفهم رئيس المركــب على العادة ، فاخبرهم انه من الجنس الفلانى حاملا بشظور (5) المسلمين ، فرجعوا الى كبير البلد فى الحين ، ثم اقبلوا الينا مع جماعة من الاعيان فرحين ، وقالوا : الحمد لله الذي اقدمك علينا واتى بك الينا . ثم ترادفت أعيان البلد للسلام علينا فى المراكب ، يتزاحمون بالمناكب ، ثم ورد نائب الحاكم وقال ان حاكم البلد يسلم عليك ، وهو يعرض عليك النزول فى بلادنـــــا للاستراحة الى ان يصحو الجو ويصير البحر رهو ، ويستكمل كل القــوم برويتكم سروره وافراحه والدار لنزولك قد اوجدناها وفرشناها وهيأناها فعزمت على ان لا انزل بدار ولا منزل ، وان أبقى ((ص 230 — 231)) عنهم فى المركب بمعزل ، ثم تاملت حال اساري المسلمين الذين معى فى المركب فوجدتهم فى عذاب اليم من كثرة الازدحام ، مع العفونات التى بالمركـــب والاوخام ، فرايت النزول بهم الى البر يتعين للامر الذي عرض ، خشية تلك الليلة بالمركب ، ومن الغد وردت من المدينة فلايك مستكملات الزينة وتقدم فيها جماعة من الاعيان بقصد مصاحبتها ومرافقتنا فتاهبنا للركوب فى الزورق المزين ، الذي هو لركوبنا معين ، فلما استوينا عليه اخرج صاحب المركب من المدافع ما لديه ، ثم توجهنا الى ساحل بحر البلد ، فوجدنا النصارى به كانما حشر منهم الوالد والولد ، ووجدنا إكداشا على ركوبنا موقوفة ، وخيلا مصفوفة فركبنا وركب من معنا وتقدمت الخيل امامنا مصلتى السيوف الى ان وصلنا للدار المعدة لنزولنا فاذا ببابها من العسكر صفوف ، ثم دخلنا عليهم من العفونة والمرض ، فقلت لهم : نزولنا يكون ان شاء الله غدا فبتنا ودخل من معنا من اعيان البلد حتى استقربنا المجلس وارونا جميع ما اعدوا هنالك ، ثم اقبلت طوائف اهل الغنى والطرب ، حتى امتلأ بهم القصر واضطرب ومن الغد وردت اعيان البلد واكابرها بقصد رؤيتنا والسلام علينا نســاء ورجـــــالا .

---

5) بشظور او باشدور محرفة من الايطالية (Ambasciatori)

زيـــارة عامل الجزيـــرة للسفير المغربى

ثم بعث حاكم البلد وهو عامل الجزيرة كلها يستاذن فى القدوم علينا للسلام ويطلب تعيين الوقت لذلك فعينت له الوقت ، ومن الغد لما وصـــل الوقت المعين اقبل فى كدشة ، وتلته اكداش فيها الاكابر ، وتقدمتـــه الخيل مثل ما يفعل مع الطاغية (6) ، فدخل الدار وصعد « ص 232 — 233» الينا ، واخدناه موضعا كما هى العادة ، ودخل معه قومه واظهروا من الفرح بقدومنا ونجاتنا من البحر واهواله ما ظهر اثره عليهم وبقوا معنا هنيئة يتحدثون ثم ارادوا الانصراف فاستاذنونا ، فاذنا لهم وشيعناهم ، فركب فى كدشه وسار على هيئته التى قدم عليها

زيارة أعيان المدينـــة للسفير

ثم ورد رسول اهل البلد وقال ان اهل المدينة يريدون القدوم عليـــك بقصد السلام ويطلبون منك ان تعين لهم الوقت الذي ياتون فيه فاجبناهم الى ما طلبوا فلما وصل الوقت سمعنا دويا عظيما ومزامر وطبولا وارتجت المدينة فسالت عن ذلك فقيل هؤلاء اهل البلد وردوا بقصد السلام فاذا باكداش مستكملة ، تبعهم من النصرى ما لا يحصى عدده ولا يدرك غايته ولا أمده ، الى ان وصلوا الدار فادخلناهم ، ولما قربنا من القبة المعينة للملاقاة ، تاخر جميع القوم وتقدم منهم ثلاثة اناس لابسوا السواد فجلسوا معنا على كراسى نصبت لذلك ، وتكلم احدهم بما معناه : اننا جئنا نائبين عن أهل البلـــد فى السلام عليك ، وانهم قد فرحوا بقدومك عليهم ، والبلاد بلادك وعليهم فى كل ما تريد منهم إسعافك وانجادك اقتداء بسيرة الملك معك حيث أجلـــك ورفعك فقابلناهم بما يجب أن يقابلوا به وودعناهم وانصرفوا على هيئتهم التى وردوا عليها

6) الطاغية لقب كانت الحكومة المغربية تعبر به عن ملوك اوربا ولم يتبدل الا بعد أن توصل الى اتفاق بتحديد الالقاب المستعملة .

وصـــف بلـــرم

وهذه المدينة مؤسسة على ساحل صقلية من جهة الجنوب (7) وهى كبيرة كثيرة العمارة قيل ان فيها مائتين اثنتين واربعين الفا من المخلوقات وبها يكون مثوى خليفة الطاغية على الجزيرة « ص 234 — 235 » كلها يسمونه اي الخليفة بيزالري (8) .

الحـــديث عن جزيـــرة صقليـــة

وهذه الجزيرة كثيرة الخيرات والاجنات والبساتين والمياه ، كثيرة الزرع ومنها يجلب لجميع بلاد النصرى ، ودائرتها سبعمائة ميل (9) وهـــى مثلثـــة الشكـــل .

عـــودة الى وصف بلـــرم وتصميمهـــا

واما هذه المدينة ففيها من الاجنة والبساتين مع اتقان واغراب ما يعجز الماضين والاتين (10) بلغت من النظارة والاستحسان ان لا يصف حقيقتها اللسان ، ويشك فيها ان تكون من عمل الانسان ، ما شئت من تزويق فى النبات تعجز عن ادراكه شفا الاقلام ، ويظن ناظره ان رؤيته اضغاث أحلام ومنازه ومقاعد على كل بستان مشرفات ، تنسيك من الدنيا ما هو موجود منها او فات ، فقد رايت بستانا غرسه صاحبه على شكل الدار بقببهـــا وطرقها وجدرانها من النبات وسقفها كذلك ، ومنزها قبه مسقفة بصفائح البلور ، وقد دخلت الى بستان امراة من الاكابر فقالت : انها بلغت من الانفاق عليه خمسين ألف ريال . ولهذه المدينة منظر عجيب ومرأى غريب قد قسموها على اربعة أقسام بأن اختطوا طريقا من احد أبوبها الى البـــاب

7) يلاحظ ان باليرم تقع شمال الجزيرة وربما كان ابن عثمان يعتمد على خريطة الادريسى الذى كان له تاريخ حافل بهذه الجزيرة والذى كان برسم الشمال جنوبا والشرق غربا علـــى ما هو معلوم . ومن الراجح أنه يقصد جنوب نابولي .

8) بيزالرى عن اللاتينية (Vice el rie)

9) لقد اعاد ابن عثمان بعض هذه المعلومات فى الورقة 260 من المخطوطة .

10) نلاحظ ان ابن عثمان يعتبر الفن الصقلى تحديا للامم الاخرى فى الماضى والمستقبل كذلك.

المقابل له فى غاية الاستقامة ثم قسموها بطريق آخر مستقيم مارا من أحد طرفيها الى الاخر وجعلوا فى مجتمع الطرق بوسطها براحا متسعا مستديرا وفى وسطه بركة ماء فى شكل أنيق ، والطرق المذكورة كلها اسواق .

اطـــراء لاخـــلاق السكـــان

ولاهل المدينة بشاشة وطلاقة وحسن خلق ولهم اعتناء بمن يفد عليهم ، فبينهم وبين اهل ((نابـــل)) ((ص 236 ــ 237)) فرق كبير ، وما أحـــق اهـــل ((نـــابـــل)) يقول القائـــل :

فـــامـــــا ارضهـــــا فـــاجـــــل ارض
ومـــا ناسهـــــا فاخـــس نـــــاس !

وقد فرح بنا اهل المدينة واكرمونا غاية الاكرام واهدوا سوابـــغ الانعام وانسونا غربتنا وانسوا وحشتنا فلم يدعوا فرجة الا اوجدوها ولا نزهة الا جددوها ويبحثون فان اعجبتنا أعادوها . فقد بعث الينا حاكم البلد مع جماعة من الاعيان وقال اننا قد هيأنا اليوم فرجة بالليل ونريد منك ان تحضرها فثقل على ذلك ، ثم تأملت وعلمت أن القوم انما صنعوا ما صنعوا بقصد اكرامنا والتنويه بقدر سيدنا المنصور امامنا ، فتتعين مساعفتهم ولا تناسب مخالفتهم ، والا فتتطرق الالسنة بما قيل فيمن لا يقبل الكرامة ، ولا يالونه عتابا ولا ملامة ، فأجبتهم لما طلبوا ، وحضرت ناديم فيمن جمعوا وجلبـــــــــــوا .

مشـــاهـــــدة الابيـــــرة

فاذا دار كبيرة لها طبقات مشرفات على سفليها مثل الدار التى تقدم ذكرها فى (نابـــل) المسماة بالويـــرة (11) بلغتهم و (الكميدية) (12)

(11) الاوبـــــرة (Opera)
(12) الكميديـــــة (Comedia)

بلغة الصبنيول ، وأوقدوا بها شمعا كثيرا وحضرها الاعيان والاكابر مــن الرجال والنساء ، ثم شرع أصحاب الموسيقى فى استعمالها بأصوات وألحان اعجمية متناسبة متناسقة ، ثم رفع الحجاب الساتر فكشف على دار غريبة الشكل من رقة صنائعها ودقة بدائعها ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حاسر ثم برزت فتاة هى المعلمة ومعها جماعة من الخدمة والاعوان ، صنوان وغير صنوان على شكل واحد من اللباس فلا تكاد تميزهم من الالتبــاس فاتوا من انواع « ص 238 — 239 » اللعب بما كلف به كل واحد منهم وتعب ، فطورا يرقصون فتراهم يزيدون فيه ولا ينقصون ويتقدمــــون وينكصون ، فاغربوا من لعبهم بما كاد أن يكون محالا ، أو تقول الانــس جنا استحالا ، ثم يرخى الساتر ويصفر صافر فيرفع عن أشياء مخالفة لما كان ، وستبعد فى الوجود والامكان من ديار ومقاعد ، وأناس من قائــم وقاعد،وطريق مستطيل وءاونة البحر والاساطيل أساطيل وليس لجميع ذلك حقيقة الا زخارف الفعل والاباطيل ، وتارة تبرز للحرب الامراء والعساكر ، فلا تسمع الا وقع المهند الباتر وءاونة يبرز رجل متيم عاشق أخو دنف ، أشرف على التلف ، ومعشوقته لا تريه الا الاعراض عنه والميل والجنف ، بينما هو سرا وجهرا يستعطفها فيأتى آخر فيحتملها ويختطفها . ولعبهم فى هذا المعنى ليست له غاية ، ولا حد ولا نهاية ، ولما قرب دخول صيامهم الذي يسمونه (الكريجمـــة) (13) زادوا لعبا آخر فى الديار المذكورات وفرجات يستعملونها مثل (شعبانة) (14) فتجد الاسواق كلها مغلفة بصور أوجه من الكتان المشمع على شكل الوجه الادمى لها أنف وثقبتان فى مقابلة العينين فيشترونها ويجعلل واحد على وجهه واحدة من ذلك ويغيرون لباسهم نساء ورجالا ويقصدون الديار المذكورة ليلا مختلطين ، ولا يعرف أحد الاخر الا من كان مرافقا مع احد او عمل أحد مع آخر علامة يميز بها بعضهم بعضا ،

---

13) القصد الى صوم الاربعين (Cuaresma) وهى الفترة الواقعة بين (اربعاء الرماد) — ويوم الاحد المسمى (أحد الاغصان) ومدتها اربعون يوما ، ويقع اربعاء الرماد يوم 23 يبراير حيث كان ابن عثمان أثناء مقامه الثاني ، اما أحـد الاغصـان (Domingo de Ramos) فيقع يوم 3 أبريل وهذه التواريخ تتغير سنويا .

14) شعبانة يقصد بها فى المغرب الايام الاخيرة من شهر شعبان وهى تتميز باحتفالات وأفراح احتفاء بشهر الصوم ، وهو يتحدث عن أيام (كرنفال) Carnaval الثلاثة التـى تسبق أربعاء الرماد (Microles de Ceniza)

وتجدهم فى تلك الدار يرقصون رجالا ونساء ولا يتعارفون « ص 240 — 241 » ومن الغد يتحدثون بذلك ويسأل بعضهم بعضا فى أي موضع كان وما لبس وان عرف أحدهم الآخر يقول له عرفتك وميزتك ونهم بذلك اعتناء مكين واما ما يضمن ؟ ذلك من الفساد فشىء ظاهر مشهور ، من سالف الدهور ، والاعوام والشهور ، على أنه فى شريعتهم منكور ، وقد المعنا به فى خبر (مالطة) المتقدم ذكرها المشهور نكرها . وبهذه المدينه رأينا هذا اللعب اكثر من ذلك فتجد هذه الدار المعدة اللعب تمتلىء ليلا من هؤلاء القوم الذين يغيرون لباسهم واشكالهم عجل الله نكالهم فيرقصون نساء ورجالا ويجعلون لمنتهى ذلك طلوع الشمس آجالا ، وهنالك دار معدة للمئاكل والمشارب ويخرج فيرقص ويطرب . واغرب ما رأيتهم صنعوا فى هذه الدار أنه كان باحدى زواياها براح متسع كبير مرتفع على الارض بنحو نصف قامة وهو من الخشب وبه يكون اللعب فعمدوا اليه وأنزلوه حتى تساوى مع الارض وزادوا فى جانبيه ستة عشرا مقعدا على شكل مقاعد الدار موازيا لمراتبها وطبقاتها وأوقدوا بها الشمع مثل المقاعد الاخرى واكروهم (15) ممن يقعد فيهم بقصد التفرج ، وهذا العمل كله فعلوه فى نصف ساعة ولا يمكن فعل ذلك على ما هو معتاد من الخدمة فى يومين بلامين ، وتغيرت الدار وخرجت عن حالها بحيث أن لو دخلها انسان ، ولم يضع ذلك امامه لما عرفها ، ومن حضارة هؤلاء القوم ان الخدمة « ص 242 — 243 » يترددون بكؤوس الماء البارد العذب ويتخللون صفوفهم فمن أراد ان يشرب يناولونه ، وذلك لازم لرب الدار القيم عليها ، وكل من يدخل الى تلك الدار فعليه اداء كراء معين : للطبقة السفلى قدر معلوم وللمقاعد المرتفعة ، قدر معلوم على اختلاف طبقاتها . وقد رأينا لعبهم هذا مرات متعددات .

زيارة صقلية ... 5 يبراير 1782

حتى وقعت زلزلة فى يوم الاربعاء ثانى ربيع الاول من سنة تاريخية (16)

---

15) يعنى أكروها .. فمن يقعد فيها

16) كان ذلك يوافق 5 يبراير 1782 ويلاحظ ان هذا الحادث وقع عند المقام الثانى للسفير بصقلية ولكنه اثبت ذلك هنا اثناء المقام الاول نظرا فيما يبدو لضياع مبيضته الاصلية وسهوه عن تسلسل التاريخ ..

عند الزوال ، فاهتزت المدينة ، ووقعت ايضا ليلة الثلاثاء تليه بعد نصــف الليل ، فانزعج اهل المدينة كلهم وفروا الى الاجنة والبساتين ووقعت عدة مدن من جزيرة ، صقلية واعظمها واشهرها مدينة مسينة ، مؤسسة علــى المجاز الذي بين صقلية والبر الكبير ، لها مرسى عجيب ، قيل أنه لم يكن مثلها فى المراسى ،وبعث اهل هذه المدينة الى بلرم المدينة التى كنا فيهــا يستغيثون ان يبعثوا لهم الخدمة والميرة لان كان ما عندهم من القــوت وقعت عليه الجدران ؟ ووقعت بهذه الزلزلة ايضا عدة مدائن فى البــر الكبير فى الارض المقابلة لصقلية التى يسمونها (كلابرية) فمن قائل خمسون مدينة ، ومن مقلل ومن مكثر ، وأما الاموات فتركناهم ولم يضبطوا حسابهم فالمكثرون ، يقولون : مائة والمقللون يقولون عشرون الفا . وأما ما ضاع من الاموال فقد اضطربت فيه الاقوال ، وقد عمت العدو الكافر من هذه الوقعة المصايب واصمى بسنه السهم الصائب ، ومن بعد ما خرب الوجار ، أعقب التخريب ، حريق النار حتى ستر القتام مطالع ((ص 244 — 245)) الانوار فخذل الله حامية الكفر التى يعيى عدها الحساب وأهلكهم ، فكل اخذ تحت الردم رمسه فانصاب ، ونكست هذه المدينة رؤوس ابراجها التى بالسحاب تعصبت ولحماية الكفر تبرجت وتعصبت ، فاستأصلها العفاء وجللها غرقا البحر فاباد اهلها ومن نجا منهم نفــا .

وحقت عليهم كلمة الله التى لا ترد ولم ينفعهم قولهم (يا ليتنا نرد) وبقيت رسومهم ورموسهم وجسومهم ورؤوسهم عبرة للمعتبرين ، وآية للمستبصرين وتذكرة للمسافرين وقطع دابر الكافرين ، ولما حل بهم هذا الخطب الجلل الذي اكسب الفرق والوجل نزعوا عن الفرجات وما كانوا عليه من الهزل معتكفين ورجعوا وانابوا الى الله خائفين واغلقوا تلك الديار وفتحوا الكنائس والبيع واجتمعت الرهبان والاساقفة ووعظوا وحذروا مما وقع فى الايام السالفة ، وبعث الطاغية عدة مراكب الى اهل مسينة حاملة الاقوات والادوية والاطباء وآلة الخدمة والبناء ، وبعث اليهم كبير مالطة ايضا عدة مراكب فيها الاقوات والافرشة والمال النقد بقصد اعانة الطاغية ليتخذ عنده بذلك يــدا ، فاما الاقوات والفرش فقبلها منه وامــا المــال فــرده عليــه .

الصيــام عند المسيحيــين

وأما صيامهم الذي ذكرنا فانما هو امساك عن اكل اللحم وما يخرج منه مثل اللبن والسمن والجبن والبيض ، فأما اللبن وما ذكر معه فانهم يبيحون اكله باعطاء نحو الدرهم أو الدرهمين على كل فرد فرد من النصرى يشتري بــه (البولــة) (17) أي الاذن في اكلــه . « ص 246 — 247 » والا فلا، واما اللحم فلا يأكله الا المريض الذي يشير به عليه الطبيب ، وربما يباح للعسكر ان كانت حرب (18) ويأكلون ما عدا ذلك من السمك والخضــر والزيت والخبز ، فيأكلون في منتصف النهار أكلا ذريعا ويأكلون في الليــل ما خف ويشربون الماء مطلقا ويستعملون كطباق (19) ؟ وعدة صيامهــم ستة واربعين يوما فحيث يكملون أربعين يوما يستعملون الاعياء ويحكون فيها ما وقع للمسيح عيسى عليه السلام في زعمهم مع اليهود وقد ذكرت ذلك مستوفي في رحلتنا (الاكسير في فكاك الاسير) (20) .

نظــــام الارث

واما اراثتهم فاذا هلك هالك وترك مالا وأولادا فان ولده الكبير يحيط بجميع متخلفه وليس لاخوانه الصغار الا الاكل والكسوة كما كانوا في حياة ابيهم ومن أجل ذلك يترهبون لا رغبة عن الدنيا وعن طيب نفس (21) واذا كانت له اخت فانها يعطيها ما تتزوج به لان المراة عندهم تعطى مــــالا معتبرا للزوج لياخذها ولا يتزوج عليها بعد ولا يطلقها

---

17) القصد بالاسبانية الى (Bula) وهى كل أمر صادر عن البابا وكل رسالة موجهة لعموم النصارى

18) يقصد ابن عثمان بولة الحرب الصليبية (Bulla de la Crusada)

19) طباقو او طاباقــو (Tabaco) يعنى النبات الذى يستعمل في التدخين أو يستعمل مسحوقــــا ..

20) نشر هذه الرحلة سيادة الاستاذ محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامــس ضمــن منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي 1965 على ما أسلفنا .

21) يتحدث الدكتور مارتينو ماريو مورينو ان (حق البكورية) هذا كان يجبر الاصاغر على المهاجرة والارتزاق بحمل السلاح . المسلمون في صقلية 1957 ص 17 .

مغادرة ابن عثمان لصقلية المرة الاولى :

ولما اقمنا فى هذه المدينة ستة وعشرين يوما اتى رئيس المركب وقال : ان ريح السفر قد تنسم وثغره قد تبسم ، فتأهبنا للمسير واعتمدنا على من العسير عليه يسير ، وركبنا عشية ذلك اليوم ، وما درينا باننا نرجع علـــى انفسنا بكل عتاب ولوم ، لاننا توهمنا ان الريح موافق ، فغرنا فاستنفرنـــا فركبنا فسافرنا فاعترضنا فبان أنه منافق ، فما سافرنا الا نحو ثلاثين مـــن الاميال ، حتى اعترضتنا الاهوال ، وامواج كالجبال ، والرياح تقول « ص 248 ـ 249 » الى اين بالسنة الحبال ، فبقينا خمسة ايام نترجى مـــن هذا الهول العظيم انكشافه ، وننتظر أن ياتينا الله بريح خلافه ، حتـــى عظم الامـــر وتوقعنا الوقائع ، وخشينا الخوف الذي يحار فيه الرافع ونحن وسط ذلك المركب يضرب بعضنا ببعض لا نستطيع أكلا ولا شربـــا ولا صلاة نفل ولا فرض ، والقوم صرعى الاذقان لا يبينون كلاما ولا حرفا ، كانما سقاهم الحانوي صرفا ، واذاقهم الحمام حتفا ، فناديت على الرئيس وهو من الحيرة يئيس ، فقلت له ما الراي ، ما التدبير ، فانت بهذا الفن بصير ، وهل عندنا مع الشقة مسير ، فقال الا أن يأتينا به اللطيف الخبير ، فلما رايت تقلبنا فى البحر بلا فائدة وان لبثنا فيه محنة زائدة ، لجسومنا بالضرر عائدة ، وان مصادمة جبال الامواج فوق البحر الاجاج ، واليـــم العجاج لمن الحمق واللجـــاج .

العـــودة الـــى صلقليـــــة

فاشرت اليه بالميل الى مرسانا حتى يجعل الله لنا سبيلا ، واتخذت قوله تعالى وهو الذي يسيركم فى البر والبحر برجوعنا كفيلا ، فوصلنـــا المرسى ، بعد مكابدة خطوب لا تنسى ، فورد اهل المدينة مهنئين بالسلامة واعدوها من كثرة ما عاينوا من الاهوال كرامة ، وقالوا ، الدار الـــذي كنتم فيها لا زالت بصددكم فانزل اليها حتى يأتى الله بما يوافق سفركم ، فرأينا أن ذلك يتعين لما ذكرنا من أوخام المركب وتبين ، فنزلنا وأنزلنا من كان معنا من المسلمين .

حضور السفير حفلة استقبال بمناسبة عيد الملك كالـــوص الثالث

وفى عشية ذلك اليوم بعث الينا حاكم البلد واعيانها وقالوا ان فى هذه الليلة عندنا جمع كبير بدار الحاكم ، وهذه الليلة « ص 250 — 251 » ازداد فى الطاغية (22) ، وفى كل سنة عند وصول اليوم المذكور يكون عندهم عيد فيجتمع فى دار الحاكم الاعيان والاكابر من الرجال والنساء ويوقد بها الشمع الكثير الى الصباح من المساء ، فلم نجد بدا من ساعفتهم لكوننا فى ضيافتكم فتوجهنا اليهم بعد صلاة العشاء فتلقانا بباب الدار ولدان بأيديهم الشمع وصعدنا الى فوقى الدار لكون الجمع به فوجدناها بضياء الشمع تتوقد ، ومن كثرة ما فيها من النصرى يضل الانسان عن صاحبه ويفقده فنهضوا للسلام جميعا وأظهروا فرحا وترحيبا فلا تسمع الا اعادة للترحيب وترجيعها ، ثم أتى حاكم البلد فأعاد السلام ونهض بنا الى موضع أعده لجلوسنا فوق مراتب القوم وقالوا هذه مرتبة الحاكم لانه لا مرتبة فوق مرتبته فى هذه المدينة ولو لم تحضر لجلس بها ، فلما حضرت فانت أكبر منه مرتبة ، فتجلس بها ، فلما أخذت الناس مواضعها أتت الخدمة بأوانـــى الفضة ففرقتها على جميع من حضر ، ثم تلتهم خدمة آخرون بأيديهم كؤوس الاشربة المعقودة على الثلج فناولوها جميع القوم وبدأوا بنا حتى روى كل من فى المجلس واستكفى ، وقد جاوزوا الفا ، ثم شرع أهل الغناء والطرب فى استعمال نغمات رقيقة واصوات حسان من حسان لطيفة أنيقة ، بتعذيب القلوب خليقة ، ثم جعلوا يرقصون على الترتيب الاكبر فالاكبر كل رجل يرقص مع امراة مكافئها لها ، فاول من فتح الرقص الحاكم وامرأة مـــن الاكابر ، ذكر بعض الحاضرون من النصارى ان مدخولها كل سنة مائتا ألف ريال « ص 252 — 253 » اثنتان ، ثم تتابع الرقص وتوالى وحمى الوطيس فاتخذوا له مجالا حتى تغبن (23) الخودورش من عرقهن ما من وجناتهن تورد ، فنصع وتجدد ، والقوم فى غمرة ساهون وكل فريق بحسانه يباهون وهم عن الدنيا والاخرة لاهون ، ومهما تعب القوم اديرت عليهم الكؤوس

---

(22) القصد الى شارل الثالث الذى ازداد يوم 20 يناير ، وقد كان لقب الطاغية مستعملا قبل ان يعدل عنه الى اللقب المتفق عليه على ما قدمنا .

(23) كثيرا ما نلاحظ ان ابن عثمان يستعمل مثل هذا التركيب : تعبن عوض تعب

والاواني ، بلا مهلة ولا تواني ، فيستريحون ويشربون ، ثم يرقصـــون ويطربون ، وقد بالغ هذا الحاكم في الاكرام بما عم الخاص والعام حتـــى اشفقت عليه ، فقال بعض النصرى انه له مدخول كبير من قبل الطاغية على القيام بوظيف هذه الليلة ، فلما رأيت أن القوم قد خالطتهم من النوم عساكر ، وهم بين صاح وساكر (24) ، مستحسن لكل مليحة وشاكر ، ولا ناهي ولا ناكر ، علمت انها ليلة مناكر فشمرت للمسير في بقية الليل قبل ان يشمر قوم الاخرين الذيل ؟ وتركتهم نساء ورجالا مختلطين ، ومـــا ادري ما يفعل بعدي ، اظنهم يصبحون كالكلاب مرتبطين .

زيـــارة النـــادي ومبارزته في الشطرنج

وقد استدعانا ذات يوم احد الاكابر من هذه البلد وقال ان اعيان البلد طلبوا منك ان تاتي الى دراهم التي يجتمعون فيها لتنظرها ، وذلك أن لهؤلاء الاكابر دارا يجتمعون فيها نساء ورجالا كل ليلة بقصد التآنس والمحادثة ولها وكلاء يقومون بوظائفها من فرش وكراسي وايقاد الشمع وصنـــع الاشربة والحلاوي لمن يرد من الاكابر ، فمن أراد منهم أن ياتي فليات ومن ثقل عليه او كان له شغل فلا يلزمه الاتيان الا انه يلزم كل فرد فرد أداء قدر معلوم « ص 254 ــ 255 » راس كل سنة ومن مجموع ذلك يصرفون على الدار المذكورة ما ذكر مع اجرة الخدمة ونحو ذلك ، فلما طلبوا منا القدوم عليهم ، وقد سمعوا برؤيتنا في دار الاكابر بنابل ، ما امكن الا مساعفتهم فتوجهنا اليهم بالليل فوجدناهم بباب الدار وقوفا وقد أوقدوا بها شمعـــا كثيرا وفرحوا ورحبوا ترحيبا كبيرا وادخلونا الدار وأرونا جميع ما فيها ومقاعدها ومراقبها ، ووجدنا بها جمعا من الاعيان نساء ورجالا فبعضهم يتحدث وبعضهم يلعب اللعب المسمى بالكارطة بأوراق فيها حساب ووجدنا اثنين من الاكابر بينهما رقعة الشطرنج وهما يلعبان وقد اتفق آن كانا بالقرب منا فامعنت النظر في لعبهما فسالني احدهما هل نلعب هذا اللعب في بلدنا فقلت له : كثير ، فقال اهل تعرفه ، وقد كانت تقدمت به معرفة فقلت له :

24) قارن هذا مع حكاية ابن عثمان عن سهرة قضاها في « نابل » كانت بطلتها ابنة الوزير التي سحرت الحاضرين ، قال وهو يمهد للرغبة في الخروج « ولما رأيت القوم ممنوعين مـــن من الصرف ، للعجمة والتانيث في الوصف ...

نعم ، وما دريت انهم يحتمون علينا لعبه ، فما شعرت حتى طلب منى احد الخصمين اللعب معه فقلت له : لا ألعبه وهذه سنون بينى وبين لعبه فالح علي وجعل يتشفع ، وكلما امتنعت زاد فى الرغبة حتى أفضى به الحال الا ان جمع اهل الدار واتى بهم شفعاء ، فما امكننى الا اجابتهم لما طلبوا وقبول شفاعاتهم فيما رغبوا ، ليلا تظن بـــى الظنون ويتوهم المبطلون او يقال ان تأخري من كثرة الرجف أو فرار من الزحف ، وقد كانت تقدمت معرفة به زمن الصبـــا وقد علمت أن التعلم فى الصفر كالنقش علـــى الحجر ، لكننى خشيت من هذا الطالب ان يكون هو الغالب لان الحـــرب كما علمت دول وسجال وكم تلفت « ص 256 — 257 » فيها من الابطال والرجال ، فالاخذ بالاحوط أولى ، فعلا وقولا ، فنظرت الى جهة صاحبه ومسايرة ملاعبه فوجدته قد توجه عليـــه الغلب ، فما بقى الا لعبة أو لعبتان ويكون عليه المنقلب فقلت له : اكمل معكما هذا الزحف الذي شرعتما فيـــه وأتمم معك لعبه وأوفيه ، فقال هذا مغلوب ، فأرنا لعبا آخر من (بـــر العـــدوة) مجلوب ، يشير الى لعبنا معه من اول وهلة واحضر لذلك قومه وأهله فقلت له لا اتمم معك الا هذا الذي بينكما جبرا للخاطر كما وقصدي بذلك انه ان كان الغلب له لم يحكم به لانه حكم بغلبه وان كان الغلب لنـــا كان اضـــر عليه وانكى واضحك جانبنا وجانبه ابكى ، فجلنا فى ذلـــك الميدان بعساكر العيدان ، فأعطيته البيذق الذي فى طرف الميمنة وبقـــى مجال الرخ عاريا وهو يتمطى بما ظهر له من الغلب ساهيا فأتيت بالفرز الى الميسرة فى الوادي ، وفتحت طريقها واخذت لذلك استعدادي ، فما كان الا كجولان طرف ، واذا بالشاه مات بالفرز فى حمى الرخ فى الطرف ، فبهت وانقطع ، ورمى الاقطاع من يده ووضع وسقط واتضع وثدي الخزي رضع ، وظهر نصر الله ونصع ، ثم استغشى ثيابه كالقنفوذ اذا قبع ، وقلت هذا العب العرب الذي طلبت حتى جلبت من اجله الشفعاء الذين جلبت ، فاشكر لى ما بقيت وتذكرنى ما حييت ، وطافت به القوم يستفهمونه عـــن شجاعته ونجدته وبراعته ، وكيف وقع عليه الغلب لساعته بمحضر اسرته وجماعته ، وكلما رام ابداء عذر سكت ، ثم انتهر « ص 258 — 259 » وبكت ، وكان كمن جنى على حتفه بظلفه فبقى يشخص ببصره ويحدق ويقول : البلاء موكل بالمنطق ، هذا جزاء من تعلق بعسى التوقع ، وليث

التمنى ، ولعل الرجاء وأن من صمت نجا ، وعاهد نفسه ان لا يطلب البراز من عابر سبيل مجتاز على أوجـــاز .

زيـــارة كنيســـة سنتمرتيـــل

ومن الغريب ما رأينا بهذه المدينة كنيسة يقال لها (سنتمرتيل) (25) وهى كنيسة منعزلة كالدير بينها وبين المدينة نحو سبعة أميال مؤسسة بين جبال لها بناء عظيم وعمل جسيم يسكنها قوم من الرهبان من أبناء الاكابر فقط فلما وصلنا اليهم فرحوا بنا فرحا شديدا وأدخلونا الدار فاذا هى دار كبيرة على شكل المدرسة فى بيوتها وطرقاتها آلا أن طرقاتها واسعة وغاباتها شاسعة وبيوتها فى الكبر مثل القبب ومقاعد ورتب وقد أرونا جميعها وأدخلونا كتبهم فاذا هى خزانة بهية وفيها عدة من كتب المسلمين رحمهم الله ، وقفت على سيرة ابن سيد الناس اليعمري بخط شرقى قديم (26) وبعض كتب الطب ، ولا زالت الخدمة بهذه الكنيسة الى الان لانها كانت كنيسة فى القديم فلما استولى المسلمون على جزيرة صقلية هدموها وبقيت كذلك الى أن بناها هؤلاء القـــوم .

الثوب الذي لا تحرقه النار ، والمعروضات الاخــــرى . . .

ومن غريب ما رأينا بهذه الكنيسة ثوب لا تحرقه النار مستعمل من الحجر فأرونى الثوب واستبعدت أن يكون من الحجر ، فاخرجوا حجرا وفى وسطه شىء مثل القطن فقيل هذا الثوب من هذا وأرونا حجرا آخر وفيه شكل حوت ذهب لحمه وبقيت عظامه لازقة بالحجر وقالوا : انهم وجدوا هذا الحجر فى قنة جبل ويرون أن ذلك من زمن الطوفان حيث غمر الماء « ص 260 — 261 » الدنيا وستر الجبال ، ولما رجع بقى هذا الحوت هنالك وارونا

---

25) هكذا يرسمها سنتمرتيل فى الخطوطتين والقصد الى (San Martino)

26) لليعمرى سيرتان : الكبرى : عيون الاثر (مطبوعة) والصغرى (نور العيـــون) مخطوطة . الزركلى 7 ، 263 .

ايضا صبيين ملتصقين من صدورهما وصبيين آخرين ملتصقين من استاههما وصبيا له راسان وقد جعلوه فى آنية من الزجاج مملوءة بماء قيل انهم يتركونه فى تلك الزجاجة ستة اشهر وهو فى ذلك الماء ، ثم يخرجونـــه ويضعونه مع الاخرين ولا يعرض لهم فساد بعد ، وعندهم من الغرائب ما لا يحصى ولهم بذلك اعتناء كبير حتى الشقاق (27) وجدناه عندهم ميتا موضوعا مع ما ذكر لغرابته عندهم لكونهم لا يعرفونه وليس فى بلدهم ، وبقينا عندهم الى أن صلينا العصر وركبنا الى المدينة وطلبوا منا أن نبيت عندهم فابيت لانهم لم يتركوا اصحابنا أن يشتروا شيئا بل أوجدوا كل شيء من عندهم فثقل على ذلك وتوجهنا من عندهم .

كلــب يهــوى الموسيقــى !

ومن غريب ما رأينا بهذه المدينة جماعة من أهل الموسيقى ولهــم صندوق داخله جعاب وحركات يديرونها فتنشأ نغمات والحان ولهم كلــب يتبع الالحان بصوته ويرفع راسه ويتمايل مع الالحان يمينا وشمالا .

زيــارة دار اليتــامــى

ومن حضارة اهل هذه المدينة أننا دخلنا ذات يوم الى دار كبيرة معينة للصبيات اليتامى المهملين فتلقانا كبيرها وفرح بنا ثم أتت امرأة مقدمة مسنة على البنات التى بالدار المذكورة وارتنا مواضع نوم الصبيات فــى أماكن مستطيلا لكل واحدة سرير من الخشب ووطاء وغطاء ووســادة ثم أرتنا الموضع الذي يأكلون فيه وأرتنا المعلمات التى يعلمن الصبيات المذكورات الصنايع من الغزل والنسج والرقم والطبخ وغير ذلك من حرف النساء ، وقالت المقدمة أن الطاغية ينفق عليهن من عنده ويعطيهن الكسوة كل سنة ويعطى المعلمات أجرة تعليمهن ويمكثن البنات هنالك الــى أن يتزوجن فلا تخرج من الدار المذكورة الا وقد تعلمت صنعة من الصنايــع وتدفــع لزوجهـــا .

---

27) على ما يبدو ـ يقصد الشرقراق طائر يكون فى منابت النخيل والمروج بمقدار الهدهــد مرقط بحمرة وخضرة وبياض وسواد .

بكـــم صـــم ولكنـــهم يكتبون

ومن غريب ما راينا بهذه المدينة ثلاثة اخوة كل منهم ابكم اصم ويكتبون وقد استبعدت ذلك لما سمعته فاحضرتهم وكتبوا امامنا وهذا والله من الغـــريـــــــــب .

زيـــارة معهـــد ومدرسة للطـــب

ومن حضارة هذه المدينة ايضا اننى دخلت الى دار كبيرة « ص 262 — 263 » يتعلمون فيها الصبيان الذكور فلما دخلنا اليها مررنا بقببها وكل قبة فيها معلم وجماعة من الصبيان يتعلمون عليه فيتعلمون الحساب وعلـــم النجوم والبحر واللطين الذي هو بمنزلة النحو عندنا والفلسفة والطـــب الى غير ذلك ولهم اعتناء به كبير ، وقد ادخلونا خزانة كتبهم فرايت ما يتقضى منه العجب فى الاتقان والاحكام فقيل أن فيها نحو ثلاثين الف مجلد وقد صيروا على مرافع الخزانة نحو اثنى عشر الف ريال ، وهؤلاء الصبيان يبيتون فى ديار آبائهم وياكلون ويشربون وليس لهم من الدار الا التعلم فقط ولمـــا اشرفنا على سفلى الدار وجدناها كالجراد المنتشر بالصبيان وهم يصيحون فسألت الترجمان (28) عما يقولون فقال انهم يطلبون منك ان تشفع فيهم الى المعلمين ليسرحوهم فبعثنا الى المعلمين بذلك فسرحوهم ثلاثة ايام ، ورايت بهذه الدار العجب المبين رجلا وامراة كشطوا لحومها عن عظامهما وردوا العروق عليها كما كانت ، فالانسان كأنه فى شبكة من العروق حتى مصارينه انتزعوا عروقها وردوها على هيئتها ملتوية فى الجوف وكـــذا ذكره وانثياه ، والقلب ، انتعوه وجعلوا مكانه مثاله من شىء أحمر ، والقلب وضعوه فى حق واورنا اياه واوقفوا الرجل على الرخامة بعد ان الصقوا عظامه بعضها ببعض وركبوها على هيئتها قيد حياته ، وتلك الرخامة تدور فيقبل ويدبر وكذلك المراة ومعها جنينها بازائها كشط ايضا لحمه عـــــن عظامه وردت عليهـــا العـــروق .

---

28) يتاكد ترجمانه كان هو (فيلا) الذى تقدمت الاشارة اليه .

تأمــلات لابن عثمــان بعد مشاهدته
للهيــاكـــل المحنطـــــة

هذا خلق الله فارونى ماذا خلق الذين من دونه وقال تعالى وفى انفسكم افلا تبصرون ، سمع اعرابى اختلاف المتكلمين « ص 264 — 265 » فى مسجد البصرة فى الانسان وانتزاع كل واحد الحجة على رايه فخــرج وهــو يقـــول :

من كثرة التخليــط فى من انـــه ؟   ان كنـــت ادري فعلـــى بدنـــه

فمن عجز عن اقرب الاشياء منه فكيف يقدر على ابعد الامور حقيقة عنه ، من عرف نفسه عر فربه فالعجز عن الادراك ، والغاية التى لا تدرك يجب ان تترك ، فهو على ما يليق لجلاله تعالى من واجب ومستحيل وجايز اللهم ايمانا كايمان العجائز ، ولله در القايـــل :

كـــل مـــا ترتقـــى اليـــه بوهـــم
مـــن جـــلال وقـــدرة وسنـــاء
فالـــذي ابـــدع البريـــة اعـــلا
منـــه سبحـــان مبـــدع الاشيـــاء !

فحسب العاقل ان يتفكر فى نفسه ولا يتعدى ابناء جنسه ، قيـــل لاعرابى بم عرفت ربك قال : البعر تدل على البعير والروث يدل علـــى الحمير ، واثار الاقدام تدل على المسير فسماء ذات ابراج ، وبحار ذات امواج اما يدل ذلك على العليم القدير :

قـــد يستـــدل بظاهـــر عـــن باطـــن
حيـــث الدخـــان يكـــون موقـــد نـــار

زيارة ديـــر يحتوي على مقابر واقفة

ودخلت ذات يوم الى دار منعزلة يسكنها الرهبان ذوو اللحاء الذين يلبسون الخشن ويسمونهم ((كبشن)) (29) فيزعمون أنهم لا يذخرون شيئا وانما يعيشون من الصدقات وما فضل عن أقواتهم يتصدقون به ففرحوا بنا وارونا دارهم كلها بما اشتملت عليه من مواضع النوم والاكل وقد رأيتهم ياكلون ومن آداب اكلهم أن يكون أحدهم يقرأ عليهم كتابا وهـــم يأكلـــون ((ص 266 ــ 267)) ويستمعون ثم انحدروا بنا الى سفليها فاذا فيه موتاهم وقوفا مع الجدران جعلوا فيها أقواسا على قدر قامة الانسان داخلة فى جوف الجدران بنحو ذراع والموتى مصطفون فى تلك الاقواس وكل واحد معلقة فى عنقه خشبة مكتوب فيها اسمه لان أجسامهم تغيرت ، وفى عنق كل منهم حبل دليل على ترهبه يسحب به الى جهنم ويجر به ، وفى تلـــك الجدران بيوت لها ابواب صغار محكمات فالميت اول أمره يدخلونه فى أحد البيوت المذكورة ويجلسونه على حجر مثقوب ويغلقون عليه ويبقى هنالك ستة أشهر حتى تسيل مايته ويذهب نتنه ، ويخرجونه ويوقفونه فى المواضع المذكورة ومن تساقطت عظامه يجمعونها ويضعونها فوق مرافع ومن كان من اكابرهم يضعونه فى صندوق . وقد أرونا صفوفا من الصناديق .

زيـــارة الـــراهـــبـــــات

وقد رأينا بهذه المدينة عدة من ديار الراهبات الموخات (30) فالكلام فى خبرهن واحد وقد تقدم فلا نعيـــده .

المـــدرســـة الصناعيـــة للبنات

وهنالك دار اخرى يجتمعن بها بنات الاكابر وليسوا براهبات وانمـــا يضعهن هنالك اباؤهن بقصد الصون وتعلم الحرف الى ان تتزوج وتخرج .

---

29) والقصد الى مقابـــر (Cappuccini) (Catacombe) التى اشرنا النها سابقا .

30) القصد الى مونخات (Monache) الراهـــب

زيـــارة كنيســـة بظاهـــر المدينة

ومن غريب ما راينا بهذه المدينة كنيسة في قرية من عمل بلرم بينهمـــا نحو ثلاثة اميال (31) وهي التي تقدمت الاشارة اليها سابقا عند ذكـــر طواغي الكفرة في خبر (كليلم البون) الذي أستخرج المال الذي دفن ابوه وبنى به هذه الكنيسة وحبس الباقي عليهـــا . فلمـــا وصلناها تلقانـــــا رهبانها وفرحوا بنا ((ص 268 — 269)) وأرونا من عجايب ذخائرها وما بها من الصور الذهبية والفضية ما لا يأتي عليه الحصر ، وأغرب من ذلك صنائعها الفائقة وبدائعها الرائقة فجدرانها كلها مرصعة بالرخام مـــــن قدر الشعرة فما دون ، وفي ذلك من صور الادميين بالترصيع المذكـــــور ما يحار فيه العقل ، والجميع مموه بالذهب ، وما زال الى ذلك مع تقادم الاعصار ، هذه الكنيسة من أشهر كنائس النصارى وأبدعها ، ولما بناها ((كليلـــم البـــون)) كما ألممنا به سابقا (32) من المال الذي اغتصب ابوه ودفنه ، وحبس ما بقي من المال على الكنيسة المذكورة ، من مستغلاته مال معتبر ضل عني مقداره بتلف المبيضة (33) وبقي ذلك جارية عليها الى زمن هذا الطاغية ((فرناندو)) الموجود الان فقال لهم ما بال هذا المال محصن بلا فائدة فعين للكنيسة ما يقوم بها وحاز الباقي وعين له مصرفـــا في مصالحه (34) ، وقد ارونا صندوقا من الحجر في هذه الكنيسة وفتحـــوا

---

31) القصد الـــى مـــوقـــع (Monréale) السالـــف الذكـــر

32) يلاحظ ان ابن عثمان يستعمل نعت (البون) بمعنى المليح ، هذا وقد تقدمت الاشارة فعلا عند حديث ابن عثمان في نابل (ص 126 — 127 وما يليها) الى انه بعد روجيـــرو الذى انتزع صقلية ومالطة وتملك نابل في العشرة الثانية ، أو الثالثة ، من المائـــــة الثانية عشرة من المسيح ... بعده ، تولى روجيرو الثاني وبعدها غليام القبيح الـــذى خلفه ولده غليام المليح ، وقد بقيت ، يقول ابن عثمان ، المملكة في أعقابهم الى ان اخذها امبراطور المانيا فريديريك الثاني ثم الفرانسيس ... حتى انتهى آمرها أخيرا للاصبنيول الذي انتزعها من الفرنسيس على يد فرناندو كاطولبك،ولما مات هذا تولت ابنتهايزابيل ثم ولدها كارلوص كينطو ، وتولى بعده فيليب طويس ثم ولده فيليب كوارط ثم كارلوص سكوند الذى مات من غير عقب وكان له اختان واحدة عند الامبراطور والثانية عند ملك فرنسا خال ابيه فدامت الحرب ثمان عشرة سنة وفي خلالها انساب ملك سردينية فيكتور أميديي فتملك صقلية واستخلصها وسار فيها سيرة حسنة ...)) هذا ما كان اشار اليـــه ابن عثمان ، وهو يتطابق مع ما سيردده من بعد (صفحة 272 — 273) .

33) يؤكد ابن عثمان مرارا تلف المبيضـــة .

34) يلاحظ من ابن عثمان ان الامير فيرنادو ، كان يتصرف في صقلية ايضا ولو انه لم يحمل بعد لقب (ملك الصقليتين)

عليـــه فاذا فيه شلو (كليلم البون) بانى الكنيسة وفتحوا صندوقا آخر فيه ابوه « كليلم المال » (35) الذي غصب المال لان دار الملك عندهم فى صقلية . واما (نابل) فانما يجعلون فيها آلخلايف عكس ما هم عليه اليوم ولذلك يدعون طاغيتهم سلطان صقلية .

عـــودة لـــوصـــف صقليـــة

وهى جزيرة كبيرة دائرتها سبع مائة ميل ، مثلثة الشكل وهى فى البحر الشامى (36) قريبة من بـــر النصري يقابل طرفها بلاد (كلابرية) من عمل (نابـــل) بينهما مجاز ضيق يقال له بغاز أي مجاز مسينة أضافوه الـــى هذه المدينة لكونها على ساحله وهى التى وقعت بها الزلزلة التى تتدم ذكرها وهذا المجاز ضيق صعب للغاية يدور به الماء ، قلما تنجو به المراكب وبه أناس « ص 270 — 271 » ساكنون فى قرى على ساحليه لهم معرفة بذلك المجاز فاذا أقبل المركب ليلا أو نهارا وارادوا العبور فانه يخرج مدفعا علامة على أنه يطلب من يخرج اليه ليجيزه فتخرج له الفلايك وفيها أحـــد العرفاء فيركب فى المركب ويتولى الامر والنهى فيه الى أن يجيزه ويعطون على ذلك جعلا معلوما ، وبهذه الجزيرة من الخيل ما لا يحصى ، وما رأيت أسمن من غنمها وقد كنا فيها زمن الشتاء ، وقد أخبرنى بعض أصحابنا انه وزن شاة فوجد فيها سبعة وخمسين رطلا كبيرا (37) زنة كل رطل ثلاثون ريالا ، وبها الغنم المعروفة بالشعيبية ذوات الذيول (38) ، وأما كثـــرة زرعها فشىء معلوم مشهور يجلب منها الى ساير البلاد النصارى .

---

35) يلاحظ أن ابن عثمان استعمل لقب (المال » : القبيـــح ...

36) كان الرومان ايام غزوهم يسموه (بحرنا نسبة اليهم (Mare nostrum) ويسمى بعـــد الفتح الاسلامى البحر الشامى لانه ينفذ الى الشام ، وقد جاءت تسميته اخيرا بالبحـــر المتوسط تجنبا للحساسيات فيما يبدو .

37) ما يزال لفظ (الرطل)) معروفا فى بليرم (Rotolo) كعدد آخر من الكلمـــات ذات الاصل العربى .

38) يعطينا ابن عثمان اسما لنوع الغنم الذى يمتاز بليته والذى يوجد فى الشرق العربى وهو يقابل النوع المغربى ذى الذيل الرقيل المعروف فى اوربا باسم (المرينى) نسبة لملوك المغرب السابقين من بنى مرين .

مرتـــب الوالى وما ينفقه فى المبردات

ورايت ذات يوم نصرانيا من . . . فسالته عن مقدار مدخول الطاغيــة كل سنة فقال ما بين أربعة ملايين والمليون الف ريالا ، وقد أخبرنى انهـــم ينفقون من الثلج الذي يبرد به الماء فى هذه المدينة . . . مائتى الف ريـــال ويتعجبون . . من كثرة الثلج في بلدنا . . ولا نبرد به الماء ، وتعقد بـــه شربة عندهم . . وهم يجلبونه من البلاد التى . . الى البلاد التى ليس بهـــــــــا . .

تاريخ فتح المسلمين لصقلية ونزوحهم عنها

وكان للمسلمين رحمهم الله بها جهاد عظيم ورباط جسيم وكان أول فتحهم اياها فى خلافة مروان بن الحكم (39) ، نزل المسلمون وأول قدومهم عليها فى بلد منها يقال لها « سرقوزة » (40) على ساحلها مما يقابل ناحية مالطة وكانت صقلية لذلك العهد بيد « لقريق » (41(وكان ملكهم قسطنطين، وقاعدة ملكه القسطنطينية العظمـــى وقـــد ورد على صقليـــة قبـــل ورود المسلمين عليها وتفقد أحوالها ورجع الى القسطنطينية وبعد ما سافر منها نزلت بها عساكر المسلمين فخذل الله الصليب ومن تولاه ونكس على راسه من اعلاه ونصر دينه القويم بما انعم به على المسلمين من الفتـــح واولاه ، وتتابع الفتح وتوالى بمدد الله تعالى وعاين الكفر من ثبات المسلمين وحماة الدين الابطال ما لا يطاق ولا يطال الى أن أتى الفتح على اكثرها ،

---

39) يوجد على هامش ص 271 تعليق ينقل عن صاحب الخميس انه فى سنة 82 = 701 م ثم فتح صقلية على يد عطاء بن نافع فى خلافة عبد الملك بن مروان ، ويحاول المعلق ان يجمع بين الروايتين ، ان صح فتحها أيام مروان ، بان جيشا توجه اليها زمن مروان ، هذا ومن المعلوم ان النزول الحاسم بها كان على يد اسد بن الفرات مستشار زيادة الله فى (مزارة) ربيع الثانى 212 = يونيه 827 .

40) قدر للسفير ابن عثمان ان ينزل بهذه المدينة لدى رحلته اللاحقة الى الديار الشرقية التى تحمل اسم (المعلى والرقيب » ، وقد تحدثنا عنها .

41) القصـــد الى الاغريـــق .

ونادت السنة الكفر يا لثارها ، وبقى من بها من النصرى تحت حكـــم المسلمين وذمتهم وأداء الجزية ((ص 272 ــ 273)) عن انفسهم واولادهم وآبائهم وامهاتهم ووصل خبر هذا الفتح لاقاصى البلاد وبما وقع من القتال والجلاد فغضب قاعدة الكفر الذي يدعونه (البابا) على قسطنطين وأحضر الاساقفة واشهدهم ان لم يراجع صقلية لمن المسخوطين ، وبقى المسلمين على حالتهم بالجزيرة ، وقد أذاقوها شديد النزال متجرئين علـــى الكفـــرة دعواهم فيها نزال ، يقبضون الجزية من الاكابر والاصاغر يؤديها كل عن يد وهو صاغر ، الى ان تولى الوليد بن عبد الملك ووجه موسى بن نصير الى افريقيا وما وراءها من بلاد المغرب فأجمع الكفار امرهم وديوانهم على انه قد امكنت الفرصة من صقلية بكون عساكر المسلمين توجه منها حظ مع موسى بن نصير وانه الان فى محاربة لذريق آخر ملوك القوط باصبانيا ، فجردوا عساكرهم وشحنوا المراكب واتوا الى صقلية فنزلوا بها ووقع بينهم وبين المسلمين حروب كثيرة وأتى المسلمين المدد وانهزم المشركون اقبـــح هزيمة وولوا الادبار وجد المسلمون فى طلبهم فقطعت العساكر البحر الى البر الكبير (رومة) وأغاروا فى جميع بلاد (ليطالية) (42) ودوخوها واذاقـــوا اهلها شديد النزال وبلغت العساكر المسلمين الى تخوم البلاد حتى الجأوهم الى اطرافها ، وخلصت صقلية للمسلمين وبقيت بأيديهم الى مضى احـــدى عشـــرة مائة سنة مـــن المسيح فظهر عـــدو من أعـــداء الله الكفـــرة يقال له الكندرجير (43) من بلاد يقال لها ((نورماندية)) فأتى بعساكره ونزل فى بلد من بلدان صقلية يقال لها (سرقوزة) ، ومنها كان دخول المسلمـــين واشتد كلبه ((ص 274 ــ 275)) عليهم ولم يات المسلمين مدد من بر العدوة

---

42) يكتبها الناسخ لطاليـــا .

43) كان ظهور روجيرو (Ruggero) على الحكم العربى منذ سنة 1091 م أى قبـــل التاريخ الذى ذكره ابن عثمان سواء هنا أو اثناء حديثه وهو فى نابل عندما قال ان روجير انتزع صقلية فى العشرة الثانية أو الثالثة من المائة الثانية عشرة من المسيح ـــ راجع التعليق رقم 1ورقة (268 ــ 269) ـــ

بسبب الفتن التيوقعت بين المسلمين (44) ، وضايق العدو الكافر بالمسلمين وجعل يستخلص المعاقل والحصون والمدن من سكانها والافها ، الم تر انــا ناتى الارض ننقصها من اطرافها ، الى ان الجا المسلمين الى بلد يقال لها بلرم وهى التى تقدم ذكرها ، وحاصرها حصارا شديدا واستخلصها من يــد المسلمين بعد حروب كثيرة ومات من النصرى ما لا يحصى وفر المسلمون وتبعهم العدو الى ان الجاهم الى مدينة يقال لها « مسينة » وهى التى وقعت فيها الزلزلة المتقدم ذكرها ونزل عليها بعسكره وضايق اهلها ففــروا فى المراكب فى البر واخذ البلاد ، وذلك آخر عهد المسلمين بصقلية وبما فيها من البـــلاد

حسرة ابن عثمان على ما فعله النورمانديــون

والارض لله يورثها من يشاء من العبــاد .

وليس لامــر حاول اللــه جمعه مشتت ولا ما شتت الله جامــع

وقــال آخــر :

تريد النفس ان تعطــى مناهــا ويابــى اللــه الا مــا يشــاء

---

44) يشير ابن عثمان الى العمليات التي كان يقوم بها الموحدون ضد المتساهلين فى تسليم المهدية وطرابلس لروجــار حاكــم صقلية وقد اشار ابو الحسن ابن عياش الى هــذا فى شعــره :

خفــت صقليــة جهــلا فوقرهــا خرق الحسام وطيش من القنا السلب
وشيمت ملكها للحــرب محتفــلا لما دعت اختها اختها بالويــل والحرب

ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ، تحقيق ، – التازى – بيروت 1964 ص 162 .

وقـــال آخـــــر :

نفسى تنازعنى فقلت لها قـري — موت يريحك او صعود المنبـــر
ما قد قضى سيكون فاصطبري له — ولك الامان من الذي لم يقـــدر
ولتعلمى ان المقدر كـــائـــــن — لابد منـــه صبرت او لـــم تصبر

ومنهم قولهم الهارب من المقدور كالمتقلب فى كف الطالب ، ومن ذلك ما قال يزيد بن المهلب لموسى ابن نصير : انت ادهى الناس واعلمهم كيف طرحت نفسك فى يد سليمان فقال ان الهدهاد يهتدي الى المـــــاء فى الارض الفيفا وينصب له الصبى الفـــخ . « 276 ـــ 277 » بالدودة او الحبة فيقع فيه ، وقال الآخـــر :

ولو جرت الامور على قياس — لوقـــى شرها الفطن اللبيب

لكن أولى ما يتسلى به عن هذه المصايب كتاب الله ، قال الله العظيم: ما اصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبراها ان ذلك على الله يسير لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والامر له من قبل ومن بعد .

الآثار الاسلامية التى رآها ابن عثمان

وما رايت بهذه الجزيرة من آثار المسلمين الا مسجدا كبيرا غير عـــن عن حاله (45) ، وصهريجا بخارج المدينة كبيرا كانوا يدخلون اليه ماء ساقية

---

45) نظن ان هذا هو دير القديس يوحنا الذى بناه روجيرو الثانى ودشنه القديس المذكور كما تقـــدم

بازائه فيمتلىء ويجعلون به المراكب الصفار بقصد الفرجة (46) وبقربه حمام (47) واثر بناء اظنه منزها كان مشرفا على ذلك والنصرى الى الان ينسبون ذلك لمروان (48) .

مناظرة ابن عثمان مع الراهب

وقد تلاقينا ذات يوم مع راهب من رهبان هذه المدينة يتكلم بالعربية فدار الكلام بينى وبينه حتى قلت له ما تقولون فى المسيح ، قال من الله ، فقلت له ، فما مقصودكم بذلك ، تقولون أنه بعض منه قال : لا ، قلت ولده على سبيل التناسل ، قال لا ، قلت له تقولون منه على سبيل الاستحالة ، قال لا، قلت له فمابقى الا ان تقولوا كما نقول هو منه أي من صنعه ومن خلقه فهل بقى غير ذلك ، فقال هو الله حل فى جسد عيسى ولو كان كما تقولون لكان له أب فقلت له يلزمكم من باب أولى وأحرى أن تقولوا فى آدم ما قلتم فى عيسى وكذا ما يتوالد من الحشرات من العفونات والتراب يلزمكم على هذا أن تدعوا فيه ذلك حيث لا اب لها وكذا ناقة صالح التى خرجت من صخرة تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا « ص 278 — 279 » فانقطع ، ثم جاريته فى كلامه وقلت له لم اتحد اللاهوت بالناسوت كما زعمتم فقال أراد ان يخلص العالم من خطية آدم ، فقلت له فهل علم ما وقع به فى زعمكم ام لا فقال علمه فقلت هذا يأباه العقل ، قال فان قلت لم يعلم ، قلت اقول لك : فلمن ادعيتم حاصله كل ما لهم من التيقظ وحدة النظر فى امور الدنيا هم على خلافه من امور الدين ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك .

---

46) البحيرة فيها يقول الشاعر عبد الرحمن الصقلي الاطرابنشي المتقدم الذكر :

فوارة البحرين ، جمعت المنى	عيش يطيب ومنظر يستعظم
قسمت مياهك فى جداول تسعة	يا حبذا جريانها المنقسم
يا نخلتى بحر بلرم سقيتها	صوب الحيا يتواصل لا يصرم
فى ملتقى بحريك معترك الهوى	وعلى خليجك الغرام مخيم

47) كان هذا الحمام من مرافق أحد القصور الكلبية على ما يؤخذ من الدكتور م. م. مورينو.

48) ينسب مؤرخو صقلية هذا المنزل (*Villa*) الى جعفر الكلبى وقد وسعه روجيرو الثانى بينما يصر ابن عثمان على أنه من آثار مروان ...

ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين ، اللهم احفظ علينا العقل والدين حتى نلقاك بما ترضاه منا يوم الدين بجـــاه أنبيائك ورسلك وممن اجتبيت من عبادك المهتدين .

وداع ابـــن عثمـــان لصقليـــة

وكان مقامنا في هذه المدينة ثلاثة أشهر وثلاثة ايام ونحن في انتظـــار الريح الشرقي لان مدة المقام كانت معظم الشتاء دجنبر ويناير ثم اتانا الله تعالى بريح شرقي فقدم علينا رئيس المركب وأعلمنا لنتأهب للسفر فـــورد اهل البلد لوداعنا وشيعونا وكان ركوبنا البحر من المدينة المذكورة سادس عشر ربيع الثانى سنة تاريخه (49) ، وأدامه الله تعالى علينا ، ستة ايام قطعنا فيها الاماكن الصعبة في البحر وجاوزنا الجزر كلها صقلية وسردانية وميورقة ومنرقة ويابسة واعترضتنا ريح غربية مانعة من السفر حابسة ، وقد كنا في مقابلة قرطاجنة فعزمنا على ان نلتجىء اليها ونتخذها من اهوال البحر جنة ، ثم عللنا النفس بعسا ولعل الرجاء بأن يهب الله لنا من ذلـــك فرجا ويجعل لنا من كل ضيق مخرجا « ص 280 — 281 » فدام ذلك الريح يومين كانهما عامين خشية ان يردنا الى فيافى وقفار .

واشد ما يكون الشوق يـــوما اذا دنت الديـــار من الديار

فارانا الله قدرته ثم ارانا من فضله عفوا ، والدهر كما علمت تـــارة كدرا وتارة صفوا ، ثم اتانا الله تعالى بما يوافقنا من الرياح وحملنا مـــن رحمته تحت جناح ثم أرخينا امامها العنان في هناء وأمان فارسينا بمرسى طنجة وكان مدة سفرنا اثنى عشر يوما .. »

49) كان كذلك يوافق 21 مارس 1783 .

النص الكامل المتعلق بصقلية ممـا في :
رحلة ابن عثمان المسماة : « احراز المعلى والرقيـب »

... وسافرنا من قرطاجنة (باسبانيا) الا ان الريح كان غير موافق ، فبقينا نتردد به في البحر شهرا ويومين حتى تغير الماء وتأذى الناس مـن شربه ، فدخل بنا رئيس المركب الى مرسى من مراسى صقلية (50) يقال لها سرقوزة مؤسسة على الناحية الشرقية منها (51) وهى بلد قديمة متوسطة، الى الكبر أميل وهى اي المدينة المذكورة من المنعة والحصانة في الغاية التى ليس بعدها شيء لانها مؤسسة على طرف من الارض داخلا في البحـــر ، وقطعوها عن البر باربع خنادق وأدخلوا في كل واحد البحر حتى نفذ الـــى البحر من الناحية الاخرى ، وجعلوا لخروجهم الى البر قناطر يعبرون عليها على كل خندق قنطرة ، وبالليل ترفع القناطر بالسلاسل وتبقى البلاد مقطوعة دونها اربعة أبحر ، وهذه القناطر احدثها أحد طواغي الاصبنيول يقال لـــه كارلوس لنبرطور (52) ، لان هذه الجزيرة وكذا (نابل) وعملها كانت تحت حكمه ، ومن هذه المدينة كان دخول المسلمين على عهد بنى أمية حتـــــى تملكوها وبقيت في أيديهم نحوا من ثلاثمائة سنة (53) ، ثم دخلها الكفار عليهم ايضا من هذه البلدة ولله الامر من قبل ومن بعد والارض لله يورثها من يشاء من عباده . فلما كانت معلومة للدخول حصنها الطاغية المذكور ، وقد ألممنا بذلك مبينا في رحلتنا المسماة « بالبدر السافر » (54) ، وبها زيتون كثير ، فقد ذكر حاكمها ان بها من المعاصر خمسين معصرة وانهم يمكثون في عصر زيتونها شهرين ، ولاهلها بشاشة وطلاقة وانبساط ، فقد فرحوا بنا فرحـــا

---

(50) كان ذلك يوم 10 شعبان 1200 = 8 يوليه 1786 .

(51) نجد هنا ابن عثمان يرجع الى الاصطلاح المعروف فيذكر ان المدينة تقع شرقا ...

(52) القصد كارلوص الخامس : الامبراطور الالمانى الشهير الذى ساد اروبا في القـــرن السادس عشر وكانت له حروب مع ملوك عصره خصوصا ملك فرنسا فرانسوا الاول والخليفة العثمانى ، ولد سنة 1500 وتوفى 1558 .

(53) يعتمد ابن عثمان على ما اسلفه من معلومات في (البدر السافر) سواء بالنسبة للنزول بالجزيرة او الخروج منها .

(54) البدر السافر هو الذى نقلنا منه مقطعه الطويل عن صقلية . وقد تناول كما هو معروف أمر سفارته اليمالطة ونابل لافتداء الاسرى المسلمين ...



الصفحتان : 12 ـ 13 ـ من مخطوطة (احراز المعلى والرقيب) المحفوظة فى المكتبة الملكية ، وقد ابتدأ السطر الاول بتاريخ الوجود الاسلامي بصقلية .

كثيرا وطلبوا منا النزول الى بلادهم واستدعونا لذلك مرارا فابينا عليهم لكوننا انما دخلنا الى مرساهم بقصد حمل الماء على جناح سفر مستنفرت ، فلما راوا امتناعنا جاءوا ذات ليلة آلى المركب بقضهم وقضيضهم ، واصحبوا معهم من المغنين بالحانهم وقريضهم ، نساء ورجالا مظهرين حســن رواء وجمالا ، واعتد لذلك رئيس المركب بما يناسب مقتضى عوائدهم ، فكسى السفينة وضللها وعلق بها من منارات البلور للشمع ما زينها وجملها حتى خرجت السفينة عن شكل السفائن وصارت فى حساب مقاعد المدائن ، وبعد ان غربت الشمس أتى اهل البلد ومعهم النساء (الضامات) (55) وهذا اللقب على كونهن من الاكابر من العلامات ، ونصبت للقوم كراسى فقعدوا عليها ومتكئات استندوا اليها ، وصعد اهل الفنا فوق مرتبـــة ، واخذوا فى استعمال الحانهم مرددين كل شكوى فى الصبابة ومعتبة ، ثم طيف عليهم بكؤوس من الحلاوى معقودة بالثلج بقصد ابراد اللهيف ، لان الفصل كان فصل مصيف ، ثم شرعوا فى الرقص رجالا ونساء ، من غير تأخير ولا نسا ، لان ذلك كان عندهم من العوائد ، ومما لا ينخرم من القواعد وباتوا بليلة ذاتمزاح ، لا يعبئون بمن غدا أو راح ، من كل فتانة الطرف، كثيرة الدلال والظرف ، ممهدة مدللة للصبابة على حرف ، وردةعن اللمس مصونة ، بيضاء مكنونة ، فلا ترى اعجب من ليلتنا ، ظباء القفار فوق امواج البحـــــــار .

ولما حمل رئيس المركب الماء من سرقوزة سافرنا منها فى رابــــع شهر رمضان الاعظم (56) ..

الربـــاط د. عبد الهادي التازي

---

55) الضامات اى السيدات ومفرده ضامة (DAMA) ، ومنه لعبة الضامة عنــــد المغاربة وهى ماخوذة عن الاسبان .

56) يعنى من عام 1200 هـ وهو يوافق يوليه 1786 .

الله معَنا ...

عمر بهاء الدين الأميري

« . . . ثانى اثنين ، اذ هما فى الغار ، اذ
يقول لصاحبه : لا تحزن . . . ان الله معنا ... »:

غاض من ذاكرتى عهد الصبا . .
والشباب الغض . . . الا غبرات

قطع النسيان عمرى مزعا . . .
فكأنى عشت عمرى فترات

وانمحى من خلدى جل الذى
خضته فى جلدى من غمرات

فكم قص على الصحب من
طرف الأخبار ، عنى ، شذرات !

وأنا أسمعها مبتسما
وبقلبى من أساه جمرات

بقيت لى من حياتى صور . . .
عبر حينا . . . وحينا عبرات . . .

●

يا الاهى ، صحف العمر انطوت
فى سراب يحجب العذب الفرات

أهو الطى الذى ليس له
أى نشر ، والليالى كدرات ؟ !

أم ترى أنشق من نشر الشذا
نفحات . . . وأنا فى السكرات ؟ !

آه لــــو مــن زحــمـــــة الـــــلأواء

أبــز آنـــاء صــفـــــاء نــضــرات ؟

أغــمــض العــين ، لأرتـــاح ، ولــو

حلمـــا ، فى ذكــريـــات عطــرات . . .

●

يـــا الاهى ، جاهلـــيـــات . . . ومــ

فى يـــدى كفء الوغـــى مـــن قـــدرات

للريـــاح الهـــوج ، فى الـــيـــم ، دجى

عبـــر شـــدق المـــوج تعلـــو هـــدرات

واه ، مـــا أقسى ، فـــلا مـــرسى ولا

رهـــو ، والـــزورق أمــســـى ثغـــرات

والامـــانى الـــتـــى كـــان لـــهـــا

من كيـــانى ، فى زمـــانى ، زهـــــرات

كـــتمـــت أنـــفـــاســـهـــا كـــف مـــن

الواقع المـــر فعـــادت زفـــرات . . .

يا الاهى ، جف فى حنجرتى
ريقها . . . هل لأوامى قطرات ! ؟

وأنا أمضى على الشوك ولا
أنثنى ، بين صخور نخرات

علنى ، والعوسج الشائك يدمى
يدى ، أجنى بعيض الثمرات . . !

ولقد أشحذ عزمى ، وأنا
موثق الخطو ، سبوح الخطرات

وبنفسى ، ملء صبرى والرضا ،
غصص تذهب نفسى حسرات

بحداء من حديث « المصطفى »
« اذ هما فى الغار » حى النبرات :

« معنا الله . . . فلا تحزن » . . . أجل
انه الله . . . مقيل العثرات . . .

الربـاط — عمر بهاء الدين الاميرى

المغرب والأندلس
في كتاب صبح الأعشى
-3-

محمد ابن تاويت

وفى الصفحة 70 وما بعدها ، تعرض للاسلوب الثالث ، أن تفتتح المكاتبة بلفظ « أما بعد » ، اما بعد حمد الله او أما بعد فالحمد لله ، ثم ، فانا كتبناه اليكم من موضع كذا ، ثم يتخلص الى المقصود ، ويختم بالدعاء فالسلام ، كما كتب ابن الخطيب عن سلطانه من الاندلس ، أما بعد حمد الله محسن العواقب ، ، ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ، ، ، والرضا عن آله ، ، ، فانا كتبناه اليكم ، ، ، من حمراء غرناطة ، ، والحمد لله على ما توالى من الالطاف والعجائب ، وقد وصل كتابكم الذي أكد السرور وأصله ، ، ، تعرفون ما أتاح لكم اللطيف الخبير ، ، ، من الصنع الذي اتسق نظامه ، ، ، وانكم من بعد الكائنة التى راش لطف الله بها وجبر ، ، ، جيشتم الجيوش المختارة ، ، ، يقودها الخلصان من الوزراء ، ، ، فكتب الله ثبات اقدامها ، ، ، فكان لحزبكم الظهور ، ، وان من بغى عليكم ، ، ، من شيوخ الغرب المجبلة ، ووجوه الخدم المنتمية الى حسن العهد المنتسبة ، تحصل فى حكم استرقاقكم ، ، ، وربما أسفر المكروه عن المحبوب ، ، ، والله يحملكم على ما فيه رضاه ، ، ، فسررنا بما اتصل لكم من الصنع واطرد ، ، ، وكتبنا نهنئكم به هناء مشفوعا ، ، ، والذي

عندنا من ودكم أعظم من استيفائه بالمقال ، ، ، والله يصل سعدكم ويحرس مجدكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتـــه .

وفي الصفحة 91 وما بعدها ، جاءت الجملة الثانية في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك المغرب اليهم ، اختير منها أربعة أساليب الاول أن تفتتح المكاتبة بلقب المكتوب اليه ، مثل المقام أو الجناب ، ثم يقال : مقام فلان ، ثم السلام ثم البعدية والخطبة ثم المقصود ، ويختم بالدعاء والســـلام ، كما كتب ابن البناء عن ابن خلاص الى الواثق ابن هود ، جوابا عـــن كتـــــــــــاب :

المقام العلى الواثقى العاصمى ، ، ، مقام مولانا جمال الملــك وبهائه ، ، ، الامير الاجل المعظم ، ، ، ولى العهد ، وواسطة عقــد المجد ، ، ، الواثق بالله المعتصم به ، أبى بكر ابن مولانا مجد الاسلام ، ، ، سيف أمير المومنين ، ، ، أبقاه الله واردا من مشارع التأييد أعذبها ، ، عبد بابه الاشرف ، ومملوك احسانه الاسح الاذرف ، ، ، الحسن بن أحمد بن خلاص ، ، سلام الله الطيب الكريم وتحياته ، يعتمد الواثقــى المعتصمى ورحمة الله وبركاته ، اما بعد حمد الله الذي له الامر من قبل ومن بعد ، والصلاة علىسيدنا محمد نبيه ، ، ، وعلى آله وصحبه ، ، ، والرضا عن خليفته وابن عمه الامام العباسى ، امير المومنين أبى المنصور المنصور المستنصر بالله ، ، ، وعن مولانا مجد الاسلام ، ، ، سيف أمير المومنين ، ، ، والدعاء لمقام الثقة والاعتصام ، ، ، فكتبه عبد المقـــام الواثقى المعتصمى ، ، ، من اشبيلية ــ حرسها الله تعالى ــ ، ، ، وان الخطاب الكريم ، ، ، شرف الله منازعه ، ، ، ورد على العبد مشيدا بذكره ، ، ، فتناوله الملوك بيد اجلاله واعظامه ، ، ، فقد جدد الزمان عنده يدا غرا ، ، ، وما ينفك على نأي المكان ، ، ، يحافظ على رسمه من خدمها ، ، ، وقد كان قدم مطالعاته قبل الى الباب الواثقى ــ شرفه الله ــ باسطا لتفاصيل الاحوال ، ، ، ولم يتجدد بعد ذلك الا تمكن الرجاء في فتح « لبلـــة » يسر الله مرامها ، ، ، ولو أن مكانا عضه الدهر من أنياب حوادثه الجون بما به عضها ، ، ، لكان قد ذهب شميسه ، ، ، لكن أبـــى

الشقاء الغالب على أهلها الا أن يمد عليهم أمد العذاب ، ، ، حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله ، ، ، ويرجى أن الوقت فى ذلكم دان ، والله تعالـى يديم للمقام الواثقى ما عوده من توالى السعود ، ، ، وسلام الله الطيب يراوحها ويغاديها وتحياته ورحماته ، ، ، وبركاته الثانى أن تفتتح بالحضرة ثم المقصود ، ويختم بالدعاء والسلام ، كما كتب ابن عميرة الى المتوكل ابن هود القائم بالدعوة العباسية بالاندلس عن بعض أتباعه ، عنـد ورود كتابه مخبرا بفتح حصن ، وقتل الثائـر بـه .

الحضرة العلية ، ابقى الله ظل ملكها على العباد ، ، ، عبدهـا ومملوكها ، ، ، فلان ، وبعد فكتب العبد ، ، من فلانة ، ، والحمد لله حمد من عرف قدر نعمائه ، ، ، وان الخطاب العلى الكريم ورد راصفا اجل الدرر ، ، وواصفا أجمل الفتوح الغرر ، ، ، ومما اقتصه ما جرى من اوائل الحركة السعيدة واعترض من المتاعب الشديدة ، ، ، والمكاره فى طيها النعم الجسام ، والنفوس الكبار تتعب فى مرادها الاجسام ، ولذلك هانت على المقام ، ، ، تلك المشاق ، ورجى من عمله ونظره ما جنـى من ثمرة العاق ، فسار اليه بالجحفل الاحفل ، ، ، وقد أعز بأجل المدائن شأنا ، وأوثقها بنيانا ، ، ، وعدو الله يفتل لهم فى الذروة والغارب ، ويضرب لهم سكان البلد ضرب الغرائب ، ، ، وحينئذ سمت اليه عساكر الاسلام ، ، ، وتداولته المطاولة ، ، ، واستكملت تسعة اشهر وكان الفتح عندها لتمام ، ، وانتقم الله ، ، من الشقى الظالم ، ، وكان دمه شـر دم أريق ، ، ، والحمد لله الذي نصر الراية العباسية ، ، ، وحين ورد هذا النبأ كان أندى من قطر الندى ، ، ، وأخذ العبد من المسرة بحظ أخلص العبيد مشهدا ومغيبا ، ، ، فحسبه دعاء هو له رافع ، ولاوقات الخلوات به قاطع ، والى الله سبحانه فى قبوله ضارع ، ، ، وهو تعالى ينصره ، ، ، ويعرفه فى كل ما يستنبطه من اصل التوكل صحة القياس بمنه والسلام .

وفى الصفحة 98 والتى بعدها ، تعرض للاسلوب الثالث ، أن تفتتح بأما بعد ، كما كتب ابن عميرة الى المتوكل المذكور عن نفسه يهنئه بوصول الهدية من الخليفـة العباسـى :

أما بعد فكتب العبد ، ، ، من شاطبة ، ، ، وحين صدور رسول دار السلام ، ، ، ومعه الكتاب الذي هو غريب ، انس به الدين الغريب ، ، ، اطمأنت القلوب وحصل المطلوب ، ، ، وإن من أمرته الخلافة العباسية فطاعته تجب قطعا ، ، ، واليوم الذي به تؤرخ الايام المستقبلة ، ، ، وباقبال الركاب السعيد الى هذه ينزل به من سماء العلياء محكم وحكمه ، ، ، ويوجد جبر للاسلام لا يكون بعده كسره ، وشفاء لقلوب الاولياء هو للاعــداء حســـــره .

وفى الصفحة 99 وما بعدها يتعرض للاسلوب الرابع ، أن تفتتح بالخطاب بلفظ « سيــدي » أو مولاي ، مع حرف النداء او دونه ، كمــا كتب ابن الخطيب عن نفسه الى السلطان ابى عنان ابن السلطان ابــى الحسن المرينى صاحب فاس ، عند ورود كتابه الى الاندلس ، بفتــح تلمسان ، معرضا بأن صدور كتابه من عند قبر والده السلطان ابى الحسن بالاندلس « كــذا » مــا صورتــه :

مولاي فاتح الاقطار والامصار ، ، ، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار ، ، ، عبدكم الذي خلص ابريز عبوديته لملك ملككم المنصور ، ، ، الداعى الى الله سبحانه أن يقصر عليكم سعادة القصور ، ، ، فلان ، من الضريح المقدس ، وهو الذي تعددت على المسلمين حقوقه ، ، حيث الجلال قد رست هضابه ، ، ، والقرآن العزيز ترتل أحزابه ، ، ، والمستجير يخفى باطنه سؤاله فيجهر بنعرة العز جوابه ، ، ، واعتز بعز الله وقد توسط جيش الحرمة المرينية حقيقه ، اذ جعل المولى المقدس المرحوم ابا الحسن مقدمه وأباه وجده ، ، ، وقد عقد البصر بطريــق رحمتكم ، ، ، لما شنف الاذان البشري التى لم يبق طائر الا سجع بهــا وصدح ، ، ، بشرى الفتح القريب ، ، ، فتح تلمسان الذي قلد المنابر عقود الابتهاج ، ، ، وفتح باب الحج وكان مسدودا ، ، ، وملككم حق أبيكم الذي أهان عليه الاموال ، ، ، فالحمد لله الذي أقال العثار ، ، ، والعبد يهنىء مولاه ، بما انعم به عليه وأولاه ، ، ، فاذا أجال العبيد قداح السرور فللعبد المعلى والرقيب ، ، ، لتضاعف اسباب العبودية قبلى ، ، ، وان لم يباشر العبد اليــد العالية بهذا الهناء ، ، ، فقد باشر به اليــد التى

يحن مولاي لتذكر تقبيلها ، ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الابويـــة وتكميلها ووقفت بين يدي ملك الملوك الذي أجال عليها القداح ، ووصل فى طلب وصالها المساء بالصباح ، وكان فتحه اياها أبا عذرة الافتتاح ، وقلت يهنيك يا مولاي رد ضالتك المنشودة ، ، ، فقد استحقها وارثك الارضى ، ، ، وقرة عينك ، ، ، مولاي ، هذه تلمسان قد أطاعت وأخبار الفتح على ولدك الحبيب اليك قد شاعت ، ، ، وعدوك وعدوه قد شردته المخلفة ، ، ، فخفضته الاضافة ، ، ، فقد نمت بركتك وزكا غرسك ، ، ولم يقنع العبد بخدمة النثر ، حتى أجهد القريحة ، ، ، فلفق من خدمة المنظوم مـا يتغمد حلمكم تقصيره ، ، ، واحالة يا مولاي على الله فى نفس جبرها ، ، ، وحرمة بضريح مولاي والده شكرها ، ويطلع العبد منه على كمال أمله ، ، ، ان شاء الله تعالـــى :

يا ابن الخلائف يا سمـــى محمـــد ... يا من علاه ليس يحصـــر حاصر

ابشر فأنـــت مجدد الملك الـــذي ... لولاك أصبـــح وهـــو رســـم داثر

***

القـــت اليـــك يد الخلافـــة أمرها ... اذ كنت أنـــت لها الولـــى الناصـــر

***

مولاي عندي فـــى علاك محبـــة ... والله يعلم مـــا تكـــن ضمائـــر

قلبـــى يحدثنـــى بأنـــك جابـــر ... كســـري وحظى منـــك حظ وافـــر

***

ان كنت قد عجلت بعض مدائحـــى ... فهو الريـــاض وللرياض بواكـــر

وفى الصفحة 110 والتى بعدها جاءت الجملة الثالثة فى الاجوبة الصادرة عن ملوك المغرب ، وهى كما تقدم وربما صدرت بقدر نحوها كما كتب ابن عميرة عن بعض ملوكهم جوابا عن كتاب ورد بطاعة بلد :

قد وصل كتابكم ، ، ، تذكرون ما تقرر عندكم هنالك من أحوال تلك الجهة ، وباشرتموه من أمرها ، ، ، وقد رسمنا لكم أن تثبتوا فـــى اهل تلكم الجهات كلها حميد الراي فيهم ، وحسن القبول لانابتهم ، ، ، وانا قد تقبلنا أوبتهـــم ، ، ، وأولئكم المتشبثون بسبب الذمـــام ، ، ، فأسعفنا رغبتكم فيهم ، وأدخلناهم فى العفو مع غيرهم ، ، ، وان كـــان أطيب لنفوسهم ان يصلهم مكتوب بذلك ، ، ، وجهناه اليكـــم ، ، ، أدام اللـــــــه كرامتكـــــم .

أشرتم ، ، ، الى أنكم عندكم من الاحوال ما تذكرونه مشافهة ، ، ، فمـــن الجيد أن تكتبوا بشرحه ، ان شاء الله تعالـــى والسلام .

وفى الصفحة 116 والتى بعدها ، جاءت الجملة الثالثة فى الاجوبة الصادرة عن ملوك المغرب الى ملوك الكفر ، والرسم أن تفتتح بكتابنا والمخاطبة بنون الجمع وميمه والاختتام بالسلام والدعاء بما يليق ، كمـــا كتب ابن عميرة ، عن أبى جميل زيان الى ملك قشتالة فى الصلح :

كتابنا اليكم ، ، ، من مرسية ، ونحن نحمد الله ، ، ، وعندنا لجنابكم المرفع تكرمة نستوفيها ، ، ، وعلمنا بمحلكم الشهير وكتابكم الخطيـــر يستدعى الزيادة من ذلكم ويقتضيها ، وقد كان ، ، ، فتح أقر العيون ، ، ، وكانت مطالعتكم به مما أثرنا تقديمه ، ، ، وحين ترجحت مخاطبتكم ، ، ، رأينا من تكملة المبرة ، ، ، أن ننفذ اليكم من يشافهكم بهذا المعنى ، ، ، وهو فلان فى ذكر السلم ومحاولتها ، ، ، وان رأيتكم اذا انصرف من عندكم أن توجهوا زيادة الى ما تلقونه اليه من رجالكم ، ، ، فى معنى هذا العهد ، ، ، فعلتم من ذلك مـــا نرقب أثره ، ، ، ان شـــاء الله تعالـــى ، ، والســـــــــلام .

وفى الصفحة 376 وما بعدها ، تعرض الى المكاتبات من ملـــوك الديار المصرية الى صاحب افريقية وما انضم اليها من بجاية وقسنطينة فذكر أن حال مملكتها ومن ملكها جاهلية واسلاما ، فكانت قبل الاسلام بيد البربر حين كان معهم جميع المغرب ، ثم انتزعها الروم والفرنج الى أن

انتهت حال الفتح الاسلامى الى جرجيس فى جملة ممالك المغرب ، وانها فتحت فى خلافة عثمان ، على يد عبد الله بن ابى سرح ، ثم صارت دار المملكة القيروان وانتهت الى بنى الاغلب فالعبيديين فالموحدين أصحاب المهدى ابن تومرت ، وهى بأيديهم الى الان ، كما قال ، بيد الحفصيين المنتمين الى عمر بن الخطاب ، كما أتى بنسبهم المزعوم ، فهم لذلك يدعون الخلافة وربما كاتبهم بها بعض ملوك المغرب ، ومنهم من ينسبهم الى هنتاتة من قبائل البربر بالمغرب ، وهى الان الى حدود الثمانمائة بيد أبى فارس عزوز ، وذكر صاحب التعريف ان سلطانها فى زمانه ، كان المتوكل على الله أبو يحيى أبو بكر .

والرسم أن يكتب بعد البسملة « أما بعد حمد الله » ، ، ثم يقال : فهذه المفاوضة أو النجوى او المذاكرة أو المطارحة أو نحو ذلك تهدى من طيب السلام ونحوه الى الحضرة الشريفة مع نعوتها ، ، حضرة الامارة ، ، ، حضرة أمير المسلمين وزعيم الموحدين ، ، ، السيد الكبير ورسم المكاتبة اليه فى قطع الثلث بقلم التوقيعات ، نظير ما كتب به لصاحب فاس، كما قال صاحب التثقيف ، ويكتب بعد البسملة « عبد الله ووليه » ثم تكتب الالقاب ، بعدما يخلى مقدار بيت العلامة ، الى آخر ما ذكر ، وانتهى الى كتاب عن الظاهر برقوق اليهم ، مجيبا عن كتابهم بقوله : « نوضح لعلمه الكريم أن كتابه الكريم ورد ورود السنة على الجفن الساهر ، ، ، فعبر لنا لفظ عبيره عن معنى المحبة ، ، ، فاستجبنا له ولبيناه ، ، ، فما أجدر كلامه بقول القائل :

وكلام كدمع صب غريب   رق حتى الهواء يكثف عنده

راق لفظا ورق معنى فأضحى   كل سحر من البلاغة عبده

وفى الصفحة 385 جاءت الجملة الثانية ، بعد الاولى ، وهى فى مكاتبة صاحب المغرب الاوسط « تلمسان » وهى بيد بنى عبد الواد من زناتة والقائم بها فى حدود الثمانمائة أبو زيان بن أبى حمو ، موسى بن يوسف ابن عبد الرحمن الخ ، وذكرت فى ممالك الابصار مضافة الى مملكة فاس

ايام ابى الحسن المرينى ، قال المؤلف : وقد رايت من صاحبها موسى بن يغمراسن ، مكاتبة الى محمد بن قلاوون ، ، ، وذكر صاحب التثقيف ان صاحبها فى زمانه ، ، ، أبو حفص عمر بن ابى عمران موسى ، وان المكاتبة اليه مثل المكاتبة الى صاحب تونس ، ، ، وكذلك ، ، ، فــــى الدستور العلائى .

وفى الصفحة 386 ، وما بعدها جاءت الجملة الثالثة ، فى المكاتبة الى صاحب المغرب الاقصى ، وهو صاحب فاس ، وتعرف مملكته ببــر العدوة وهى الان بيد بنى عبد الحق من بنى مرين من زناتة ، ، ، والان بيد السلطان أبى فارس عثمان ابن السلطان أبى العباس احمد ابن السلطان أبى سالم ابراهيم ابن السلطان أبى الحسن على الى آخرهم ونهايتهم الى زناتة ، وكان أبو الحسن زمان محمد بن قلاوون ، وقد ورث ملك العزفيين بسبتة وملك بنى عبد الواد بتلمسان ، وأطاعه ملك الاندلس ، ودان لــه ملك افريقية ، وعرض عليه ابنته فتزوجها ، ثم قال صاحب التعريف : وهم يفخرون بغزارة علمه وفضل تقواه ، وهو اليوم ملك ملوك الغرب ، وموقد نار الحرب ، ورسم المكاتبة اليه ، بعد البسملة ، من السلطان الاعظم الملك الفلانى ، ، ، تحية يفتتح بها الخطاب ، ، ، حضرة المقام العالى السلطان ، ، ، امير المسلمين قائد الموحدين ، مجهز الغزاة المجاهدين ، ، ، أبى فلان ، فلان بن فلان ، ، ، (الى عبد الحق) وفى كل منهم أمير المسلمين أبى فلان ، فلان ، ، ، أعز الله أنصاره أو سلطانه ، ، ، أما بعــد حمد الله ، ، ، اصدرت اليه ، وسيرت لتعرض عليه ، ، ، من الســلام كذا وكذا ، ، ، ومما تبديــه كــذا وكــذا :

تهدي اليه من السلام ما يطلع عليه نهاره المشرق من مشرقه ، ويحييه به الهلال الطالع من جانبه الغربى على أفقه ، ، ، وثناء يستروح بنسيمه . وذكر فى التثقيف ، أن السلطان فى زمانه ، كان عبد العزيز بن أبى الحسن ، وأن المكاتبة اليه فى قطع النصف ، وانه يكتب تحــت البسملة فى الجانب الايمن ، ما مثاله « عبد الله ووليه » ثم يخلى بيت العلامة ، ثم تكتب الالقاب ، مسامتة للبسملة « السلطان الاعظم الملك الفلانى » الى آخره تخص المقام العالى ، ، ، فلان أمير المسلمين الــى

آخر الاجداد ، مع الدعاء ، ثم أما بعد حمد الله ، ، ، فنا نفاوض علمه الكريم ، ، ، وتعريفه ملك المغرب وهذه نسخة من ابن قلاوون الى أبــى الحسن : عبد الله ووليه ، ، ، ولى أمير المومنين ، ، ، ابن السلطان السعيد الشهيد الملك المنصور ، ، ، يخص المقام العالى ، ، ، أبا الحسن عليا أمير المسلمين ، ابن السلطان السعيد الحميد ، ، ، أمير المسلمين أبى سعيد عثمان ، ، ، بن عبد الحق ، ، ، الملازم لاحياء سنة الجهاد ، ، حتى يجمع فى ملكه أطراف الغرب الاقصى ، ، ، يظهر فيها لبركة الاســم العلوي من نشر الهدى ، ، ، أوضح الادلــة ، ، ، ويؤثر سلطاننا المحمدي،، من على عزمه ، ، ، بأعز الاعوان والانصار ، ، ، بسلام مشرق الغرر ، ، أما بعد حمد الله الذي أمر أولياء المومنين بالمعاونة والمظافرة ، ، ، فانه ورد ، ، ، من جانبه المكرم ، ، ، كتاب كريم نسبــه ، ، على يد رسوله الشيخ الامين الازكى ، ، ، أبى اسحاق ابن الشيخ الصالح أبى زيــد عبد الرحمن بن أبى يحيى ، ، ، وحاجبه الكبير المختار ، ، ، أبى زيان عريف ابن الشيخ ، ، ، أبى زكرياء ، ، ، وكاتبه الامجد ، ، أبى الفضــل ابن الفقيه المكرم أبى عبد الله بن أبى مدين ، ، ، وفقه الله ومن معهم من الخاصة والزعماء والفرسان الماثلين فى خدمة الجهة المصونة ، ، ، الواصلة بركبكم المبارك ، ، ، ففضضنا ختامه الذكى ، ، ، وحضضنا نوابنا علــى اعانة خاصة وفده وعامتهم ، ، ، فأما ما ذكره من ورود الكتابين الواصلين الى حضرته صحبة الشيخين ، ، ، أبى محمد عبد الله بن صالح والحاج محمد بن أبى لمعان ، وأنه أمضى حكمهما ، ، ، فقد آثرنا للاجر حوزه ، ، ، وأما ما نعته مما أشرتم اليه مما يتعين له التقديم ، ، ، وهو تجهيز ركبكم المحروس فى السرى والمقام فى خدمة من يقوم مقام الوالدة المرحومة فى الاحترام ، ، ، ومعها وجوه دولتكم الغــر ، ، ، من سراة بنى مرين ، ، ، فقد استقبلناهم على بعد بالاكرام ، ، ، وعرفنا حقهم أهل الاسلام ، وعرضوا بين أيدينا ما أصحبتهم من الطرف والهدايا ، ، ، من عقود منظمة ، وبرود مسهمة ، ومطارف معلمة ، ولطائف بالامكان والاتقان معلمة ، ، ، وخيول مسومة ، بالاهلة مسرجة وبالنجوم ملجمة ، ، ، ووراءها البغال ، التى تحمل الاثقال ، ، ، فتقبلنا أجناسها وأنواعها ، وتأملنا غرائبها وابداعها ، ، ، فتوالت لكل ولى منا منح ، ، ، وقالت الالسنة وطالت فى وصــف ما عليه به فتح ، ، ، وسطرناها وركبكم المبارك قد رامت السرى نجائبهم

، ، ، واكد لهم حقان ، حق مرسلهم وحق الايمان ، ، ، وكتبنا علـــى ايديهم الى امراء الاشراف ، ، ، وكذلك كتبنا الى امراء المدينة المشرفة ان تتلقى بالقبول الحسن مصحفه ، وتحله بين الروضة والمنبر ، ، ، والله تعالى يقربه من تلك المواطن ، ، ، حتى تحل ركابه بين المروتين ، ، ، لا زالت مقبولة على المدى هداياه ، ، ، والسلام الاتم الذي يعبق رياه ، ، ، عليكم ورحمة الله وبركاته ، والخير يكون ، ان شاء الله تعالى .

وفى الصفحة 395 وما بعدها أتى بنسخة من جواب الكتاب الوارد على ابن قلاوون من أبى الحسن المرينى ، بفتح بجاية والانتصار علـــى تلمسان ، مستفتحا بعد البسملة ، بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله » الى « واضل اعمالهم » ثم المكاتبة المعهودة بالالقاب : قهر الله ببأسه من ناواه ، ، ، ولا زالت ركائب البشائر عنه تسرى واليه من تلقائنا تسير ، ، ، وكيف لا وهى تحية صادرة عن مقام شريف الـــى روضة غناء ، ، ، فلا غرو أن دخلت عليهم ملائكة النصر من كل باب ، ، ، أما بعد حمد الله مظهر دينه على كل دين ، ، ، ومنجز وعد من بشرهم فى كتابه المبين « بل الله مولاكم وهو خيـــر الناصرين » ، ، ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي ارسله الله رحمة للعالمين ، ، ، فقــد ورد علينا كتاب مختوم بالتكريم ، ، ، وتفهمنا تفاصيله وجمله ، ، ، فأما ما ذكره المقام العالى من أمر الوالدة المقدس صفيحها ، ، ، وما فاجأها من الاجل ، ، ، فالمقام اجزل الله ثوابه يتحقق أن النية فى الاجور ابلغ من العمل ، ، ، وكنا نود أن لو قدمت ليتلقاها منا زائد الاكرام ، ، ، وأما ما أشار اليه من أمر من كان بتلمسان ، ، ، وانه اعتدى على من يتاخمه من الملوك ، ، ، حتى ان ملك تونس أرسل الى المقام ابنه ووزيره ، ، ، وان المقام العالى ارسل الى ذلك الشخص منكرا اعتماده ، ، ، وانه بعد ذلك تمادى على غيه ، ، ، وذكر الملك عنه انه قتل اباه بعد أن أتاه الله نعمة وملكا كبيرا وان المقام العالى أتاه نبأ عن أخيه المقيم بسجلماسة ، ، ، فجند المقام له جنودا ، ، ، وانه فى غضون ذلك أتاه سلطان الاندلس يستصرخ به على عدو الله وعدو المومنين ، ، ، وان المقام لبى دعوته مسرعا ، ، ، وان صاحب تلمسان لما غره الامهال أعمل اطماعه فى التجرى على بعض ممالكه المحروسة ، ، ، وان المقام عند ذاك صرف اليه وجه العزم

، ، ، وانه لم يقدر عليه الا بعد أن حذره من اليم العقاب حلولا ، ، ، ولما لم ينفعه الانذار ، ، ، أرسل اليه المقام العالى ، ، ، كل باسل يقوم مقام الكتيبة ، ، ، فأذاقوه كأس الحمام صرفا ، ، ، الى أن أخذوه فى جماعة من بنى ابيه ، ، ، وأن المقام العالى بعد ذلك سير مطارق العدل فى الرعية ، ، ، وفهمنا جميع ما شرحه فى هذا الفصل ، ، ، والله تعالى يزيد ملكه رقيا ، ، ، وأن المقام العالى ، ، ، لما فرغ وجهه من هذه الوجهة ، ، عاد الى المهم الذي قدم فيه سلطان الاندلس ، ، ، وأنه على جانب البحر المعروف بالزقاق ، ، ، وأن البر أيضا مملوء بصقور صائده ، وعلوج مكايده ، وكفار معانده ، ، ، وأن المقام العالى عند ذلك قام لله وغار ، ، ، وأرسل عقبان فرسانه محلقة الى ذلك الجبل الشامخ الذرى وأطار ، ، ، وقدم عليهم ولده الميمون النقيبة ، ، ، وأنه مزق جموعهم الكثيفة ، ، ، وعلمنا أيضا ما اعتمده الطاغى المغتال لعنه الله من الحضور بنفسه ، ، ، وقضت سعادة الاسلام أن تكون الايام لما عقده من الطوية الردية ناكبه ، ، ، وأسرع لمقر طاغوته سرى وسيرا ، ،

وان المقام العالى الزمه بعد ذلك ما كان على أهل « أغرناطة » فى كل عام موظفا ، وقد كان أخونا أمير المسلمين وسلطان الموحدين والدك الشهيد، فى كل آونة يخبرنا بمثل هذا الفتح ، ، ، وصدق بما تنشئه من حسن أفعالك وسعيد آرائك ، أنك أبو الحسين وان أباك أبو سعيد حقا

وحيث سلك المقام العالى سنن والده الشهيد .. فمما نبديه لعلمه .. أن من جملة من يحمل لابوابنا الشريفة من ملوك الكفر القطيعة فى كل عام .. متملك سيس .. وعليه .. لابوابنا الشريفة من القناطير المقنطرة .. والخيل المسومة ما لا يحيد عنه ولا يحيس .. وهم ضارعون .. ونحن نرغب الى المقام أن يواصل بكتبه المفتتحة بالوداد .. والله تعالى يجعله لثمرات النصر .. يجتنى ويديم على الاسلام مزيد العز ..

وفى الصفحة 407 وما بعدها اتى بنسخة جواب الى صاحب فاس ، حيث ورد كتابه بالتعرض لوقعة تمرلنك ، من انشاء مؤلفه عن فرج بن برقوق :

عبد الله ووليه السلطان الاعظم .. بسلام يفوق العبير عبيقه .. أما بعد حمد الله .. والصلاة والسلام على سيدنا محمد .. فانه ورد علينا على يد رسولكم فلان كتاب كريم .. فقر منه برؤيته الناظر .. وقابلناه من القبول بما .. يكون عنوانا للظاهر .. وفهمنا ما أظهره من كوامن المحبة .. وانتهينا الى ما أشار اليه المقام العالى من التلويح الى ما طرق أطراف ممالكنا الشريفة من طارق الاعتدا .. ونحن نبدي للمقام العالى ما يوضح له أن ما وقع من هذه القصة لم يكن عن سوء تدبير .. والله تعالى يجنب اخاءكم الكريم مواقع الغير .. والسلام .

وفى الصفحة 412 وما بعدها تعرض فى الجملة الرابعة لمكاتبة ملك المسلمين بالاندلس ، وهو صاحب غرناطة ، فتكلم عنها وعن بنى الاحمر وقال ، وهى الان بيد السلطان محمد بن يوسف بن محمد المخلوع بن يوسف ابن اسماعيل .. وقد أذل الله من يجاوره من الافرنج بسيفه .. وامتنع فى أيامه ما كان يؤديه من قبله .. من الاتاوة فى كل سنة ، لاستقبال سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة .. وفى التعريف أن سلطانها كان فى زمانه ، ابا الفضل يوسف ، قال ، وهو شاب فاضل له يد فى الموشحات .. ورسم المكاتبة اليه بعد البسملة ، اما بعد .. فهذه المفاوضة الى الحضرة العلية .. ثم نقل عن التثقيف ، أن رسم المكاتبة اليه مثل صاحب تونس ، فى القطع ، والخطابة والاختتام والعلامة والتعريف ، هو « صاحب حمراء غرناطة » وهذا جواب الى صاحب غرناطة ، وقد ورد كتابه فى ورق أحمر ، يتضمن قيامه بأمر الجهاد فى الكفار ، وما حصل من استيلاء بعض أقاربه على ملكه ونزعه منه ، وانه استظهر عليه وقتله ، وعاد الى ملكه ، فى جمادى الاولى سنة خمس وستين وسبعمائة :

نخص الحضرة العلية ، حضرة الامير فلان .. ثم بعد حمد الله مؤكد أسباب علاه .. والصلاة والسلام على سيدنا محمد .. وعلى آله .. فانا نوضح لعلمه الكريم أن كتابه ورد علينا .. فوقفنا على مضمونه جميعه .. من استمراره على عادة سلفه فى القيام بأمر الجهاد .. وما اتفق من قريبه فى الصورة لا فى المعنى .. وانه آثر اطلاع علومنا الشريفة على هذه الواقعة .. وانتهزنا فرصة السرور بما منحه الله من ظفره .. وحمدنا

الله . واما غير ذلك فقد وصل رسول الحضرة العلية الينا وتمثل بمواقفنا المعظمة .. واقبلنا عليه وضاعفنا الاحسان اليه .. وادى الينا ما تحمله من المشافهة الكريمة ووسائل المحبة والمودة القديمة ، فرسمنا باجابة قصده ومسامحة الحضرة العلية بما يتعين على ما قيمته الفا دينار مصرية ، حسب ما عينه رسوله المذكور ، ولو كان سألنا اضعاف ذلك لاجبنا سؤاله من غير ترو ولا فتور .. وقد أعدنا رسوله المذكور الى جهته الكريمة .. محترما مكرما .. والله تعالى يمده بمزيد التأييد .. ما يربى على الامل ويزيد .

ننتقل الى الجزء الثامن فنجد فى الصفحة 33 المقصد الثانى فى المكاتبة الى ملوك الكفار ببلاد المغرب من الاندلس وما والاها من الارض الكبيرة (فرنسا) فذكر بما سلف أن الاندلس فتحت فى عهد عثمان (كما قال خطأ) وانها أقامت بيد المسلمين الى رأس المائة السادسة (كذا) ، ولم يبق منها بيد المسلمين الا غرناطة وما معها من شرق الاندلس — كما قال — وأن المستولى على باقيها من النصارى اربعة ملوك : صاحب طليطلة ، ولقبه الاذفونش .. وعامة المغاربة يسمونه « الفنش » ومملكته عظيمة تشمل طليطلة وقشتالة واشبيلية وبلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية ، وسائر أعمالها ، والثانى صاحب أشبونة وما معها ، وتسمى البرتقال ، ومملكته صغيرة ، تشتمل على أشبونة وغرب الاندلس ، الثالث صاحب برشلونة وارغون وشاطبة وسرقسطة وبلنسية ، وجزيرة دانية (كذا) وميورقة ، الرابع صاحب بيرة ، وهى بين عمالات قشتالة وعمالات برشلونة ، وقاعدته مدينة « ينبلونة » ويقال لملكها ملك « البشكنس » .

ووراء هؤلاء بالارض الكبيرة صاحب فرنسة ، التى هى أصل مملكة الفرنج .. وملكها يقال له « الريد افرنس » .. وهو الملك المطاع .. والاذفونش صاحب السطوة ، وذكره اشهر فى المغرب لقربه منهم وبعد الريد افرنس .

والمكاتب منهم ملكان ، الاول الاذفونش .. وبيده جمهور الاندلس .. قال صاحب التعريف ، وحدثنى رسول الاذفونش بتعريف ترجمان .. أن

الادفونش من ولد هرقل المفتتح منه الشام .. وكان الادفونش ممن قـوى طمعه فى بلاد مصر والشام .. أواخر الفاطمية .. قال : ورسم المكاتبة اليه اطال الله بقاء الحضرة السامية حضرة الملك الجليل ، صديق الملـوك والسلاطين ثم دعاء وصدر يليقان به الى آخره الثانى صاحب برجلونة وفى التثقيف وهم طائفة « الكيتلان » ورسم المكاتبة اليه : ادام الله تعالى بهجة الحضرة الموقرة .. صاحب برجلونة . أما الريد افرانس ففى التعريف بأنه لم يرد منه الا رسول واحد أبرق وأرعد وجاء بطلب بيت المقدس ، وحسن هذا الكتاب من كتبة القبط ، وبلغ هذا ابى رحمه الله ، فآلى ان يهاجر فى هـذا ويجاهد بما أمكنه وقال لي : تقوم معيوتتكلم وأرسلنا قاضي القضاةالقزويني الخطيب فأجاب وأجاد الاستعداد.. وغضب السلطان وحمى غضبه.. فصدذلك الشيطان .. وقال .. أنتم عرفتم ما لقيتم نوبة دمياط من عسكر الملك الصالح .. وما كان يشغلنا عنكم الا قتال التتر ، ونحن اليوم بحمد الله صلح .. فتحصلوا وتعالوا ، وان لم تجوا فنحن نجيكم .. واعلم أن الريدافرنس .. هو الذي قصد الديار المصرية ، بمواطأة الاذفونش صاحب طليطلة .. وملكوا دمياط .. واخذ الريدافرنس وحبس بالمنصورة .

وفى الصفحة 78 وما بعدها جاء المقصد الثانى ، فى المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب .. وتكون بالبسملة بعد بياض نحو شبر وثلاثة اصابع وبين كل سطرين قدر عرض أصبع ونصف .. ثم تعرض فى الجملة الاولـى للمكاتبة الواردة عن صاحب تونس .. وعادة أن تتفتح المكاتبة بلفظ من عبد الله الفلانى ، بلقب الخلافة « أمير المومنين ابن فلان » .. الى اخينـا فلان .. وهذه نسخة كتاب عن المتوكل .. احمد بن أبى عبد الله بن أبى بكر .. الى الظاهر برقوق ، جوابا عن كتابه اليه : من عبد الله المتوكل علـى الله .. ابن الامراء الراشدين .. الى اخينا .. ونعترف بما له من مزيد الاعظام بمجاورة البيت الحرام .. السلطان الجليل ، الملك الاعظم « الظاهر » . أبى سعيد برقوق .. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد حمد الله ناظم الشمل .. والصلاة والسلام الاكملين على سيدنا ومولانا محمد رسولـه .. وعلى آله واصحابه والرضى عن الامام المهدي القائم بهذه الدعوه الموحدية .. وصلة الدعاء لهذا المقام الاحمدي المتوكل الفاروقى .. فانا كتبنا لسلطانكم .. من حضرتنا العلية تونس .. والى هذا فموجبه اليكم .. اعلامكم انـا .. من حين اتصل بنا خبركم .. لم نزل نتوجه الى الله ..

بأن يجبركم بفضله من حيث صدع .. الى أن دارك الله بلطفه .. فرد عليكم ملككم .. فلا جرم غفر الله للايام ما اقترفت ، لما انابت واعترفت .. ولما جاءنا بنصركم البشير .. هززنا له أعطاف الارتياح .. وحمدنا الله لكم على ما من به من الفوز والنجاح ، ورأينا أن تهنئتكم به من الفروض المؤكدة .. فاقتضى نظرنا الجميل أن عينا له شيخ دولتنا المستشار .. فلان ، وقد كان منذ اعوام يتطارح علينا فى أن نخلى للحج سبيله .. الى أن تعين من تهنئتكم الكريمة ما عينه ، وسهل شأنه علينا وهونه ، فوجهناه والله تعالى يسعد وجهته .. وحملناه من أمانة الحب ما يلقى اليكم .. واصحبناه برسم اصطبلاتكم الشريفة ما يسر الحب سبيلها .. وفى أثناء شروعنا فى ذلك .. وصل الينا كتابكم الكريم .. فأطلعنا منه على ما راق العيون وصفا ونعتا .. ولما استقرينا من فحواه .. تشوقكم لاخبار جهادنا .. رأينا أن نتحف اسماعكم منه بما قرت به أعين الاسلام .. وذلك أنا من حين صدر من عدو الملة فى الجزيرة ما صدر .. لم نزل نبيح لاساطيلنا المنصورة حرمه وحماه .. الى أن ذاقوا .. وبال أمرهم .. وكان من جزائرهم .. جزيرة « غودش » وبها من أعداء الله جم كثير .. فأرسلنا عليهم من اسطولنا .. غربانا نعقت عليهم بالمنون .. فلما نزلوا بساحتها .. بهت الذي كفر .. فلما قضى السيف منهم أوطاره .. عمدوا الى ما تخطاه السيف من والد وولد .. فجمعوا منهم عددا .. وانقلبوا فرحين .. فعرفناكم بهذا الفتح .. وهو سبحانه وتعالى يطلعنا ويطلعكم على ما يسر .. والسلام العطر المحيا .. عائد عليكم ..

وفى الصفحة 84 اتى ىٔ الجملة الثانية بالمكاتبات الواردة عن صاحب تلمسان من بنى عبد الواد ، والرسم فيما وقفت عليه الابتداء بقوله :

الى الحضرة الفلانية حضرة فلان بالالقاب .. ثم بالسلام .. ويختم بالدعاء .. كما كتب عبد الرحمن بن أبى موسى بن يغمراسن الى ابن قلاوون الى الحضرة العالية السامية .. حضرة السلطان الملك الجليل .. أدام الله علو قدره فى الدنيا والاخرة .. وبعد حمد الله .. والصلاة التامة المباركة على سيدنا محمد رسوله المصطفى .. والرضى عن آله الكرام .. والدعاء لذلكم المقام الشريف .. سلام عليكم .. من أخيكم البر بكم .. عبد الرحمن بن أبى موسى بن يغمراسن ، وانا كتبناه اليكم .. من حصن « تلمسان » ، حرسها الله .. والى هذا .. فانا نعرفكم بوصول كتابكم

الخطير الاثير ، فتلقيناه بما يجب من التكريم .. وعلمنا ما انطوى عليه من المنن والافضال .. ومن أعظم ذلك اذنكم لنا فى أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر .. وقلوبنا متشوقة الى تلكم المشاهد العظيمة .. ولعل الله تعالى ينفعنا بخالص نياتنا .. ونحن والحمد لله أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف ، ولنا القدرة على القيام بواجبكم .. وليس بيننا وبين بلادكم من يخشى .. وقد توجه الى بابكم الشريف قرابتنا الشيخ الصالح .. ابو زكريا يحيى ابن الشيخ .. المرحوم أبى عبد الله محمد بن جرار الوادي .. وقد شافهناه بما يلقيه الى ذلكم المقام الشريف .. فالمقام الشريف يثق الى قوله .. وغرضنا أن تعرفوه بجميع ما يصلح لذلكم المقام .. مما فى بلادنا .. ولكم بذلك علينا المنة العظمى .. والله تعالى يبقى ذلكم المقام الشريف محروس المذاهب ، مشكور المناقب ، ان شاء الله تعالى

وفى الصفحة 87 وما بعدها ، وردت الجملة الثالثة فى المكاتبات الواردة عن صاحب فاس الى الديار المصرية ، وعادة أن تفتتح بلفظ من عبد الله فلان أمير المسلمين ، وأول من كتب منهم أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، حين استولى على المغرب ، قبل بنى مرين (كذا) خضوعا أن يتلقب بأمير المومنين ، مضاهاة للخلفاء ، وهو :

من عبد الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البرين ومالك العدوتين (وبقية الديباجة) واضح فى صدورها عن المرينيين ، فيكون بذلك قد سقط نص رسالة يوسف ، واتصل الكلام بالرسالة المرينية) الى السلطان الجليل .. ولى أمير المومنين أبى المعالى محمد .. ابن قلاوون (فهى لابى الحسن المرينى معاصره) سلام كريم .. أما بعد .. فانا كتبنا لكم .. من منصورة تلمسان .. والى هذا .. فقد وصل كتابكم الاثير .. انباء عما تلقاه الاخاء الكريم من قبل الشيخ الاجل أبى عبد الله محمد بن الجراح ، مما عنا تحمل وفى القائه وأدائه بحضركم الكريمة أحسن وأجمل ، وهو ما كان عليه عزم مولاتنا الوالدة ، ألحقها الله تعالى رضوانه .. من حج البيت المحرم ، وزيارة القبر المعظم .. وثالثها فى شد الرحال الى المسجد الاقصى .. وما وصف مع ذلك بهذا الجانب الغربى ، ورصف من أمر قتالنا لكل مارق أبى وكافر حربى ، وما منحنا الله من نصر .. ولئن كانت المولاة الوالدة .. قد وافت بما قدمت

عند الله من صالح العمل ، وماتت على ما ابرمته فى قصد البيت الشريف .. فان لدينا ممن يمت بحرمة المحرم الينا .. من يقوم عندنا مقامها .. وسنوردها ان شاء الله تعالى علىتلكم البقـاع .. بفضل الله وعونه .

واما تشوق ذلك الاخاء لمواصلة الكتب بسار الانباء ، فان من اقربهـا عهدا .. ما كان من أمر العاق قاتل أبيه .. وذلك أن أسلافه بنى زيان ، كانوا قد استولوا على هذه المملكة فى سالف الزمان ولم يزل بينهم وبين أسلافى .. وقائع توردهم الحمام .. فيدعون المنازعة .. ثم لم يلبثوا أن ينكثوا .. الى أن كان من حصار عمنا .. أبى يعقوب ، قدس الله تربته اياهم .. تسع سنين .. وهنالكم اتصلت بينكما المراسلة ثم حم موته .. فنفس خناقهم .. وصرف القائم بعده عنهم الحين ، عما كان هو رحمه الله قد طوعه من بلاد مغراوة وتحين ، فاتسعت عليهم المسالك .. لكن هذا الخائن وعمه كانا ممن أسأرته الفتن .. فسلكا مسلك أسلافهما فى اذاعة المهادنة .. ولما سول الشيطان لهذا العاق قتل والده .. لم يقدم عملا على اشخاص ارساله بحضرة مولانا المقدس أبى سعيد .. فى السلم راغبا .. فاقتضى النظر .. موافقته .. فقوى امره .. وسرى الى بلاد جيرانه الموحدين داؤه .. وباطن جماعة من عرب افريقية المفسدين .. وأقام على بجاية عشرين سنة .. يشن على أحواز تونس الفار حتى كان من هزيمة جيشه لصاحبها ما كـان بموالاة منهم ومن غيرهم .. كابن اللحيانى وابن الشهيد وابن عمران ، فأدى ذلك صاحبها السلطان أبا يحيى .. ان بعث الينا وزيره فى طلب النصرة رسولا .. واوفد علينا أعـز ولده أبـا زكريا .. فخاطبنا اذ ذاك هذا الخائن .. مذكرين .. فلم تنفعه الذكرى .. فأزمعنا قدعه .. وفى اثناء ذلكم وصل الينا أيضا سلطان الاندلس مستغيثا على النصارى .. فجهزنا معه ولدنا عبد الواحد .. فأجاز من سبتة الى الخضراء عجلا ، ولم يقدم على منازلة جبل الفتح عملا ، وكان هذا الجبيل الخطير شأنه قد استولى عليه العدو .. سنة تسع وستين شجا .. أهل العدوتين .. لاطلاله عليهما .. الى ان أسلموه للمسلمين قهرا .. فطار بما قدر عليه من حشوده وجنوده الى اغاثته ونصره .. واقلع بعد شهرين .. وكان ذلك سبب انابته للسلم .. واجابته لترك ما كان له على أصحاب غرناطة من معتاده .. وقد اعتنينـا بتحصين هذا الجبل .. أسواره وابراجه .. وكنا فى هذه المدة .. منازلين أخانا المتنع بسجلماسة .. لعثايته فى الفساد .. ومعاضدته صاحـب

تلمسان .. فسهل الله افتتاحها .. وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف .. وفى حال تلكم المنازلة .. لاحت للخائن التلمسانى فرصة .. ظن انا عنه مشغولون .. فخرج من بلده .. الى حصن .. بين بلاده وبلادنا كالحد ، فوجد هناك ولدنا .. تاشفين فى ثلة من بنى مرين .. فنكص على عقبه .. وعاد لذلك ثانية ، فلم تكن عساكرنا عن طرده وانية .. ان عادت العقرب عدنا لهـا وكانت النعل لها حاضره .

ولما فرغنا .. من تلكم الشواغل .. وارغنا من الخائن التلمسانى ترك ما هو فيه .. نهدنا نحو أرضه .. حتى لم يبق الا معقله الاشب .. فنزلنا بساحته واقبلنا على كفاحه ، وجعلنا نقذفهم من حجارة المنجنيق ، ومن كيزان النفط الموقدة .. حتى غذت جدرانهم مهدومة .. وولى الاشقياء الادبار .. فتملكنا ما دارت عليه الاسوار الخارجة .. ولما رأى الخائن قلة من بقى معه .. امر بسراح من فى قبضته وسجنه فكانوا أعون شىء على وهيه ووهنه .. فلما ارتفع الضياء ، ومتع الصحاء ، امرنا ولدينا ، يعقوب وعبد الواحد ، ووزيرنا القاعد لهم بالمراصد ، بأن يزحفوا اليهم .. ولم يكن الا كلا حتى امتطيت تلك الصهوة .. وفر الشقى الى فناء داره ، فى نفر .. فيهم ولداه مسعود وعثمان ووزيره موسى بن على .. وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر ، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر ، فتكنفهم هنالك أولياء دولتنا .. فأوردوهم ويوسف، ولد الشقى .. حياض المنية وكمل لنا .. بالاستيلاء على هذا القطر جميع البلاد الداخلة فى ولاية بنى عبد الواد .. واقطعنا لهم من بلاد المغرب .. ما هو خير من بلادهم .. وخلطناهم بقبائل بنى مرين .. وازيل عن الرعايا بهذه البلاد الشرقية اصرهم .. ولو لم يكن الا ما نال الحجاج من تعنيه وتعديه .. حتى حجز عن الحجاز الشريف قصاده .. والان بحمد الله حقت الحقائق .. وتيسر القصد الى البيت الحرام .. وهكذا أيضا خلا وجهنا لجهاد الروم .. نجدد بهذا العمل بجزيرة الاندلس .. ما لسلفنا بها سلف .. وبجيوشنا المنصورة عز دين الاسلام بهذا المغرب الغريب ، وبسيوفنا المشكورة .. ذل بها الصليب .. وأنهينا لعلمكم الكريم هذه الانباء السارة .. لازلتم تشرع نحوكم البشائر .. ومزاياكم العلية السناء ، ثواقب المناقب .. ان شاء الله والسلام الاتم .. يخص اخاكم الاوفى ورحمة الله وبركاته (سلف جوابه) .

« يتبـع »

تطـوان — محمد بن تاويت

قصة

الغرق اللاآدمي

أحمد عبد السلام البقالي

تركزت عيون جميع من بالغرفة على الشاشة الصغيرة . . وانحبست الانفاس ، وساد الصمت . . نفس الصمت الذى يسود الجماهير الغفيرة فى ساحات الاعدام ، بعد كف الطبول ، وقبيل سقوط شفرة (الجيلوتين) لتفصل راس المحكوم عليه عن جسده .

كان المشهد لا يختلف كثيرا عن أى اعدام . . الا ان منفذيه على الشاشة كانوا من الحيوان . .

كان ببر يلتصق بالارض ، ويخفى نفسه بين الاعشاب فى انتظار اللحظة الحاسمة أو الثانية بالضبط التى ستدخل فيها الغزالة الضحية دائرة سلطانه . .

وكأن الاشـــارة اعطبت لصـــاروخ من رادار حساس ، فانطلق النبر من مكمنه فى اعقاب الغزالة . .

وكانت هى الاخرى قد أحست بخطـــر وجوده قبـــل آن تراه ، فتنزفزت ، واخذت تتحرك على غير هدى . .

وانطلق خلفها تفصلهما مسافة مائة متر تقريبا . . ولم تزل المسافة تتقلص بزيادة سرعة الببـــر ، الذى كان المعلـــق التلفزيونى يقول انها تزيـــد عن الستين ميـــلا ، حتى انقـــض عليها فى النهاية . . تلقفها وهى قافزة فى الهواء ، فوقع عنقها بين فكيه ، وانغرست انيابه فى حنجرتها ، فوقعت على الارض تحته تضطرب وتركل بحوافرها ، وهو جاثـــم فوقهـــا بكامل ثقله ، وصدره يهتز ، وعيناه تنظران الى الافق ، وكأنه سائح عادى ينتظر وجبته على مائدة مطعم !

واسترخى جسد الغزالة بعد أن فارقته الحياة . . وتنفس جميع الحاضرين الصعـــداء . .

وبدأنا نناقش سبب انفعالنا مع المشهد . . فقال احدنا :

ــ انه العنف ! العنف يفرض وجوده على الجميع . . على العاقل والاحمق ، والعالم والجاهل ، والذكى والغبى . .

فعلق احد الشباب :

ــ لذلك يلجأ اليه المتظاهرون . . ليلفتوا الانتباه .

وعلــق آخر قائــلا :

ــ بــل هو الموت ! . لحظة المــوت مقدسة . . تفــرض احترامها على جميع من سيمــر بهــا وتحيــط بهــا الاسرار والــغــيــبــيــات . .

وقــال آخــــر :

ــ بل انه تعاطفنــا مع الضحية . . كلنــا كان يتمنى أن تفلت الغزالة المسكينة من مخالب مطاردها الجبار .

فقــال الاول متفلسفــا :

ــ ولماذا ليس مع المعتدى ؟ فلو أفلتت الغزالة من يــده لمات جوعا . . هو الآخر ضحية تكوينه الطبيعى .

وانتــقــل النقــاش الى مقارنــة الحيــوان بالانسان ، والفرق بينهما ، والمسؤولية الاخلاقية التى يفرضهــا وجــود العقل عند الانسان . . وهل مجرد وجــود العقــل يفــرض

المسؤولية الاخلاقيـــة أم لا بـــد من وجــود الوازع الدينى ، والتطبيع الاجتماعى ؟

وهنا دخل علينا الاستاذ عبد الكبير ، فبـــادرته زوجتـــه السليـــطـــــة :

ـ أين كنت يا هب الريح ؟

وكان هدفـــا سهلا للتنكيت . وبشوشا سموحا ، فتقـــدم يصافح الحاضرين واحـــدا وواحـــدة ، ويـــرد على زوجتـــه بطريقـــة غـــير مبـــاشرة :

ـ زوجتى العزيزة تعطى درســا فى احترام الازواج .. سامحهـــا اللـــه .

فلاحقته هى غير عابئة بتعليقه :

ـ ضيوفك وصلوا قبلك ! الضيوف عند الدجاج ! منـــذ ساعتين وهم ينتظرونك . . اين كنت ؟

فقال السى عبد السلام بوجه جاد :

ــ لعله كان يرشح نفسه للبرلمان السابق .

فرد عليه السى عبد الكبير بابتسامته المضيئة :

ــ لم تخطىء كثيرا . . فقد كنت أعزى فى منافس قديـــم فى الانـــتـــخـــابات .

ــ مـــن ؟

ــ العصيـــدى . .

ــ العصيدى ؟ أيـــهـــم ؟

ــ العصيدى واحد . . لا ثانى له . . فريد عصره . .

ولما لم يفهم شرحت له احدى السيدات :

ــ العصيدى وحيد العين . . الملقب بالحية العوراء .

فسرت أصوات الدهشة وعدم التصديق بين الحاضرين ..

ــ الحية العوراء مات ؟ أبداً . . الحية العوراء لا يموت !

فعلق السى عبد السلام :

ـ لا بد أنه لذغ نفسه !

وعقـب آخـــر :

ـ أو سرقت منه بعض مسروقاته من أموال اليتامى .

ـ أو خرج عليه أحدهم بمصحف مثـل « دراكيولا » !
فصحح الاستاذ عبد الكبير :

ـ الرجل تجاوز الثمانين ، ومات ميتة طبيعية .

فتهللت الوجوه . . وزغردت احدى السيدات . . ومـــد الشريف الصغير الحجم كفيه الى السماء داعيا :

ـ سر آودى ، السى عبد الكبير ، فرحتنا الله يفرحك !
فأجاب الجميع : آمـــين !

ـ وانت ، يالعصيدى ، الله يغطس عظامك فى النار !

ـ آمـــين !

ـ وبـيـس الـقـرار !

ـ آمـــين !

فوقف الاستاذ عبد الكبير ينظر اليه ويحرك رأسه :

ـ ايه ياودى . تعملون بنصائح الرسول عليه السلام : « اذكروا موتاكم بخير »

فصاح الشريف :

ـ الله لا يرحم فيه عظم !

ـ بتشفيكم هذا انتم تفرشون له فراشا من زهور الرحمة فى قبره هذه الليلة ، وتستبدلون سيئاته بالحسنات .

فصاحت زوجته فيه :

ـ وانت الذى ذهبت للعزاء فيه ، ألم تخالف قول الله تعالى « ولا تصل على أحد منهم مات ابدا ، ولا تقم على قبره » ؟ وأنت أعرف الناس به وبأفاعيله . . وقد كاد يقتلك أثناء الانتخابات ، لولا أنك سقطت وحدك كالباكورة الهارية ، ووفرت عليه أجرة القاتل ؟

فأسكت حجتها القوية بقوله :

ـ يا سيدتى ، ذهبت فقط لأتأكد من انه مات ، فقــد قرأت فى دائرة المعارف ان التماسيح والافاعى تعمر طويلا !

وهدأت الضجة ، فقـال الاستاذ عبد العزيـز ، مستأنفا فلسفته فى مقارنة الانسان بالحيوان :

ـ هذا مثل واضح جاءت بـه الصدفـة على حيوانيـة الانسان حين ينشأ فى ظروف الحيوان الكاسر . . العصيدى ، أو الحية العورا ، كما تعرفونه ، نشأ فى عهـد السيبـة . . فى وسط قروى جاهل لا علاقة له بالمدينة ، ولا بالنظام والقانون . . وعاش صباه واطوار تكوينه النفسى ، وتطبيعه الاجتماعى فى مجتمع فوضوى يقاتل على عدة جبهات . . كل واحد لنفسه . . تحدوه غريزة حب الذات ، وحب البقـاء . . فكبر ينظـر حواليه ، وكأنه فى غابة متوحشـة ، عليـه ان يصطاد لنفسه ليعيش . . لا يهمه ما يسببـه لغيره من الآلام ، فتلـك طبيعة الكون . . فكما يذبح الشاة ، ويصيد الارنب ، ويسلخ الثور ، يطلق النار على غريمه ، ويختطف ممتلكات غيره . . ويتوقع أن يعامل بالمثـل . .

والتفـت ليسـأل :

— أليس كذلك ؟

فرد الشريف غير مقتنع :

— مآت الآلاف نشأوا نفس النشأة . . لماذا لم يصبحوا كلهم مثله ؟

فرد الاستاذ عبد العزيز :

— أولئك لم يكونوا فى ذكاء الحية العوراء ، وقدرته على التأقلم بحياة المدينة ، وتكييف غريزته الحيوانية بالبيئة الاجتماعية الجديدة التى وجد نفسه مرغما على العيش فيها ، فكسا وحشيته البدائية الخامة ، وبطريقة ذكية ، بقناع من المشروعية والقانون فرضهما عليه لجوء المظلومين الى المحاكم ، والقضاة والعدول ، والمراقبين الاسبانيين ، والفرنسيين والباشاوات ، وغيرهم . .

فقال الشريف غير مقتنع :

— كيف استطاع أن يفعل كل هذا ، وهو قروى بسيط ؟ !
فرد الاستاذ عبد العزيز :

ـ قروى ، نعم . . بسيط ، لا ! العصيدى يتمتع بذكاء خارق ، وشخصية معقدة . . لم يكن اقوى من حيوانيته الا ذكاؤه الطبيعى . وسأعطيك مثلا على ما أقول . .

وذاك ما كنت انتظره . . فلم يكن التحليل المجرد كافيا لاقناعى بكل ما سمعته عن العصيدى . .

واستأنف الاستاذ عبد العزيز :

ـ ادرك العصيدى ، منذ توقيع عقد الحماية ، ان ايام الحرية المطلقة قد ذهبت الى غير رجعة . . وان الحيوان الذى كان يعيش فى غابته طليقا ناعم البال ، اصبح يعيش فى اقفاص من حديد ، تراقب حركاته وسكناته ، ويضرب على يده بعنف اذا حاول ممارسة حياته السابقة . فلم يعد يلجأ الى أخذ ما يريده بالطريقة البدائية المباشرة ، اى باطلاق النار على صاحب الارض والاستيلاء على الارض ، بل هذب وسائله . . فاحتك بالقضاة والوكلاء والعدول ، وعكف على قراءة كتب القانون ، واتقان وسائل الاحتيال عليه . . واكتسب مهارة خاصة فى فتح الابواب المغلقة بالرشوة أو التزوير أو التهديد بالعنف حين يقتضى الامر .

« وادرك ما للتزوير من قــوة فى اقامة الحجة القانونية على خصومه ، فبحث عن احد يمكن استخدامه لهذه المهمة . . وفعلا عثر على غلام يتيم قيــل له عنه انه عبقرية فى تقليــد الخطوط كيفما كانت . . وأغراه بأجرة دائمــة ، والسكنى فى بيته ليكون كاتبه الخاص

« وصار الغلام يــزور له جميــع الوثــائق العدليــة ، وامضاءات كبار العدول وأكثرهم استقامة ومروءة . واستــل هو سيفه على عباد الله ، فكان يدخــل الضيعة أو البستان مع اصحابها ، ويجيل فيها عينــه الوحيدة ، فيحسب اشجارها ، ويقيس أبعادها ، ويأخذ لها صورة فى خياله . بحدودها وجميع مميزاتها ، ويعود الى بيته ، فينــادى بكاتبــه ، ويملى عليه وثيقة عدلية باسلوب أى عادل يختــاره من عــدول المنطقة ، يثبت فيها ملكيته للضيعة أو الدار أو الغرسة ..

ولم يكن ينتظر أن تأتيه الفرص بمحض الصدفة . . بل كان يخلقها ويجد فى البحث عنها فى كل مدينة من مدن الشمال الغربى كان له جيش من المخبرين والاعــوان من بين صبيــان الافران ، (الطراريح) ، وجلاسى الحمامات ، والتابــلات ، والمؤذنين ، والعدول ، والقراء على الجنائز وجميع من يستطيع

استعماله واستغلاله فى عمليات ابتـــزازه .. هذا الى جانـــب عدد من رجال السلطة والقضاة ممن يتذكرهم أيـــام المواسم والاعياد والمناسبات الخاصة بالهدايا والاكراميات .

« وباختصار ، كان يعرف بالضبط مـــا يجرى فى خمس مدن وعدد كبير من القرى فى جميع قبائـــل الشمال ، من بنى سعيد الى (آنجرة) . وكان ينتظر ضحاياه فيها كما ينتظـــر التمساح فريسته على حافة النهر ! أو يسعى اليها كما رأينا الببر يسعى للغزالة على التلفزيون .

« وسأضرب لذالك مثلا بهذه القصة التى عاصرت احداثها بنفسى ، وانا صغير ايام الاستعمار وعرفت تفاصيلها الجهنمية بعد مـــدة من الزمـــن .

« جاء العصيدى مدينتنا فى فجر احد الايام على عادته . وفى الحال أرسل غلامه الى (بيت المحامل) فى سور المدينـــة القديم . . فذهب هذا وعاد ليخبره بعددها . وكان هو يعرف العدد الحقيقى ، فوجد ان مغسلا ومحملا ينقصان . وفى الحال دار بالمدينة للاستعلام عن الميت ، فقيل له انه الحاج الغزوانى..

« واستغرب لوفاة الحاج الغزوانى الذى لم يكن بعـــده مرشحا للذهاب الا بعد عمر طويل ، نظرا لانه لم يكن مريضا ،

فقد كان العصيدى يعرف جميـــع مرضى المدينـــة ، وخصوصا كبار السن منهم من الذين لهم املاك تهمة . . وزال عجبه حين عرف السبب . . الحاج الغزوانى مات مسموما بعضة حية فى غرسته . . واضاف العصيدى هــذه (المعلومـــة) الى حصيلة تجاربه العملية ليبحثها بدقة ، ويرى ما اذا كان يمكن الاستفادة منها فى بعض الظروف الخاصة ، وركنها فى زاوية من ذهنه ، وانطلق يدرس خريطة العملية الحالية التى نزلت امامه . .

« ونظر غلامه الى وجهه الاحمر المستطيل ، وطرف من العمامة الجبلية البيضاء المطرزة بالحرير الاصفر ، يغطى عينه البيضاء ، فرأى دمعة تترقرق من العين الوحيدة . . ولـــو كان غيره لظن انها دمعة حزن على وفـــاة الفقيـــد الحاج الغزوانى الذى ترك طفلا يتيما بلا أم ، فريدا بلا قريب . . ولكن الغلام الذكى كان يعرف بالتجربة انها دمعة التمساح الذى دخلـــت فريسته فى دائرة سلطانه . . أو الدمعـــة التى تعقب عطســـة اللذة بعد استنشاق نفحة جيدة من (غبرة طابة الكتامية) . .

« وزحف الاثـــنان ، العصيدى على بغلتـــه ، والغلام فى اثره ، حتى وصلا غرسة الحاج الغزوانى . .

« ووقف العصيدى يمسح بعينه الوحيدة أركان الغرسة الاربعة كما تمسح عدسة تصوير قوية المشهد امامها . . ولـم تمض عدة دقائق حتى كان قد اوى عنـان بغلتـه خارجا من الغرسة فى طريقه الى المدينة لحضور الجنازة . . جنازة شريكه القديم كما أشاع حوله مع من جالسهم من أهل المدينة .

« وبعد دفن الميت ، ذهب الى دار قريب له كان ينـزل بها ، واملى العقد على كاتبه ، وناوله عينـة من خـط العادل الذى ينبغى ان تكتب به الوثيقـة ، وكذلـك (خربوشتـه) أى امـضـاءه . .

« وعاد بعد ساعة ليأخذ العقد فوجد الكاتب يحرك رأسه محتارا عاجزا عن كتابة سطر واحد .

« وسـأله : مـاذا ؟

« فأجاب : هذا الخط ! يستحيل تقليده !

« فتناول العصيدى العقد وقربه من عينه ، وعلق :

هذا خط الفقيه الهزاز . . وهو مصاب (ببوهزهـز) . . ويصر على الكتابة بنفسه . اللعنة عليه !

« وقضى العصيدى مساء ذلك اليوم ، وطرفا من الليل يبحث عن وسيلة لتزوير العقد حتى الفجر . .

« وفى هدأة الصباح سمعت فى غرفة العصيدى شهقة غريبة . . وانفتح بابه ونزل يجرى الى غرفة كاتبه فأيقظه من نومه ، وقال له :

ــ خذ الدواة والقلم والورق واتبعنى . .

« وتبعه الكاتب لا يدرى الى أين ، ولكنه كان متأكدا من أن سيده وجد الحل .

« وعلى الشاطىء استأجر العصيدى زورقا من أحد البحارة ، وطلب منه أن يذهب بهم فى فسحة ، على أن يبقى قرب الشاطىء حيث تعلو الامواج لتنكسر . .

« وهناك طلب من كاتبه أن يجرب كتابة العقد . .

« وعكف الكاتب على الكتابة والعصيدى يتابع القلم بعينه الوحيدة . . وبعد الاسطر الاولى بدأت شفتاه تفتران عن أنيابه الحادة ، فى ابتسامة ظفر وتشفى معا . الظفر بالفرسة والتشفى من الفقيه الهزاز الذى كان يفخر على زملائه باستحالة تزوير خطه !

وتوقف الاستاذ عبد العزيز لينظر الى مفعول قصته فى وجوهنا .. وارتاح لنظرات الاستغـــراب والعجب التى كانت على وجوه الحاضرين والحاضرات . . ثم علق :

« ومنذ ذلك اليوم وأنا كلما التقيت بـــه فى شـــارع أو سوق ، خيل لى انه تمساح هائل يمسك بين فكيه طفل الحاج الغزوانى اليتيم ، ويمزق جسده أطرافا ، تماما كما مزق الببر جسد الغزالة الشاردة . أمامنـــا على الشاشة الصغيرة بـــدون حقد ، ولا غضب ، ولا انفعال . . بل لمجرد اشباع جوع غريزى كجوع جميع الحيوانات فى الغابات ، والحيتان فى المحيطات . .

ثم توقف لحظة ليعود الى السؤال :

ـ فبماذا تحكمون على هذا ؟ هل سيصنف يوم القيامة مع البشر أم مع الحيوانات ؟ وهل سيعاقب بافعالـــه هـــذه ، أم ستعد استجابة طبيعية لغريزة حيوانية لا مسؤولية لـــــه عليهـــــــــا ؟

ودخل الجميع فى نقاش حـــاد . . وطـــار بى الخيال الى تصور تمساح يعيش بين ظهرانينا فى جسم بشرى . . يمشى فى شوارعنا ، ويأكل على موائدنا ، ويلج مساجدنا واسواقنـــا وهو يتحين الفرصة لاقتناص كل من يدخل منا دائرة مملكته الـــوحـــشـــيـــة .

واذا كان العصيدى قد مات اليــوم ، فكــم من امثــاله مايزالون يجوبون الشـوارع ، ويملأون المنــازل والادارات ، والدكاكين ، والوكالات . .

الربــاط **احمد عبد السلام البقالى**

كتاب الأمالي
وأثره في الحياة الثقافية بالأندلس

عبد العلي الودغيري

بدأ اهتمام طلاب العلم والعلماء فى الاندلس بكتاب الامالى ، منذ الخميس الاول الذي جلس فيه القالى لاملائه بالزهراء . وقد كانت الحلقة الواسعة من طلابه ومريديه هى أول طبقة تلقفته من فم صاحبه ، ثم عملت على تدريسه واقرائه وتقليده ، وشرحه وتلخيصه ونقده والنقل عنه فى مصنفاتها . ومن هذه الطبقة أخذ الكتاب طريقه الطويل ، بواسطة الرواية وكل أساليب الاخذ والتحمل المعروفة آنذاك ، واستمرت الحال على ذلك طبقة بعد طبقة ، وجيلا بعد جيل حتى القرن الثامن الهجري ، حيث نجد أحد رجالات الدولة النصرية بغرناطة يحتفظ لنا بسنده فى رواية الكتاب ، وهو أبو الحسن النباهى الجذامى . بل لقد ظلت سلسلة رواية الامالى متواصلة فى خفاء الى ما بعده بقرون . فان الاحداث الخطيرة التى أعقبت القرن الثامن من تشريد مسلمى الاندلس وتفريق شملهم وتمزيق دولتهم ، وما صاحب ذلك من ظروف لانحتاج لشرحها ، قد جعلتنا لا نعثر على بعض حلقات هذه السلسلة الا فى مطلع القرن الثالث عشر الهجري فى سند صالح بن محمد الفلانى (ت: 1218 هـ) المنحدر من أسرة أندلسية مهاجرة . فقد ضاعت اذن حلقات أخرى ما بين القرنين الثامن والثالث عشر . وسنرى من خلال الفقرات الآتية

أن ما لقيه الكتاب من ذيوع وشهرة فى الآفاق ، يضاعف بكثير ما لقيه أي كتاب آخر من تأليف ابى على البغدادي . ولقد تجلى هذا الاهتمام فى نواح متعددة ، نحاول ابرازها فيما يلى :

أ ـ روايتـــه بالأنـــدلس

انه من الطبيعى أن يكون طلبة القالى والآخذون عنه ، هم أول مــن يحمل هذا الكتاب ويرويه ، واذا كنا نخشى المبالغة ان قلنا ان كل تلاميذه من الطبقة الاولى قد أخذوا عنه الامالى أو جزءا منه على الاقل فان الذين تأكد ابن خير الاشبيلى من شأنهم ، جماعة ذكر منهم تسعة عشر رجلا وهم :

1 ـ ابو بكر محمد بن حسن الزبيدي

2 ـ ابو العاصى حكم بن منذر بن سعيد القاضى

3 ـ ابو القاسم احمد بن أبان بن سيد

4 ـ ابو عثمان سعيد بن عثمان القزاز

5 ـ ابو على الحسن بن ايوب الفقيه الحداد

6 ـ ابو نصر هارون بن موسى بن صالح بن جندل

7 ـ ابو بكر بن مروان بن زهر الايادي

8 ـ ابو بكر عباس بن اصبغ الحجاري

9 ـ ابو عمر احمد بن عبد العزيز بن ابى الحباب

10 ـ ابو عمر احمد بن محمد بن احمد بن سعيد بن الجسور

11 ـ ابو القاسم محمد بن احمد بن معارك العقيلى

12 ـ ابو عمر احمد بن سعيد بن ابراهيم ـ يعرف بابن الهندي ـ

13 ـ ابو عبد الله حبيب بن احمد الشطجيري .

14 ــ ابو سعيد احمد بن محمد بن سليمان الاصبحى

15 ــ ابراهيم بن عبد الرحمن التنيسى

16 ــ القاضى أبو محمد عبد الله بن ربيع بن بنوش التميمى

17 ــ القاضى أبو القاسم خلف بن غمرون (أو عمرون)

18 ــ القاضى ابو أيوب سليمان بن خلف بن غمرون (ابن السابق)

19 ــ القاضى ابو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث (أخذ عنه يسيرا من الكتاب) (2) .

وبعد هذه الطبقة نجد من الذين اعتنوا برواية الكتاب وقراءته وحفظه عددا يصعب أن يأتى عليه احصاء ، وانما نكتفى هنا بذكر أمثلة قليلة منهم :

1) ابو عمر القرمونى : قرأ النوادر سنة 395 هـ على أبى نصر هارون ابن موسى الذي قراها بدوره على القالى ، وبقراءة القرمونى أخذها ابو عبد الله الخولانى ، نص على ذلك ابن الابار (3) .

2) أبو عبد الله محمد بن بهلول الكفيف : (ت . 460 هـ) من أهل بطليوس ، ومن اصحاب ابى عبد الله الحجاري . قال ابن الابار : « ذكره ابن عزير وقال دخل (ينيشتة) بلدي سنة 455 فاجتمعنا اليه فى الكامل والنوادر وكان من القائمين عليهما » (4) . وواضح من الفقرة الاخيرة ان الكفيف كان يدرس الامالى والكامل .

---

2) فهرسة ابن خير : ص : 325

3) التكملة : الترجمة رقم : 2245 ص : 194 ــ بالنسيا . 191/1 .

4) التكملة /393 (طبعة عزت العطار) ــ مصر .

3) مسعود بن على بن مسعود الاديب الانصاري الاندلسى : من علمـــاء القرن السادس الهجري . قال ابن الابار : « ووقفت على أخذ النوادر لابى على عنه فى صفر سنة 512 هـ » (5) .

4) ابو مروان حزب الله بن محمد بن على بن عبد الرحمن الازدى : — من أهل (لرية) — عمل بلنسية — المتوفى سنة 585 هـ . قال عنه ابـــن الابار : « وكان أديبا شاعرا حافظا كامل المبرد ونوادر أبى علـــى واقفا عليها » (6)

5) أبو القاسم بن البراق : محمد بن على بن محمد الهمدانى : من وادي آش (ت. 596 هـ) . روى عن أبى بكر بن رزق عن أبى عبد الله بـــن مكى كتاب النوادر لابى على ، وقد روى بجانب ذلك طبقات الزبيدي والاشعار الستة شرح الاعلم . والفصيح لثلعب ، والكامل للمبرد (7).

6) ابو محمد عبد الله بن تنتان النحوي : ممن روى عن أبى عبد اللــــه الحجاري وابى الحجاج الاعلم . قال ابن الابار : « .. وكان عالمـــا بالعربية حافظا لكتب الاداب والاشعار ، ذاكرا لكامل المبرد وأمالى أبى على البغدادي » . (8) . ولم يذكر وفاته ولكنه قال انه علمبقرطبـــة سنة 598 هـ .

7) ابو جعفر احمد بن على بن محمد الانصاري الاوسى من أهل قرطبـــة ، توفى قريبا من سنة 606 هـ . قال ابن الابار : « .. وكان ذا رواية ، اديبا ذاكرا لامالى ابى على القالى » (9) .

---

5) نفس المصدر : 716/2 — 717 (ط. عزت العطار) .
6) نفس المصدر والطبعة : 282/1 — ولعل الصواب فى الكلمة الاخيرة : (عليهما)
7) الذيل والتكملة : 463/6
8) التكملة : (طبعة عزت العطار) : 811/2 — 812
9) نفسه : 99/1 .

8) أبو القاسم بن الطليسان : سليمان بن أحمد بن محمد بن سليمان الانصاري المتوفى سنة 607 هـ . قال ابن عبد الملك المراكشي : « قال أبو القاسم بن أخيه : قرأت عليه بمتعبده من الجامع بقرطبة : الغريب المصنف لابى عبيد ، والامثال له ، ونحو ربع أمالى القالى . وكان يحفظ هذه الكتب أو أكثرها » (10) .

9) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يربوع : من ساكنى جيان ، توفى سنة 610 هـ أو نحوها ، قال ابن الابار : « .. ورأيت السماع عليه فى النوادر لابى على البغدادي سنة 592 هـ » (11)

10) أم الفتح فاطمة بنت أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد بن غالب القرطبى الشراط ، المتوفاة سنة 613 هـ . قابلت مع أبيها صحيح مسلم ، والسيرة النبوية ، والكامل والنوادر (12) .

11) أبو العباس بن أبى عزفة : أحمد بن القاضى أبى عبد الله محمد بن أحمد اللخمى (ت. 633 هـ) سمع عن شيخه أبى محمد بن عبد الله الحجري مختصر العين للزبيدي ، وأدب الكاتب ، والجمهرة لابن دريد، والكامل للمبرد ، ونوادر القالى ، والمقامات . كما قرأ عليه وسمع المقصور والممدود للقالى أيضا . ثم قرأ على أبى القاسم عبد الرحمن ابن على بن عبد الرحمن الجذامى (الامثال ، والنوادر ، والاشعار الستة) (13) .

12) أبو عبد الله بن الصفار : محمد بن عبد الله بن عمر الانصاري الاوسى المتوفى سنة 639 هـ بتونس . سمع كتاب الامالى على أبى

---

10) الذيل والتكملة : 58/4 ــ 59 .
11) التكملة : 592/2 . (طبعة ــ عزت العطار)
12) نفس المصدر : 747/2 ــ ط. كوديرا .
13) برنامج شيوخ الرعينى : ص : 44 ــ 45 ــ والمقصود بالنوادر فى العبارة الاخيرة : نوادر القالى . اي أماليه .

عبد الله بن زرقون، كما قرا الكامل للمبرد على ابى الحسن بنلجبة(14)

13) ابو الحسن سهل بن الحاج ابى عبد الله محمد بن سهل بن مالكالازدي الغرناطى المتوفى سنة 639 هـ . قرأ على أبى عبد الله بن حميـــد (النوادر لابى على القالى ومقامات الحريري وبعض الايضاح) . وهو من شيوخ الرعينى صاحب البرنامج (15)

14) ابو الحسن على بن محمد بن على الرعينى الاشبيلى المتوفى سنة666هـ (وهو صاحب البرنامج) . قرا على ابى بكر محمد بن طلحة بن محمد ابن حزم الاموي وسمع أكثر الكتب الادبية واللغوية ، كالجمـــل ، والاشعار الستة ، وأدب الكاتب ، واصلاح المنطق ، وفصيح ثعلب ، والحماسة والمقامات . قال : « وسمعت عليه كثيرا من كتـــاب سيبويه ، ومن الكامل ، وشعر حبيب ، ونوادر أبى على ، وغير ذلك، على طريقة التفقه والتعلم » . (16) .

15) اشراق السويداء العروضية : ــ مولاة ابى المطرف عبد الرحمن بن غلبون القرطبى الكاتب . قال السيوطى عنها : « .. اخذت النحو واللغة عن مولاها ، ولكن فاقته فى ذلك وبرعت فى العروض ، وكانت تحفــظ الكامل للمبرد والنوادر للقالى وتشرحهما (17) . قرأ عليها أبو داود ابن نجاح . وماتت بدانية بعد سيدها فى حدود الخمسين واربـــع مئة » (18) واما مولاها عبد الرحمن بن غلبون فقد كان تلميذا لابن ابى الحباب الذياخذ الامالىوغيرها عن الشيخالقالى،وكان مناشهرتلاميذه

---

14) الذيل والتكملة : 6 / 288 .
15) برنامج شيوخ الرعينى : ص : 60 .
16) برنامج الرعينى ص : 79
17) فى الذيل والتكملة (قسم الغرباء) المخطوط المصور بالرباط رقم : 1705 د. ص : 247 : (وتنصهما)
18) بغية الوعاة ص : 200 .

فلاشراق اذن سند واضح فى رواية الكتاب وهى التى جلست لاقرائه بعد موت مولاها سنة 443 هـ . (19) .

وسيطول بنا الامر لو مضينا فى تذييل هذه القائمةوتمطيطها بأسماء الرواة والآخذين للكتاب فى مختلف العصور . ولذلك سنكتفى بذكر ستة اسانيد لروايته بالاندلس ، أغلبها ينتهى الى القرن السادس الهجري ، وبعضها الى بداية السابع ، ثم الثامن الى الثالث عشر ، وهى اسانيد أبى محمد بن عطية والقاضى عياض ، وابن خير الاشبيلى ، وأبى عبد الله التجيبى ، وابى الحسن النباهى الجذامى ، وصالح بن محمد الفلاني — حسب الترتيب الزمنى — موضحة فى الجداول التالية ، ومنها يبدو لنا خطر انتشار هذا الكتاب ومدى الاقبال والعناية التى لقيها بمر العصور .

1 — سند أبى محمد بن عطية (20) فى رواية الكتاب (21)

القالى
|
احمد بن أبى الحباب
|
ابو مروان بن حيان
|
ابو على الغسانى
|
ابو محمد بن عطية

---

19) التكملة : 2 / 548 — كوديرا — وقد ورد اسم مولاها عند السيوطى (عبد الله) وورد اسمها عنده : (السوداء) والتصحيح من الذيل والتكملة .

20) هو ابو محمد عبد الحق بن عطية المتوفى سنة 541 هـ — ترجمته فى المرقبة العليا ص : 109 — معجم الصدفى : 259 — المطرب لابن دحية : 91 — 213 — المغرب لابن سعيد: 117/2 — الكتيبة الكامنة: 269 .

21) مستخرج من فهرسة ابن عطية : مخطوط قسم الوثائق بالرباط . ص : 24 .

2 ـ سند القاضي عياض (22)
في رواية الكتاب (23)



(اخذه قراءة ، ومناولة ، وسماعا)

وقد روى عياض كتاب الامالى ايضا عن أستاذ آخر غير النفزي ، وهو الشيخ أبو على الحسن بن على بن طريف النحوي التاهرتى (24) المتوفى سـ : 50 هـ . ولكنه لم يذكر سند هذا الشيخ الذي روى عنه بالاضافة للامالى كتاب الواضح للزبيدي ، والكافى لابى جعفر النحاس ، وادب الكتاب لابن قتيبة ، والايضاح للفارسى ، وفصيح ثعلب ، والمقتضب للمبرد ، واكتفى بأن قال : ((.. قرأت عليه أكثر كتاب الامالى لابى على ، وسمعت عليه كثيرا من الكامل للمبرد وغير ذلك ، ولم تحضرنا أسانيده فيها)) .

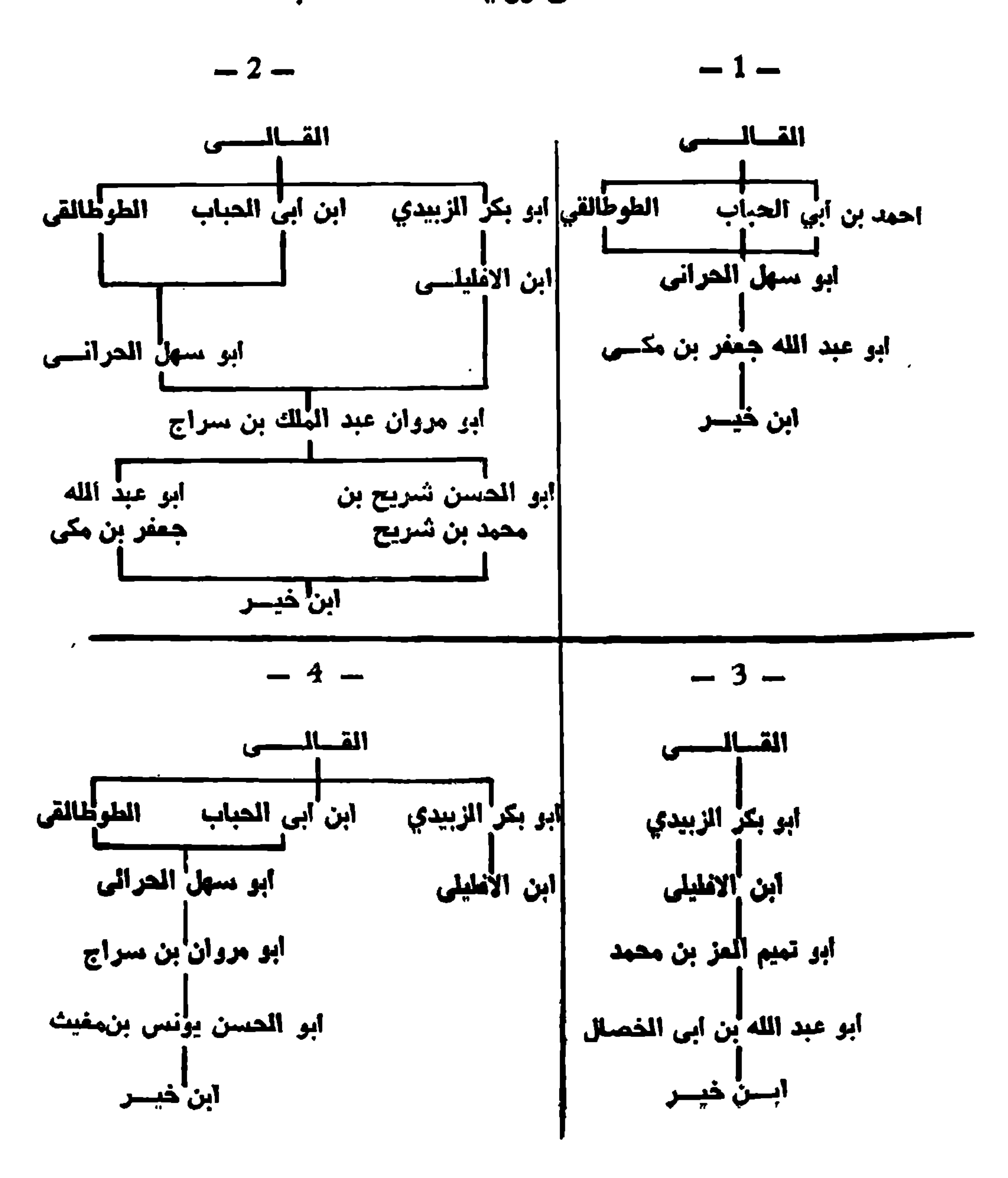
---

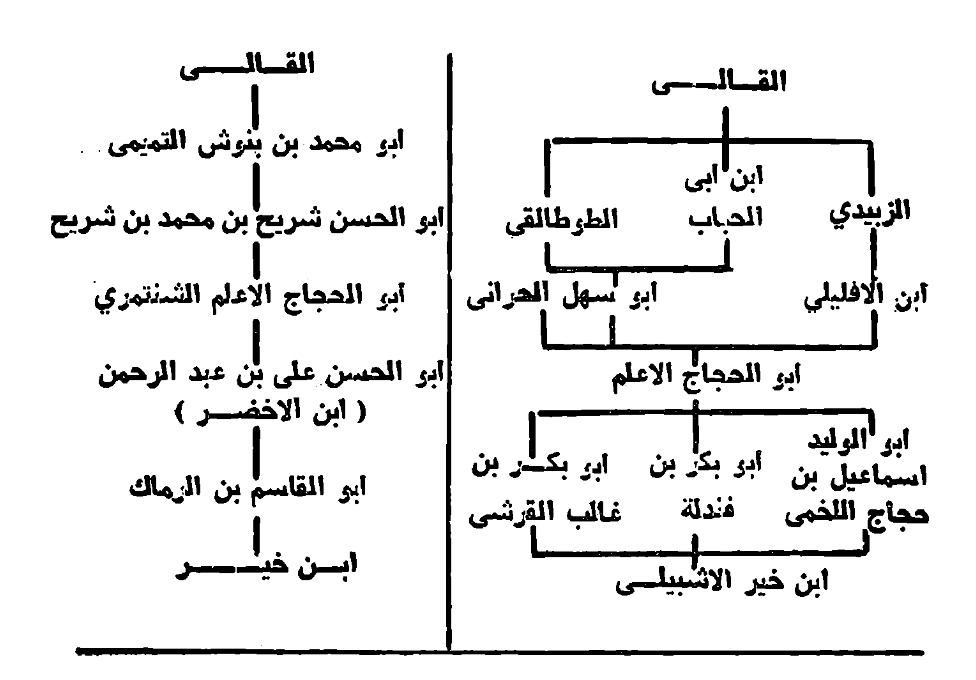
22) هو ابو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى الاندلسى المتوفى سنة 544 بمراكش . ترجمته فى : المرقبة العليا ص: 101 ومعجم اصحاب الصدفى ص : 294 وغيرهما .

23) مستخرج من فهرسته . مخطوط قسم الوثائق بالرباط ص : 25

24) فهرسة عياض ص : 79 . وقال عنه : ((شيخ بلدنا فى النحو ، مشهور بالصلاح ، وله سماع عن الفقيه حجاج بن المامونى)) .

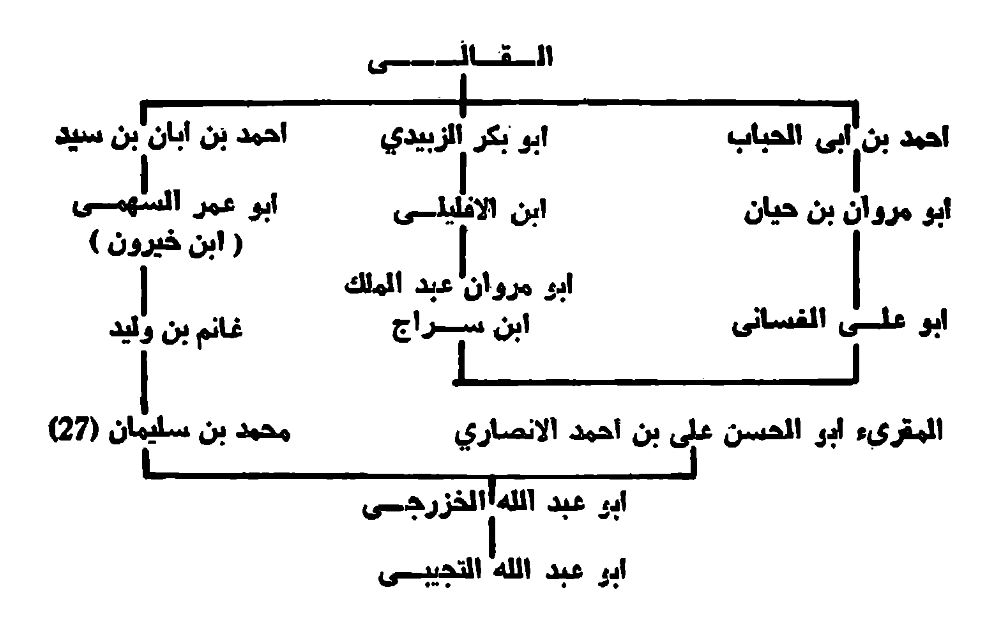
3 ـ أسانيد ابن خيـر الاشبيلـي (ت 575 هـ)
في روايـة الكتـاب :





فهذه جداول مفصلة للطرق التي وصل بها كتاب امالي القالي ، الي ابن خير الاشبيلى فى القرن السادس ، مستخرجة مما ذكره ابن خير نفسه فى فهرسته (ص : 323 — 324) ومنها يتضح انه لم يكن مبالغا حين وصف سنده للكتاب قائلا : ((.. وهذا سند عال والحمد لله .))

4 ـ سند أبى عبد الله التجيبى (25)
فى روايـــة الكتـــاب (26)



---

25) هو ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن على التجيبى الاندلسـى المتوفى سنة 610 هـ بتلمسان . انظر ترجمته فى التكملة : 588/2 ـ كوديرا ـ والذيل والتكملة : 352/6 ـ وفهرس الفهارس للكتانى: 191/1

26) مستخرج من فهرسته ـ مخطوط قسم الوثائق بالرباط ـ الورقة 54

27) وهو ابو عبد الله محمد بن سليمان بن احمد النفزي ، كما يرد اسمه دائما فى اسانيد ابن خير .

5 ـ سنـد أبى الحسن الجذامـى (28)
فى روايـة الكتـاب (29)

القـالـى

احمد بن ابان بن سيـد

ابو عمر السهمـي (أبن خيرون)

ابو محمد غانم بن وليد المخزومى

ابو الحجـاج يوسف بن محمد البلوي بن الشيخ الخطيب ابو اسحاق الاوسـى

القاضى المحدث ابو القاسم محمد بن سعيد بن ابراهيم الثقفى (30)

ابو الحسن الجذامـى

---

28) أبو الحسن على بن عبد الله الجذامى المالقى النباهى ، صاحـب (المرقبة العليا) أو (تاريخ قضاة الاندلس) من علماء القرن الثامن الهجري . ولد سنة 713 هـ . وقال التنبكتى انه كان حيا سنة 792 هـ. ولم يعرف تاريخ وفاته (انظر نيل الابتهاج بحاشية الديباج ص : 205 ـ 206 ـ طبعة مصر)

29) ذكر هذا السند فى كتابه : (شرح مقامة الاكليل فى تفضيل النخلة) مخطوط قسم الوثائق بالرباط ، ص : 101

30) فى الدرر الكامنة : 65/4 ـ ترجمة لمحمد بن سعيد بن ابراهيم بـن عيسى بن داود الحميري (أبي القاسم المالقي) المتوفى سنة 751 هـ ولعله هو المقصود هنـا .

على ان الجذامى قد روى الكتاب عن جماعة من الشيوخ غير ابـــى القاسم الثقفى ، ولكنه ــ كما ذكر ــ اكتفى بهذا السند .

6 ــ سند صالح بن محمد الفلانى (31)
فى روايـــة الكتـــاب (32)

فاذا كان الفلانى قد نزح آباؤه ، وهاجروا من الاندلس الى افريقية ، وكان هو نفسه قد مات فى المدينة المنورة كما تدل على ذلك ترجمته ، وأنه متاخرا جدا ، فان سنده مع ذلك ينتهى الى علماء الاندلس ، وذلك هو الجانب الذي يهمنا . فقد ذكر الفلانى أن سنده ينتهى فى رواية الامالى الى :

(ابى طـــاهـــر) السلفـــى

عن : يونس بن محمد بن مغيـــث

عن : ابى عمر احمد (بن محمد) بن يحيى (بن الحذاء) (33)

عن : احمد بن ابى الحبـــاب

عن : القـــالـــى

---

31) وهو صالح بن محمد بن نوح بن عبد الله العمري من ذرية الحافظ عليم بن عبد العزيز الشاطبى الاندلسى ، نزل آباؤه فى (فلان) وهى قبيلة بالسودان ، وتوفى سنة 1218 هـ . وكان مولده سنة 1166 هـ ــ ترجمته فى فهرس الفهارس للكتانى : 264/2 ــ ووردت له ترجمة مختصرة على غلاف مخطوطة (قطف الثمر ..)

32) مستخرج من كتابه : (قطف الثمر فى رفع أسانيد المصنفات فى الفنون والاثر) مخطوط الرباط ، ص : 298 .

33) ذكره المؤلف هكذا : (ابو عمر احمد بن يحيى) . وبالرجوع الى اسانيد أبى الحسن بن مغيث من خلال فهرسة ابن خير ، استطعنا أن نحقق هذا الاســـم .

وهذا السند المذكور وثيقة هامة فى ايدينا بالنسبة لكتاب الامالى ، اذ به نفتح نافذة على واحدة من الطرق التى انتقل بها سنده من الاندلس الى المشرق ، ذلك أن أبا طاهر السلفى الذي انتهى اليه سند الفلانى ليس اندلسيا — كما هو معروف — ولكنه أصبهانى نزل الاسكندرية وقرأ بالعراق، والشام ، وبلاد الجبل ، وخراسان ، والحجاز ، وكان محدثا شهيرا : وله قصة ذكرها ابن الابار في معجم أصحاب الصدفى ، تشرح لنا طريق روايته عن أهل الاندلس ، وكيف انتقل اليه سند بعض كبار علمائها ، كما تشرح لنا سند الفلانى المذكور . قال ابن الابار فى ترجمة السلفى :

((.. كان قدومه الاسكندرية فى أول سنة 511 هـ للسماع من أبى عبد الله بن الحطاب الرازي ، وفى نيته (34) أختراق بلاد المغرب والاندلس للاخذ عن أصحاب أبى عمر بن عبد البر وغيرهم ، ثم العود الى أصبهان بلده ، فشغله أهلها بالسماع عنه والاحسان اليه ، وأقام بها الى أن مات الرازي سنة 525 هـ ، وقد استوفى مئة سنة فخلفه فى الاسماع ، وطال عمره ليطول به الانتفاع ومنها كتب الى أبى عمران بن أبى تليد ، وأبى محمد بن عتاب وأبى الحسن بن بقى ، وأبى الوليد بن طريف ، وأبى بحر الاسدي ، وأبى الوليد بن رشد ، وأبى على بن سكرة ، وأبى جعفر بن جحدر ، وأبى الحسن بن عفيف ، وأبى القاسم بن صواب ، وأبى الحسن شريح بن محمد ، وأبى عبد الله بن الحاج ، وأبى الحسن بن مغيث وغيره . فأجاز له جميعهم ، اذ فاته السماع منهم)) (35) .

فمن هذه الترجمة نعرف طريق اتصاله بأبى الحسن بن مغيث الاندلسى الذي أخذ كتاب الامالى ، فقد رواه عنه بالاجازة ، وهى احدى طرق الاخذ والتحمل .

على أن هذه ليست هى الطريق الوحيدة التى يكون سند الكتاب قد انتقل بها الى المشرق ، بل هناك طرق أخرى لم يتوصل بحثنا لمعرفة الكثير

---

(34) فى معجم أصحاب الصدفى : (بيته) وهو خطأ واضح .

(35) معجم أصحاب الصدفى ص : 49 — 50 — وتوفى أبو طاهر السلفى أحمد بن محمد بن أحمد الاصبهانى سنة 576 هـ

منها ، ولاسيما أن أهل الاندلس بعد تشردهم من الوطن المفقود ، قد توزعتهم البلاد العربية شرقا ومغربا ، ومنهم الذين قصدوا مصر والشام . كما قصد بعضهم تونس والمغرب وبلدان أفريقية ، على أن الصلات بين المشـــرق والمغرب لم تكن منقطعة قبل ذلك بل ظلت الرحلة للحج والهجرة للعلـــم والتجارة من أقوى أسباب تلك الروابط .

ــ فمن الذين نقلوا (الامالى) أيضا الى المشرق : المبارك بن سعيد البغدادي المعروف بابن الخشاب ، فقد قدم الى الاندلس تاجرا فى القـــرن الخامس الهجري سنة 483 هـ واغتنمها فرصة للاخذ عن علمائها ، وفى ذلك يقول ابن بشكوال : ((وسمع هو أيضا بقرطبة من أبى مروان بن سراج كتاب النوادر لابى على البغدادي وسمع أيضا بالمرية من أبى اسحاق بن وردون : كتاب أحكام القرآن للقاضى اسماعيل ، وكان من أهل الثقة والصـــــدق والثروة . ثم قفل من الاندلس وانصرف الى بغداد الى أن توفى بها بعـــــد التسعين والاربع مئة)) (36)

ــ ولا شك أن أبا الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن حزم (37) (ت.454هـ) حين رحل الى المشرق ودخل بغداد وأقام بها مدة ، قد نقل معه الكتاب أو رواياته منه ، فنحن نجد فى تاريخ الخطيب البغدادي عند ترجمة أبى المياس شيخ القالى ، نصا موجودا بالامالى (65/1) ويرويه الخطيب عن العلاء بن حزم الاندلسى عن أبى القاسم الافليلى عن أبى بكر الزبيدي عن أبى علـــى القالى (38) وقد ذكر الحميدي أن أبا بكر الخطيب البغدادي كان واحـــــدا ممن لقى أبا الخطاب وهو ببغداد ، فأخرج عنه فى غير موضع من مصنفاته.

ــ وعرف الكتاب أيضا بتونس عن طريق كثيرة بلاشك لعلاقة الجوار بينها وبين الاندلس ، حتى لقد وصف ذلك ابن الربيب القيروانى بقوله : ((لانه ليس

---

36) الصلة : 2 /599 (طبعة عزت العطار)

37) ترجمته فى الجذوة ص : 298 ــ والصلة : 2 / 444 (طبعة الـــدار المصرية سنة 1966)

38) تاريخ بغداد : ج : 14 ص : 427 ــ 428 ــ الترجمة رقم : 7789

بيننا وبينكم غير روحة راكب أو رحلة قارب ، لو نفث من بلدكم مصــدور لاسمع من ببلدنا في القبور ، فضلا عمن في الدور والقصور)) (39) وقد كانت تونس أيضا طريقا لحمل الثقافة الاندلسية والمغربية الى الشرق ومنها كتب القالى . فمن الذين حملوا كتاب الامالى الى مصر من التونسيين على الاخص: ابو عبد الله محمد بن محمد ركن الدين بن القويع (40) المولود بتونس سنة 664 هـ وبها أخذ علومه حتى تمكن ، ثم جال في المشرق الى أن استقــر بالقاهرة حيث مات سنة 738 هـ ، وبها صحح عليه كتاب الامالى . قــال السيوطى : ((وناب في الحكم في القاهرة ، ثم تركه وقال : يتعذر منه براءة الذمة ، وجاءاليه انسان يصحح عليه أمالى القالى ، فكان يسابقه الى الفاظ الكتاب ، فبهت الرجل ، فقال له : لى عشرون سنة ما كررت عليه)) (41). ومن قال لنا أن الكتاب صحح عليه فقط ؟ فلقد أمضى ابن القويع بالمشــرق ثمانية وأربعين عاما ، اذ كان وصوله لدمشق سنة 690 هـ ــ كما يذكــر السيوطــى ــ فــلا شــك أنــه أخــذ عنــه فيما أخذ قبــل ذلــك التاريخ أو بعده ، وعلى كل حال فالمظنون أن ابن القويع قد درس الامالى

ببلــده تونــس ، وأرجــح أن يكــون ذلــك علــى يــد يحيــى بــن الفرج بن زيتون النحوي (42) أو آخرين ممن درس عليهم اللغة والنحــو ، ونفهم من النص أيضا أن نسخا من الكتاب كانت معروفة بمصر طلب منه ان يصحح عليه بعضها ، فضلا عما كان يحفظه .

ــ وفي الجزائر أيضا ، نجد الامالى من جملة الكتب الادبية وأمهــات المصادر التى تدرس وتعلم في حلقاتها ، فقد قرأه هنالك أبو العباس احمد بن

---

39) رسالة ابن الربيب (ضمن رسائل في فضائل الاندلس) نشرها صلاح الدين المنجد ص : 2

40) ترجمته في بغية الوعاة : ص : 97 ، ودرة الحجال : القســم الاول ص : 301 .

41) انظر الوعاة ص : 97 ــ 99 .

42) نفس المصدر : ص : 97

احمد الغبريني (ت. 704 هـ) على شيخه أبي عبد الله محمد بن الحسن التميمي القلعي (ت. 673 هـ) وفي ذلك يقول : ((.. وقرأت عليه النصف من كتاب سيبويه ، وقرأت عليه قانون ابي موسى الجزولي وقرأت عليه جملة من الامالي ومن زهر الاداب ومن المقامات ، وقصائد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبي)) (43) .

ــ ثم ذكر الغبريني شيخا آخر من شيوخه الجزائريين وهو ابو الحجاج يوسف بن سعيد بن يخلف الجزائري (من القرن السابع) وقال : ((.. حضرت مجلسه يقرا فيه الايضاح والجمل والمفصل ، وقانون أبي موسى الجزولي ومقدمة ابن بابشاذ ، واصلاح المنطق . ويعرف فيه شعر حبيب والمتنبي واشعار الستة والمعري والحماسة لغير واحد . ويقرأ فيه من الادب : المقامات والامالي وغير ذلك من الكتب الادبية والنحوية واللغوية)) (44).

وقد اشتهر هذا الكتاب في الغرب الاسلامي ، حتى صار اذا اطلق اسم (الامالي) او (النوادر) كان المقصود به أمالي أو نوادر القالي كما نلحظ في النصين السابقين .

واما سند القاضي عياض السبتي المغربي الاندلسي الذي ذكرناه سابقا ، فهو بلا شك كان من احدى الطرق التي دخل بها الامالي الى المغرب الاقصى ، وبودنا لو أمكننا تتبع هذه الحلقات المتعاقبة في مجال أوسع ، لو ان موضوعية البحث واطاره المحدود يسمحان لنا بذلك .

ب ــ الدراسات والشروح التي قامت حوله بالأندلس

هذا هو الجانب الثاني الذي يصور منزلة الكتاب وما حظي به من اهتمام عند اهل الاندلس ، ويدل على بعض المسالك التي سارت فيها الثقافة الاندلسية ، وعلى مقدار تاثيره في دراساتها اللغوية والادبية .

---

43) عنوان الدراية ص : 94

44) نفس المصدر : ص : 103

واول دراسة قامت حول الكتاب من حيث الاهمية هى التى عنى بها ابو عبيد البكري (ت. 487 هـ او سنة 496 هـ) فى كتابين له : (كتاب الآلى فى شرح امالى القالى) ، و (كتاب التنبيه على أوهام ابى على فى اماليه)

1 ـ كتاب الآلـى فى شـرح الامالـى :

وقد نال عناية جيدة من العلامة عبد العزيز الميمنى فحققه وصححه ووضع حواشيه ، ثم طبعه سنة 1936 م بمصر تحت عنوان : (سمط اللآلى) فى ثلاثة اجزاء . الجزءان الاولان منه تلعيقات وحواش على (اللآلى فى شرح امالى القالى) ، والجزء الثالث خاص بشرح (الذيل) و (صلة الذيل) على طريقة البكري .وذلك ان صاحب اللآلىء فى الاصل اقتصر على شرح الامالى بجزئيه واغفل الذيل وصلته . لان شهرة الامالى قد غطت على شهرة ملحقه .

واما مضمون الكتاب ومحتواه ، فيلخصه البكرى نفسه فى المقدمة اذ يقول : ((.. هذا كتاب شرحت فيه من النوادر التى أملها ابو على اسماعيل بن القاسم القالى ما أغفل ، وبينت من معانى منظومها ومنثورها ما أشكل ، ووصلت من شواهدها وسائر أشعارها ما قطع ، ونسبت من ذلك الى قائليه ما اهمل ، وكثيرا ما يرد البيت المفرد ، والشعر الغفل المجرد على ما ذكرت فى صدر كتابى فى ابيات الغريب المصنف . وذكرت اختلاف الروايات فيما نقله ابو على ، ذكر مرجح ناقد ، ونبهت على ما وهم فيه ، تنبيه منصف لا متعسف ولا معاند ، محتج على جميع ذلك بالدليل والشاهد))

ففى هذه المقدمة يرسم البكري منهجا وعد ان يفصل كتابه على مثاله، بأن لا يقف موقف الشارح الذي لا يعدو تبسيط معقد وحل مشكل ، وتوضيح غامض ، بل كلف نفسه فوق ذلك أن يصل ما قطع القالى من الشواهـــد ، ويعزو منها ما اغفله الى قائليه ، ويورد اختلاف الروايات فيما حكى فيـــه المؤلف وجها واحدا ، ثم يصوب الاخطاء ويرد على الاراء ، وينبه علـــى الاوهام بالادلة والحجج . وهذا عبء ثقيل حقا لا يقوم بحمله ممن يـــروم التصدي لعالم جليل كالقالى الا ذو القدرة والرسوخ فى العلم ، ولم يكن هذا الامر معجزا للبكري الذي حوت خزائنه كثيرا من خطوط العلماء ونـــوادر

المؤلفات ، والذي اشتهر بعدة تصانيف وتعليقات على كتب فحول اللغـة وفرسانها ، كطرره على الكامل للمبرد ، وشرحه لابيات الغريب المصنف المذكور فى هذه المقدمة ، وشرح كتاب الامثال لابى عبيد القاسم بن سـلام المسمى (فصل المقال) ، وكتاب اشتقاق الاسماء ، وغيرها ... وكتاب اللآلىء وحده كاف ليعرفنا على ثقافة الرجل وسعة اطلاعه ، وما جمعته يده مـن نفائس وذخائر الكتب والعلوم . قال الميمنى فى مقدمة السمط : ((لا غرو ان البكري كان حريصا على انتقاء الكتب ذوات الخطوط المنسوبة مغرمـا باقتنائها ، متثبتا فى ضبط الالفاظ وتقييد الروايات .. ونرى صاحبنا وقف على الكتب التى أملى ابو على منها النوادر ، وعلى اصوله . كالابدال لابن السكيت واماالى ابن الانباري ، ونوادر ابن الاعرابى ، بخط أبى موسى الحامـض . وعلى كثير من المجاميع كالمنتسخة من كتاب ابى سعيد السكري ، وكتاب ابى على بخطه الذي قرا فيه على ابن دريد ، والكتاب الذي قرا فيه على نفطويه ، وهو بخط ابراهيم بن سعدان ، وشعر ابن الاحمر ... الى غيرها))

فهذه القائمة التى استخرجها الميمنى من (اللالىء) نفسه ، مما كـان يشير اليه البكري بين الحين والاخر ، هى التى اعانت أبا عبيد واعطتـه الحصانة العلمية الكافية ليواجه رجلا شديد مراس العلم كالقالى . وأن يقف على اوهامه وأخطائه وما اغفله وتركه ، هذا بالاضافة الى ما اعتمد عليه من روايات شفوية انتهت اليه من طريق تلاميذ القالى .

ونعود الان لكتاب اللآلىء ، فنرى ان المؤلف قد وفى بما وعد حـق الوفاء ، فاعتنى بدراسة الامالى عناية جيدة ، الا ان اهم ما فى ذلك هـو الجانب النقدى المتمثل فى المآخذ والتنبيهات التى سجلها عليه ، والتـى لا تخرج فى جملتها عن النقط التى سنذكرها عند الحديث عن كتاب التنبيه . واذا كان البكري قد اشتط احيانا فى حق القالى ، فرماه بالقصور تارة واتهمـه بالجهل اخرى وبالغ فى تخطيئه ، فان الاستاذ الميمنى قد نصب نفسه مدافعا قويا ضد البكري . فلم يكد يغفل ماخذا واحدا مما انتقده فيه دون أن يرده فى السمط ، ويكلف نفسه عناء البحث والتنقيب وراء الحجة التى تدعم راي ابى على وتعزز صواب روايته ، وترجح وجهة ما ذكره ، حتى ليصل به الامر مع ابي عبيد احيانا حدا يمكن وصفه بالتعصب للقالى والتقدير المفرط لعلمه.

ولكن رغم موقف الميمنى هذا من صاحبه البكري ، فانه لم يقصر من جهة اخرى فى الاعتراف بفضله وعلمه وقد ذهب الى تقليده عندما شرح الذيل والنوادر ونهج مسلكه فيه ، وقال : ((وقد تكلفت محاكاة البكري على ضعف متنى وقلة حيلتى ، وان كان مثلى لا يدرك شاوه ، ولا يشق غباره ، فانه رحمه الله كان يملك خزانة جليلة فيها من الخطوط المنسوبة ، كل علق مضنة ، وكان فى عصر ازدهر بالعلم وذويه ، وقد حرمت ذلك كله)) (45) .

2 ـ اما كتـاب التنبيـــه :

فقد طبعه ناشر الامالى فى سفر واحد مع الذيل والنوادر ، بتعليقات الاب انطون صالحانى ، غير أن محتواه الذي يدل عليه عنوانه لم يكن شيئا يختلف فى كثير عما ورد باللآلىء من التنبيهات والتصويبات والنقود ، ولذلك قال الميمنى : ((وهذه التنبيهات توجد فى اللآلىء اوفى واوعـــب ممـا فى (التنبيه) ، وكانه رحمه الله التقطها من اللآلىء وأفردها فى كتاب مفرز ليقدمه الى المعتمد (46) ويسمه باسمه ، فانى لم أجد فيه شيئا زائدا على ما فى (اللآلىء) اللهم اسطرا نقلتها فى تعليقاتى فلم يبق فيه بقية ، فلا عليك ان لم تحوه خزانة كتبك)) (47) .

ويمكن تلخيص انواع مآخذه على القالى فى (التنبيه) فى النقط التالية :

ا ـ ابيات لم ينسبها القالى او نسبها لغير اصحابها : فاستدرك ذلـك البكري او صحح ما اخطأ فيه (48) . ومن أقواله التى يكررها بهـذا الصدد : ((وابو على رحمه الله ، اذا جهل قائل شعر نسبه الـى اعرابى)) .

---

45) السمط : 106/3
46) يقصد المعتمد بن عباد المؤلف اليه الكتاب .
47) مقدمة السمط . ص : (ل) .
48) انظر من امثلة هذا النوع الصفحات التالية من التنبيه : 16 ـ 22 ـ 23 ـ 26 ـ 36 ـ 37 ـ 44 ـ 45 ـ 105 .

ب ــ اشياء يرويها ثم يخطىء فى تفسيرها (49) . فقد روى القالى مثلا بيت الفرزدق :

يفلقن هـــا (50) من لم تنلـــه سيوفنـا
بأسيافنـــا هـــام الملـوك القمـاقـم

واورد احتجاجا على أبى بكر بن الانباري الذي قال بتذكير(الهام) اذ كان راى القالى تأنيثها . فقال البكري : ((.. لم يوفق أبو على ــ رحمه الله ــ فى هذا الاحتجاج لانه أنكر المعروف وعرف المنكر ، كيف ينكر تذكير الهام وهو يروى فى شعر النابغة ويروي :

بضرب يزيل الهـــام مـــن سكناتـــه
وطعـــن كايزاغ المخـــاض الضوارب (51)

ج ــ اخطاء وتصحيف وتخليط فى بعض ما يرويه : ومن اطرف ذلك مـــا استدركه عليه فى وزن هذا البيـــت :

كانما وجهك ظـــل مـــن حجـــــر
خضل فى يـــوم ريــــح ومطـــــر

فقال البكري : ((.. ــ خضل فى يوم ريح ومطـــر ــ غير صحيح الوزن وانما هو : ــ ذو خضل فى يوم ريح ومطر ــ . كذلك انشده الرواة)) (52).

---

49) وانظر الصفحات التالية من التنبيه : 17 ــ 18 ــ 29 ــ 36 ــ 42 ــ 59 .

50) تفسر (ها) هنا على أنها حرف تنبيه ، ويروى : (يفلقن هاما)

51) التنبيه ص : 85 ــ وزغت الناقة واوزغت ببولها : رمته دفعة دفعة والمخاض : الحوامل من النوق أو العشار التى اتى عليها من حملها عشرة أشهر ــ والضارب : الناقة تضرب حالبها . (القاموس)

52) التنبيه . ص 90 ــ وهو فى الامالى : 12/2 كما ذكر البكري ويظهر انه من تصحيفات النساخ اذ سقط حرف (ذو) من أول الشطر .

د ـ اهماله تفسير بعض الابيات ، واقتصاره فيما يفسره على الظاهر من الالفاظ دون الباطن من المعانى . قال ـنبيها على أبيات لم يفسرها القالى ((وهذا مما أهمله ابو على ، ولم يفسر معناه والمراد به ، وكثيرا ما يشغله ظاهر اللغة عن تفسير غامض المعانى ، وقد أفردت لشرح معانى نوادره كتابا غير هذا)) . (53) ، يقصد كتاب اللآلىء

هـ ـ اسقاطه من الشعر ما يخل بمعناه (54)

و ـ اتباعه لاخطاء سابقيه (55) .

وهكذا نلاحظ أن الفرق بين كتابى البكري هو ان اللالىء توسع صاحبه فاورد فيه الشروح والتصويبات ، والاخطاء المنبه عليها . وكتاب التنبيه عبارة عن جرد مرتب بخصوص تلك النقود والتنبيهات ، فكأنه اختصار من الاول .

ولا يحسب الناظر فيما تقدم ، أن البكري بتنبيهاته ونقوده كان يريد الغض من قيمة الشيخ القالى ، أو الطعن فى معارفه ومداركه ، والتهوين من منزلته فى نفوس الاندلسيين ، بل هو الذي يقول فى مقدمة (التنبيه) :

((.. وابو على ـ رحمه الله ـ من الحفظ وسعة العلم والنبل ومن الثقة فى الضبط والنقل ، بالمحل الذي لا يجهل . وبحيث يقصر عنه من الثناء الاحفل ، ولكن البشر غير معصومين من الزلل ، ولا مبرئين من الوهم والخطل ، والعالم من عدت هفواته ، واحصيت سقطاته :

ـ كفى المرء نبلا أن تعد معايبه ـ))

وقد قامت على كتاب الامالى ، شروح ومختصرات ودراسات اندلسية اخرى ، تعتبر اليوم فى المفقودات ونذكر هنا ما استطعنا معرفته منها :

---

53) التنبيه ص : 23 . وانظر ايضا ص : 58 .
54) انظر التنبيه ص : 77 ـ 104 ـ 119
55) نفسه ، ص : 93 على سبيل المثال .

3 ـ نظـم القرطـين وضـم اشعار السقطـين :

كتاب لابى العباس احمد بن عبد الجليل التدميري المتوفى سنة 555هـ بفاس ، جمع فيه اشعار الكامل للمبرد والنوادر لابى على البغدادي ، والفه ببجاية لمحمد بن على بن حمدون وزير بنى الناصر الصهاجيين كما قال ابن الابار (56) . وقال ابن عبد الملك المراكشى : ((نظم القرطين وضم اشعار السقطين : كامل الثمالـى ونوادر القالى ، وقفت عليه بخطه)) (57) .

4 ـ شرح لابى اسحاق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم .

ويعرف بالاعلم البطليوسى ، سكن اشبيلية وتوفى سنة 637 هـ قال ابن الابار : ((.. وله شروح فى الايضاح ، والجمل ، والكامل والامالى ، وغيرها)) (58)

5 ـ مختصـر لابى العباس احمد بن عبد المنعم الشريشى :

شارح المقامات والمتوفى سنة 619 هـ . ذكره غير واحد من اصحاب التراجم (59) .

---

56) التكملة : 65/1 (طبعة عزت العطار) ، وانظر ترجمة التدميري ايضا فى الوعاة ، ص : 138 ـ والاعلام للمراكشى : 223/1 .

57) الذيل والتكملة : 236/1 ـ والمقصود بالثمالى : المبرد نسبة الى ثمالـة ، قبيلة من الازد .

58) التكملة : 170/1 (طبعة عزت العطار) ـ وترجم له السيوطى فى الوعاة : ص : 185 ـ وقال انه : ابراهيم بن القاسم وجعل وفاته سنة 42 او 646 هـ .

59) الوعاة : ص 143 ـ النفح : 316/2 ـ التكملة : 111/1 ـ معجم الرعينى : ص : 90 ـ الذيل والتكملة : 270/1 .

6 ـ شرح اشار اليه ابن القاضى فى درة الحجال (60)

ضمن مصنفات أبى عبد الله محمد بن يوسف النفزي الغرناطـى الشهير بابى حيان النحوي المتوفى سنة 745 هـ ، وسماه : (الامالى فى شرح القالى) ـ كذا ـ فان صح له هذا الكتاب فقد يكون شرحا علـى الامالـى .

7 ـ كتاب المؤاخى النادر فى الجمع بين اللآلىء والنوادر

لابى عبد الله الرعينى ، ذكره العينى فى المقاصد النحوية ونقل منه ترجمة للعجاج وابنه رؤية (61) .

ولا شك أن بلاد الاندلس عبر عصورها الطويلة عرفت حركة تاليف اوسع مما ذكر حول الامالى . تعوزنا الان اسماؤها . على ان بعضها كان يتمثل فى تعليقات وحواش وطرر مما يضعه العلماء عادة على الكتب التى يهتمون بقراءتها ، وقد وقع الاستاذ الميمنى على نسخة خطية عتيقة مـن الكتاب محفوظة بدار الكتب المصرية . قال : ((وهى أصل علماء الاندلس ولهم طرر عليها كالوقشى وغيره، كتبت سنة 486 هـ لثلاث خلون منشهرربيع الآخـر)) (62) .

---

60) درة الحجال ، القسم الثانى ص : 213 ـ وانظر ترجمة أبى حيان المذكور فى بغية الوعاة : ص : 121 .

61) المقاصد النحوية ، 26/1 (مطبوع على هامش خزانـة الادب ـ طبعة بولاق) ـ واذا كنت لا اعرف من هو ابو عبد الله الرعينى هذا، فانى أرجح أن يكون هو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن الرعينى الوشقى المتوفى بمراكش فى حدود سنة 620 هـ . وهـو صاحب اختصارات كثيرة كاختصار المحكم لابن سيدة والمطمـح والقلائد لابن خاقان وغيرها . (انظر ترجمته فى الذيل : 96/6 والوعاة ص 5) .

62) السمط : 346/1 هامش رقم : 3

ج ـ النقــول والاقتباســـات

والناحية الثالثة التى يتجلى فيها اهتمامهم بالامالى وتبرز بها مكانـــة الكتاب فى الدراسات الادبية واللغوية ، هى النقول والاقتباسات منــه فى مؤلفاتهم ، وهى من الكثرة بحيث تضطرنا الى الاختصار فى التمثيل :

فقــد نقــل عنــــه :

- ابو عبيد البكري فى كتابه : (فصل المقال فى شرح كتاب الامثــال) وطرره على الكامل للمبرد (63)
- وابو الوليد هشام بن احمد بن هشام الوقشى (ت. 489 هـ) فى طرره على كامل المبرد خلال مواضع كثيرة (64) .
- وابو محمد عبد الله بن السيد البطليوسى (ت. 521 هـ) فى طرره على الكامل ايضا خلال مواضع متعددة . وفى كتاب (الاقتضاب فى شــرح ادب الكتاب) حيث جعله من مصادره الاساسية فى الشرح وتخريج الابيــــات .
- وابو الحسن على بن بسام (ت. 542 هـ) فى مواضع متعددة مــن كتاب الذخيرة .
- وابو القاسم السهيلى (ت. 581 هـ) فى اماليه (65)
- وابو جعفر احمد بن داود الجذامى (ت 593 هـ) فى شرح مقامــات الحريري (66) .

---

63) الكتيب فى 11 صفحة ، مضموم الى طرر الوقشى والبطليوسى على الكامل ، (مصور على الشريط) . قسم الوثائق بالرباط .

64) نفس المصدر ، وانظر ترجمة الوقشى فى الوعاة : 409

65) انظر ص : 117 وقابله بالنص الموجود بالامالى للقالى : 69/2

66) مخطوط قسم الوثائق بالرباط . وانظر ترجمته فى التكملــة 92/1 (طبعة عزت العطار) ــ والذيل والتكملة : 115/1)

— وابو العباس الشريشى (ت. 619 هـ) فى شرح مقامات الحريري ايضا ، فى مواضع عديدة . على ان الشريشى كانت له عناية خاصة بالامالى فقد اختصره كما سبق القول وقراه على ابن زرقون مع الكامل للمبرد ، وقد نص على ذلك هو نفسه فى هذا الشرح فقال : ((وحدثنى الفقيه ابو عبد الله ابن زرقون فى بستانه بطريانة ايام قراءتى عليه النوادر والكامل . وكان رحمه الله ذاكرا بالطريقة الادبية مع تميزه بالطريقة الفقهية) (67) .

— وابو الحسن النباهى الجذامى (ت بعد سنة 792 هـ) نقل عنه فى شرح مقامته المعروفة (بالاكليل فى تفضيل النخلة) (68) ، اشياء كثيرة ، وقد كان للنبهانى فوق ذلك اعجاب خاص بالقالى وكتابه ، فبعد ان اورد ترجمته (من ص : 99 الى ص : 101) نقلا عن الزبيدي فى طبقاته علق على ذلك بقوله : ((قلت : وفى هذا القدر من التعريف بالحافظ ابى على كفاية ، وعندنا من الثناء على مصنفاته أضعاف ما قاله الزبيدي على تقدمه وامامته ، وبخصوص على الكتاب المسمى بالنوادر ، وقد اثبت فى هذا المجموع من نوادره جملا ما بين منظوم ومنثور)) .

— وابو الطيب صالح بن شريف الرندي (ت : 684 هـ) فى كتابه المسمى (بالوافى فى نظم القوافى) (69) .

— وابو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن الابار فى (اعتاب الكتاب) (70) .

وهذا قل من كثر ، وغرفة من بحر ، مما يمكن احصاؤه وتتبعه من هذه النقول والاقتباسات ، فقد ظل الكتاب طوال الوجود الاسلامى

---

67) شرح الشريشى : 123/3
68) مخطوط قسم الوثائق بالرباط .
69) مطبوع على ورق الاستنساخ بتحقيق الاستاذ محمد الخمار الكنونى قدمه لنيل دبلوم الدراسات العليا بجامعة محمد الخامس سنة 1974م.
70) تحقيق . د. صالح الاشتر . ط. المجمع العلمى بدمشق سنة 1961

بالاندلس مصدرا لا يستغنى عنه الادباء واللغويون والمتعلمون والدارسون على ان كثيرا من المؤلفين كانوا يغفلون الاشارة الى نقولهم من الكتاب وان صح اخذهم منه ، كما فعل الزبيدي فى (لحن العوام) (71) وابن سيـــــدة المرسى فى (المخصص) .

د ــ جانـــب آخـــر من أثـــر الكتـــاب :
المحاكـــاة والمعارضـــة

اذا كان (الامالى) قد أسهم بشكل فعال فى خلق حركة علمية جديدة تتمثل فى تلك الدراسات والشروح والنقود التى قامت حوله ، على قلة مـــا استطعت معرفته منها ، فان هناك طرقا اخرى أسهم بها الكتاب بصفة غير مباشرة فى توفير جو علمى من نوع آخر ، وذلك حين اضطر بعض المعجبين به الى تقليده ومحاكاته ، موضوعا وطريقة واضطر بعضهم الاخر ، مـــن منافسي سمعته ومكانته العلمية ، الى نقضه أو معارضته .

واذا كنا لا نجد على هذا الزعم أمثلة كثيرة ولا أدلة متوافرة ، فان لنا منها على الاقل مثلا أو مثلين ، أولهما : كتاب (الفصوص) الذي دفع صاعد البغدادي الى تاليفه بوازع المنافسة وحب الظهور ، والتعفية علـــى آثار القالى ، فلم يلتفت اليه الناس التفاتهم للامالى ، ولم يحملوه عنه حمل المكترث المهتم ، بل سخروا منه واتهموا صاحبه بالكذب ، وأوهوا حجته فى الرواية ، ومنهم ابن العريف (ت 390 هـ) أحد رجال الطبقة الثانية مـــن تلاميذ القالى وصاحب ذلك البيت الشهير الذي قاله حين علم بغرق كتاب صاعد على سبيل السخرية والاستهزاء :

قد غاص فى البحر كتاب الفصـــــــــوص
وهكـــــذا كـــل ثقيـــــل يغـــــوص (72)

---

71) انظر على سبيل المثال الصفحات : 23 ــ 34 ــ 80 ــ 84 ــ88 ــ 89 ــ 93 ــ 127 ــ 143 ــ 145 ــ 156 ــ 162 ــ179ــ 191 ــ 207 ــ 223 ــ 259 ــ من لحن العوام ط. رمضان عبد التواب .

72) معجم الادباء : 284/11

ولقد حاول صاعد (73) سواء فى (الفصوص) أو غيره ، نقض بعض ما جاء به القالى فى اماليه وبارعه ، من ذلك ما يرويه بكتابه المذكور ، من أنه استطاع انياتى بثمانية عشر اسما من اسماء القيم على المال (74) حين لم يستطيع القالي ان يذكر منها غير سبعة أو ثمانية،وان كانت هذه الدعوىغير دقيقة ، اذ ان ما ذكره القالى فى أماليه (322/2) من هذه الاسماء هو احد عشر اسماوليس ثمانية ولا سبعة .

ومن ذلك ما يحكيه عن صاعد ، أبو عبيد البكري فى (اللآلىء) (75) من خلال هذا النص . قال البكـــري :

((تجللت عـــارا لا يـــزال يشبـــــــه
شبـــاب الرجــــال نقرهـــم والقصائـــــد

هكذا الرواية عن ابى على التى لا أختلاف فيها ، ويروى : (نثرهـــم والقصائد) فى بعض طرر الكتاب ، وأخبرنى من اثق به ، ان صاعد بن الحسن كان يرد هذه الرواية فى البيت ويقول : ان الصحيح :

تجللـــت عـــارا لا يـــــزال يشبـــــه
سباب الرجـــال نثـــره والقصائـــــد (76)

سباب : بسين مهملة ، يريد نثر السباب ونظمه ، قال : ولا وجـــــه لتخصيص شباب الرجال هنا لان مشايخهم أعلم بالمناقب والمثالب ، واروى للممادح والمذام . قال : وأما ذكر النظم والنثر ، ففد حصر جميع الكلام

---

73) توفى صاعد سنة 410 هـ بصقلية ، وترجمته فى أنباه الرواة ، 35/2 ـــ والذخيرة : القسم الرابع ـــ المجلد 1 ، ص 2 ـــ والوعاة ص : 267 وغيرهـــا .

74) الفصوص : 78/1 مخطوط قسم الوثائق بالرباط

75) السمط : 429/1 ـــ 430

76) وفى الامالى : 170/3 ـــ (سباب الرجال نثرهم والقصائد)

وطابق بين الالفاظ ، وما بال ذكر النقر مع القصائد ؟ وقال المحتج لابي على : النقر هنا الغناء وهو للشباب دون الكهول ، وقيل ان معنى النقر هنا: السب والعيب ومنه قول امراة من العرب لزوجها : ((مر بي على بني‌نظرى ، ولا تمر بى على‌بنات‌نقرى)) تعنى العيابات السبابات . تقول : مر بى على الرجال الذين يقنعون بالنظر دون السب ، وقيل معنى بنات نقرى هنا : من التنقير وهو البحث والفتش عن الاخبار ، ورواية صاعد بينة جلية وعن ذلك التكلف غنية)) .

ولا يهمنا ان نفاضل بين الروايتين هنا ، بقدر ما يهمنا الجو النقدي الذي حركه صاعد ، فوجد على آثره مناصرون للقالى ، ووجد مدافعون عن راي صاعد ، كالبكري الذي رمى تفسير اصحاب القالى بالتكلف والغموض وتابع راي صاحبه .

واذا كان صاعد قد حاول النيل بشكل او بآخر من الامالى الذي حمله واهتم به ما لا يحصى من رجال الاندلس ، فانه قد وجد معارضة قوية من تلاميذ القالى خاصة ، كالزبيدي وابن العريف والعاصمي ، الذين نهضوا لمناظرته ووقفوا فى وجهه ؟ ووجد من انصار القالى ومدرسته ، من صنف فى الرد على صاعد كتابا خاصا ، فقد اخبرنا ابن بشكوال ان احد تلاميذ القالى ،وهو المعروف بابن القزاز : سعيد بن عثمان بن سعيد (ت. 395 هـ) (77) وضع كتابا ((فى الرد على صاعد بن الحسن اللغوي البغدادي ضيف محمد بن أبى عامر ، فى مناكر كتابه فى النوادر والغريب المسمى بالفصوص ، واكثر التحامل عليه فيه)) (78) ، اما الذين راوا فى الكتاب مثلا صالحا رفيعا ، فقد مضوا لا يابهون لمثل هذه الاصوات الخافتة ، فرووا الامالى وقراوه وانتفعوا به على كل وجه .

واذا كنا لا نجد نماذج كثيرة من الكتب التى حذت حذوه ، وحاكته فى موضوعه ونسجت على نوله ، بالاضافة الى (الفصوص) فان لنا مثالا ثانيا

---

77) كذا قال القفطي فى الانباه ، وذكر السيوطي فى البغية أنه توفى سنة 400 هـ .

78) الصلة : 204/1 (طبعة عزت العطار) وانباه الرواة : 44/2 .

على الاقل فيما وصل اليه اجتهادي وهو كتاب : (سراج الادب) لابى عبد الله بن أبى الخصال الشقوري رئيس كتاب الاندلس ، قال فيه ابن سعيد : صنفه على منزع كتاب النوادر لابى على ، وزهر الاداب للحصري)) (79)؟

وهكذا اخيرا نجد انفسنا أمام كتاب لعب دورا أساسيا في تنشيط الحركة اللغوية والادبية بالاندلس ، وترك أثرا متعدد الجوانب لم تمحصورته العصور ولم تبدد سمعته كثرة ما عرف بعده من مصنفات واوضاع ، على اننا لا نجد للكتاب فيما تلاه من الزمن عند الاندلسيين ما يضاهيه او يبلغ شــأوه فى موضعــه .

الرباط　　　　　　عبد العلى الودغيري

---

79) رسالة فضل الاندلس لابن سعيد . ضمن مجموعة رسائل فى فضــل الاندلس ، نشرها د. صلاح الدين المنجد . سنة 1968 م ؟ وتوفى محمد ابن ابى الخصال سنة 540 هـ . ومن شيوخه ابو محمد بن عتاب ــ انظر معجم اصحاب الصدفى ص : 144 .

اهــم المصـــــادر والمراجـــع

1) **الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام .**
عباس بن ابراهيم المراكشي .
ط 1 ــ سنة 1936 ــ فاس

2) **الامالــي**
ابو على القالــي
ط. بيروت مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية نشر محمد عبد الجواد الاصمعى

3) **انباه الرواة على انباه النحـــاة .**
القفطى (على بن يوسف) ــ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم
ط 1 سنة 1952 القاهرة

4) **برنامج شيوخ الرعينـــــــــى**
ابو الحسن على بن محمد الرعينى
تحقيق ابراهيم شبوح ــ دمشق : 1962

5) **بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة**
جلال الدين السيوطى ــ بيروت

6) **تاريخ بغداد او مدينة السلام**
الخطيب البغدادي (ابو بكر أحمد بن على)
ط 1 ــ القاهرة وبغداد 1931

7) **التكملة لكتاب الصلة**
ابن الابار (محمد بن عبد الله القضاعى)
1 ــ طبعة كوديرا زيدان ــ مجريط 1886 م
2 ــ طبعة بالنسيا ــ مدريد 1915
3 ــ طبعة مصر نشر عزت العطار الحسينى 1956

8) **التنبيه على أوهام ابى على (القالى) فى اماليــه .**
ـ ابو عبيد البكري الاونبى
مطبوع مع ذيل الامالى ـ دار الكتب 1926

9) **جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس ..**
ابو عبد الله الحميـــــدي
تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ـ القاهرة 1953 .

10) **درة الحجال فى غرة سماء الرجال**
أحمد بن محمد بن القاضى
نشر : ي . س . علوش القسم الاول الرباط : 1934

11) **الدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة**
ابن حجر العسقلانى ـ تحقيق محمد سيد جاد الحـــق ـ
القاهرة : 1966

12) **الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة .**
ابو الحسن على بن بسام
الاقسام المطبوعة ـ القاهرة .

13) **الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة**
ابو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشى
الاجزاء المطبوعة بتحقيق د. محمد بن شريفة ، والدكتــور
احسان عبــاس

14) **رسائل فى فضائل الاندلس واهلها .**
يتضمن رسائل ابن حزم ـ ابن سعيد ـ الشقندي . نشرها
وقدم لها . د. صلاح الدين المنجد . ط. 1 بيروت 1968

15) **سمط اللآلىء .**
عبد العزيز الميمنـــى مصر : 1936

16) **شرح مقامة الاكليــل .**
أبو الحسن الجذامى النباهى
مخطوط قسم الوثائق بالرباط

17) **شرح مقامات الحريري**
أبو العباس الشريشــى
نشر محمد عبد المنعم خفاجى ــ ط 1 ــ مصر 1952

18) **الصلـــة**
أبو القاسم ابن بشكوال
أ ــ نشر عزت العطار الحسينى مصر 1955
ب ــ نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966

19) **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المئة السابعة ببجاية .**
أبو العباس أحمد الغبرينى
تحقيق رابح بونار ــ الجزائر 1970

20) **الفصــوص .**
أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي
مخطوط قسم الوثائق بالرباط

21) **فهرسة ابن خير الاشبيلــى**
ط 2 ، 1963 (بيروت ــ بغداد ــ القاهرة) وهى مأخوذة عن الاصل الذي نشره قدارة زيدين وخليان رياره، بسرقسطة سنة 1893

22) **فهرسة ابى عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبى**
مخطوط قسم الوثائق بالرباط

23) **فهرسة عبد الحق ابن عطيــة**
مخطوط قسم الوثائق بالرباط

24) **فهرسة القاضي عياض**
مخطوط قسم الوثائق بالرباط

25) **فهرسة الفهارس والاثبات**
عبد الحى الكتانى – فاس 1347 هـ

26) **قطف الثمر فى رفع أسانيد المصنفات فى الفنون والاثر**
قطف الثمر فى رفع أسانيد المصنفات فى الفنون والاثر
الشيخ صالح بن محمد الفلانى العمري
مخطوط قسم الوثائق بالرباط

27) **الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالاندلس من شعراء المئة الثامنة .**
لسان الدين بن الخطيب
تحقيق د. احسان عباس بيروت 1963

28) **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الاندلس)**
أبو الحسن النباهى – بيروت

29) **المطرب من أشعار اهل المغرب**
ابو الخطاب عمر بن دحية
تحقيق ابراهيم الابياري وزميليه
بيروت .

30) **معجم الادباء .**
ياقوت الحموي – مطبوعات دار المأمون – مصر 1938
(نشر مرجليوث)

31) **المعجم فى اصحاب القاضي ابى على الصدفى**
محمد بن عبد الله القضاعى (ابن الابار)
طبعة مصورة عن طبعة مجريط سنة 1885
نشر مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجى بمصر

32) **المغرب فى حلــى المغــرب**
ابن سـعيد المـغربـــى
تحقيق . د؟ شـوقى ضيف . ط 2 . دار المـعارف
مصر : 1964

33) **المقاصــد النحويــة**
محمود العينـــى
مطبوع بهامش خزانة الادب للبغدادي
ط. 1. بـــولاق

34) **نفــح الطيــب .**
أحمــد المقــري
1 ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد
ط. 1 . مصر 1949
2 ــ تحقيق د. احسان عباس ــ دار صـادر ــ 1968

35) **نيل الابتهــاج بتطريز الديبــاج**
ابو العباس أحمد بن بابا التنبكتى
مطبوع بهامش الديباج المذهب لابن فرحون . ط. 1 . مصر
1351 هـ .

ع. ع. و

العَودة ، والغَيْم

حسن الطريبق

ردك الشوق بعد طول اغتــراب   هــل يعــود الحب للأحبــاب ؟

لمحات قد بثــهــا فى مدى الغــــيـم عيونــا مبتلة الأهــداب

فاغترف من سريع نبضك مــا لا   ينتهى من هوى ومن اعجــاب

ياحيــاة ، كم أشتهيك ومــا فـــــيك من الفيىء غير بعض سحاب

أتمــلاك ، ثم أعــبــر فى دربـــــك ما خلتــه نسيج الرحــاب

أشتهى أفقك المضمخ بالفــيـــىء وألــقى على غــيــومــه رحلــى

وأمنــى بــه هــواى وأســتـــــف من المزن مــا يخفف محلى

أنـــا فى روضك المطـــرز أنقـــى من طيـــور ومن قوافـل نحــل
يكف الطرف فى حقولك ، والطـــــــــرف شبـيـه بمهمه جــد قحل
يا رشيشا به تضج الزغاريـــــد وتحيى الموات من كـل ضحـــل
يختلى فيك من شعورى ارتعاش ويعـــود العصـــى منى مباحــا
أين أرسى ، وقد تضاءل منـــــى العزم من بعدما استوى واستراحا؟
يارحيل العصى منى ، أيغريـــــك سكـــون يميـــت فيـك الريــاحا ؟
لم تعانق عويلها ، ولقـــد عانقـــت من بعدها ، هنـــاك ، الملاحــــــا
أنت من طينة تخالف مـــا أنت ، فكيف ازدوجت ، دمعـــا وراحــا ؟

العــرائــش **حسن الطريبق**

مدخل لدراسة المتنبي

الأعلام الجغرافية في شعره

مصطفى القصري

— 1 —

« أوانا فى بيوت البــدو رحلى ... وآونة علــى قتــد البعيــر »
« أعرض للرياح الصم نحري ... وأنصب حــر وجهى للهجير »
«وأسرى فى ظلام الليل وحدي ... كأنى منــه فى قمــر منيــر »

أبو الطيب المتنبى

هذا الرجل الذي «شغل الناس وملأ الدنيا» ، كما وصفه ابن رشيق ، قضى عمره متنقلا على راحلته بين العراق والشام ومصر وشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس ، منتجعا بشعره ، أو لائذا

بالفرار من عدوه ، أو قلقا من الراحة والخمول ، لا يستقر له جنب ولا يحاول مقاما فى أرض ولا يزمع زوالا .

أ ــ بين الجزيرة والشـــام :

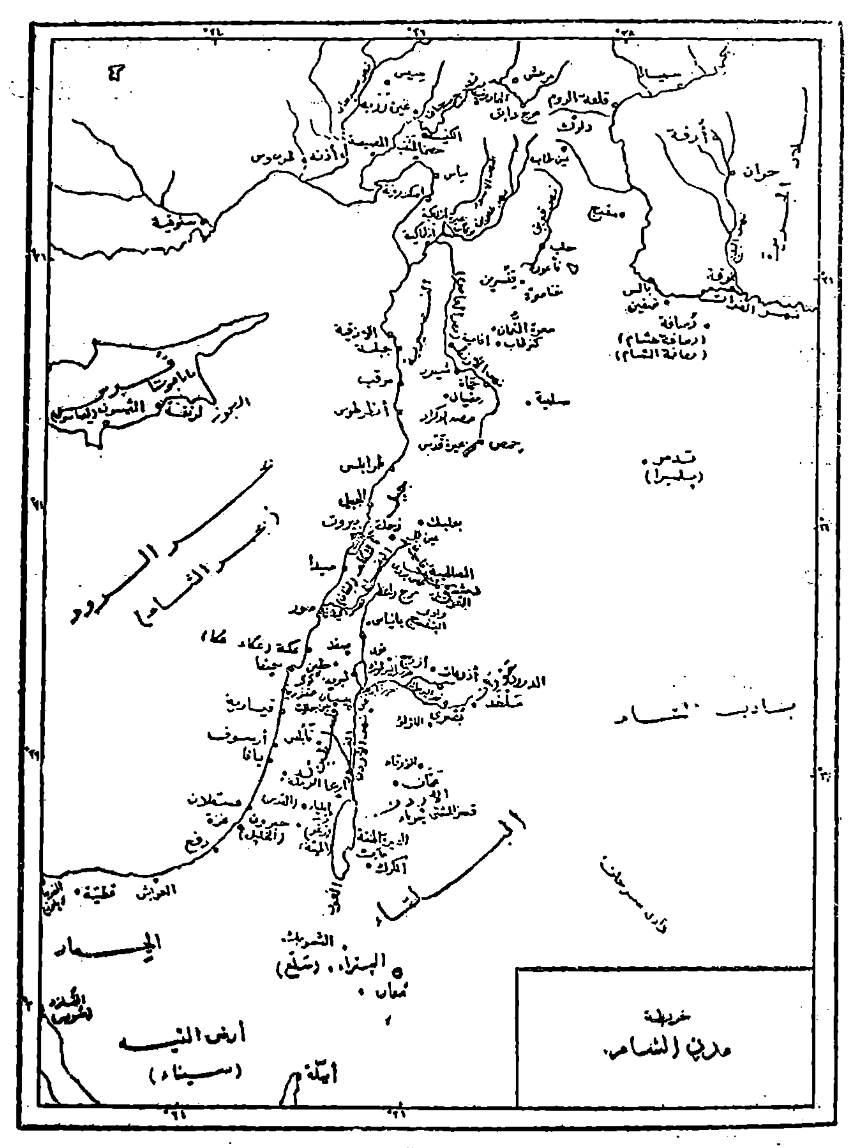
ولد أبو الطيب ونشأ بالكوفة وتنقل فى حداثته فى البادية وصحراء السماوة ، ثم انتقل الى بغداد فأرض الجزيرة وشمال الشام ولم يبلغ بعد السابعة عشرة من عمره . ولقد لاحظ الاستاذ طه حسين ــ الذي اعتمدنا عليه أكثـــر من الاعتمـــاد علـــــى الاستـــاذ ريجيس بلاشير من حيث الفراسة والدقة والتحري والاطـــلاع الواسع والمعاشرة الطويلة للمتنبى وللادب العربى على العموم أنك اذا قرأت القسم الاول من ديوان الشاعر بعد خروجه مـــن العراق نحو الشام رأيته ينقسم الى ثلاثة أقسام جغرافية :

1 ــ مـــا قيل فى الجزيرة وشمال الشـــام .

2 ــ مـــا قيل فـــى اللادقيـــة .

3 ــ مـــا قيل فـــى طرابلـــس .

ويستنتج عميد الادب العربى من هذا السياق فى شعر المتنبى أن الشاعر جاء سوريا من شمالها حيث أقام دهرا ، ثم مضـــى فأقام حينا قصيرا من الزمن فى طرابلس ، ثم انحرف الى اللاذقية فأطال فيها المقام شيئا لينصرف عنها فيما بعد الى طبرية التـــى



خريطة
مدن الشام
بادية الشام
أرض التيه
(سيناء)
قلعة الروم
منبج
حلب
حران
بالس
صفين
رصافة
(رصافة هشام)
(رصافة الشام)
قنسرين
معرة النعمان
اللاذقية
جبلة
مرقب
أنطرطوس
حماة
شيزر
سلمية
حمص
تدمر
(بلميرا)
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
صور
قيسارية
أرسوف
يافا
عسقلان
غزة
رفح
الزرقاء
عمان
الكرك
الشوبك
البتراء (سلع)
معان
أيلة

خريطة رقم (1)

أقام فيها مليا ، ثم عاد بعد ذلك الى اللادقية وأخيرا انصرف الى البادية غير بعيد عن حمص حيث ألقى فى السجن سنة 323 بتهمة الدعوة الى الثورة القرمطيـــة .

ويمكن تتبع تنقلات المتنبى بعد خروجه من السجن حيث نراه يعود الى شمال الشام متكسبا بشعره بين طبقات الاعراب غريبا فيهم « كصالح فى ثمــود » ثم ينتهى الـــى حلب التـــى كانت اذ ذاك موضع نزاع بين العباسيين فى بغداد والاخشيديين فى مصر والشام ، ويرحل بعد ذلك عن حلب الى انطاكية مستمرا فى التكسب بالمدح فيقول للمغيث العجلى الذي كان مقيما بهـــا اذ ذاك :

لمـــا أقمـــت بأنطاكيـــة اختلفـــت
الـــى بالخبـــر الركبـــــان فى حلبــــا

فسرت نحـــوك لا ألـــوي علـــى أحـــد
أحـــث راحلتـــى الفقـــر والادبـــــــا

أذاقنـــى زمنى بلـــوى شرقت بهـــا
لـــو ذاقها لبكـــى مـــا عـــاش وانتحبـــا

بقى شاعرنا مضطربا فى شمال الشام الى أن بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، متسائلا الى كم سيبقى شاغلا نفسه على « طلب المعالى » ببيع شعره فى « سوق الكســـاد » .

وحيث اشتد الخلاف بين الاخشيد والخليفة العباسي فى بغداد ، ترك المتنبى شمال الشام الى طبرية ، وهو يشير الى هذه الرحلة الانتجاعية فى مدحه لابى على الاوراجى ذاكرا انتقاله من الشمال الى الجنوب بعد أن جلت عنه الجنود الاخشيدية واصفا جبال لبنان ومرتفعاتها وعقابها وثلوجها :

بينى وبين أبى على مثله — شم الجبال ومثلهن رجاء

وعقاب لبنان وكيف بقطعها — وهو الشتاء وصيفهن شتاء

لبس الثلوج بها على مسالكى — فكأنها ببياضها سوداء

وكذا الكريم اذا أقام ببلدة — سال النضار بها وقام الماء

جمد القطار ولو رأته كما ترى — بهتت فلم تتبجس الانواء

وقد مدح المتنبى فى تلك الرحلة بدر بن عمار ثم فر منه لما خشى بطشه ، فنزل بجبل جرش على صديق له يعرف بأبى الحسن الخراسانى :

أغرارا ألذ بعد شرار — ومراما أبغى وظلمى يرام

دون أن يشرق الحجاز ونجد — والعراقان بالقنا والشام

وفى تلك المرحلة من عمره كان قد عزم على زيارة جدته فى الكوفة لكن أتاه خبر وفاتها فعدل عن الفكرة واستمر يتنقل من شمال

الشام الى الجنوب حتى وافى دمشق ثم الرملة حيث مدح عاملها الاخشيدي .

وقد أصبحت اذ ذاك معركة الاستيلاء على بلاد الشام قائمة بين الحمدانيين والاخشيديين الى أن انتهت بأن أقر سيف الدولة ملكا عربيا خالصا فى شمال الشام عاصمته حلب وشاعره الرسمى أبو الطيب المتنبى .

مضى المتنبى ، هذا العربى الخالص ، من الرملة حتى انتهى الى طرابلس فى طريقه الى شمال الشام للالتحاق بمملكة سيف الدولة ، هذا الامير العربى الخالص ، الذي حمى مدة من الزمن أطراف الخلافة الاسلامية من العدوان البيزنطى المسيحى. وفى اثناء الطريق (فى طرابلس) لم يقبل المتنبى مدح ابن كيغلغ والى حمص الذي حماه عن الطريق ، بل هجاه فى قصيدة ميمية مقدعة تراجع فى الديوان ، ثم انتقل من حمص الى دمشق حيث أقام مدة من الزمن ، ومنها انتقل سنة 336 بعد مقتل ابن كيغلغ الى أنطاكية ، فنزل ببعلبك حيث أكرمه حاكمها ابن عسكر، ثم مضى من بعلبك حتى جاوز حدود الاخشيديين ودخل أرض الحمدانيين وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره قد ترعرع فنه واكتمل .

وفى خصوص هذه الفترة التالية من مسيرة الشاعر يرجح طه حسين بأن أبا الطيب وصل الى أبى العشائر — وهو ابن عم سيف الدولة — فى أواخر سنة 336 فأقام معه فى أنطاكية قسما

من سنة 337 حتى قدم سيف الدولة أنطاكية فى جمادى الاولى من هذه السنة فانتقل معه المتنبى الى حلب . وتشير الخريطة رقم (1) الى مواقع الناحية التى تنقل الشاعر عبرها فى هــذه المرحلة التى ذكرت الى الآن من حياتــه .

ان تنقلات المتنبى بين بلاد الجزيرة وبلاد الشام لا تفيد المطلع على حياة هذا الشاعر العبقري الا فائدة أدبية محضة ، أو نقول خاصة بتاريخ الادب فقط ، وشروح الديوان تنبؤنا على العموم بأسفار المتنبى وتنقلاته اذا لم تكن قصائده نفسها هى التى تنبؤنا بذلك ، فنحن مثلا نعلم أنه مر بنخلة وهى قرية لبنى كلب قرب بعلبك من خلال بيت من قصيدة قالها فى صباه :

مــــا مقامــى بــأرض نخلــة الا
كمقــام المسيــــح بــــين اليهــــود

كما نعلم من خلال شعره ، وعلى سبيل المثال أيضا ، أنه كان عازما على التنقل الى الرملة على طريق « كفر عاقب » وهو تلقاء طبرية ، ولكن يظهر رغم ما ذكر من أنه لم يعــر الامــــــر أي اهتمام ، أنه عدل عن ذلك لما علم بأن كمينا لاغتياله نصب له فى هذا المكان من طرف بعض أدعياء العلويين الذين أرادوا أن يصدوه عن قصده وهو بلوغ الاخشيديين :

أتــانى وعيــد الادعيــاء وأنهــــم
أعدوا لــى السودان فى كفــر عاقــب

ولـو صدقـوا فى جدهـم لحذرتهـم
فهل فى وحدي قولهـم عبـر كاذب ؟

كما نعلم كذلك أنه مر بأماكن مسرعا عند ذكر رحيله من حلـب :

ولـله سيـري مـا أقـل تئيـة
عشيـة شرقـى الحـذالـى وغـرب

هذا ومن أمثلة الاماكن التى ذكرها المتنبى وليس لها سوى فائدة أدبية محضة الاماكن التى نشأ بها وقضى بها أيام صغره حيث كانت مراتع صباه ومرابع شبابه لما بعثـت فى نفسـه من ذكريات صبوته وفتوته وجنونه ، فمنها قوله :

تذكـرت مـا بـين العذيـب وبـارق
مجـر عوالينـا ومجـرى السوابـق

وصحبـة قـوم يذبحـون قنيصهـم
بفضلـة مـا قـد كسـروا فى المفارق

وليلا توسدنا « الثويـة » تحتـه
كـأن ثراهـا عنبـر فى المفـارق

ومن الامثلة هذا البيت الغنائى الجميل :

در در الصبا أأيـام تجرير ذيولى بدار أثلـة عـودي

ومنها فى نفس النفس الغنائى الملىء بالحنين الى الصبا :

أمنســـى السكـــون وحضرمـــوتـــا
ووالدتـــى وكنـــدة والسبيعـــا

وكل هذه الاماكن توجد بظهر الكوفة وحولها ــ ومنها مــا سميت بأسماء القبائل التى كانت تسكنها ، ولا شك أن حضرموت هذه التى ذكرها المتنبى حين ذكر والدته (وربما تكون جدته) انما هو مكان قرب الكوفة سمى باسم الناحية التى تسمى بهذا الاسم جنوب الجزيرة العربية ، وهناك كثير غيرها من أسماء الاماكن التى ذكرها المتنبى فى شعره كميا فارقين التى توفيت بها والدة سيف الدولة ، ونهر الاردن وحمص وشاش ودمشق وطرسوس ورودبار ونهر الخابور وكرخايا وكلواذا والرقتان وغيرها كثير مما لا فائدة ــ تاريخيا ــ من ذكره هنـــا .

على أن شعر المتنبى فى هذه الفترة التى نتعرض لها الآن لم يخل من الاشارة ولو لماما الى بعض الاحداث والوقـــائـــع التاريخية وتحديد محيطها كالتى وردت فى قصيدة مدح شاعرنا بها الحسن بن عبيد الله بن طغج فى الرملة والتى أشار فيها الى ما كان من محاولة سيف الدولة لاخلاء الاخشيديين عن جنوب الشام

أرى دون مـــا بـــين الفـــرات وبرقـــة
ضرابـــا يمشى الخيل فـــوق الجماجم

وطعـــن غطاريـــف كـــأن أكفهـــم
عرفـــن الردينيات قبـــل المعاصـــم (1)

---

1) يعنى طعن الاخشيديين لجيوش سيف الدولة

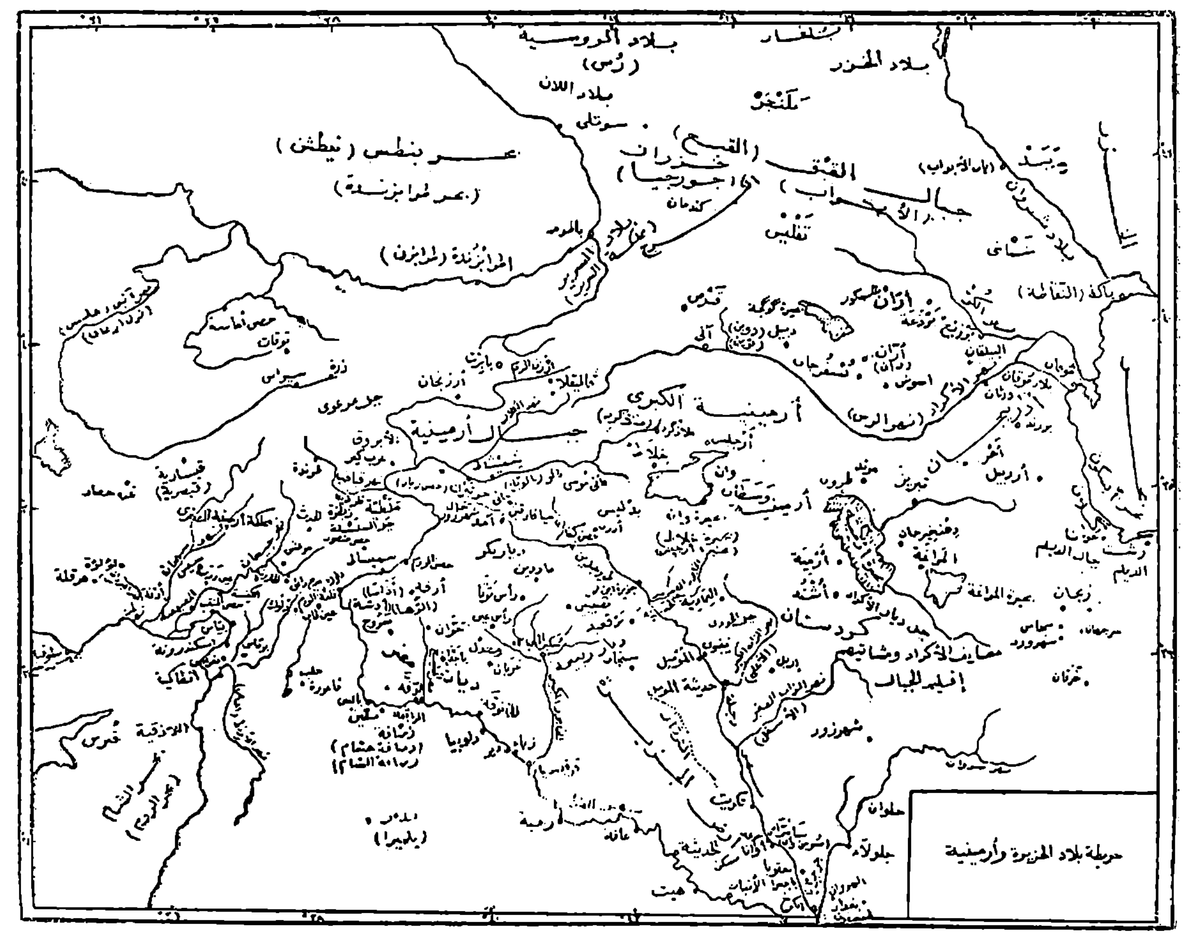
حمتـــه على الأعـــداء مـــن كل جانـــب
سيوف بنـــى طغج بـــن جف القماعـــم

ب ـ مـــع سيف الدولـــة فى مملكتـــه :

صحب المتنبى سيف الدولة من سنة 337 الى سنة 345 هـ أي لمدة ثمانية أعوام تنقل فيها الشاعر بين أطراف هذه المملكة القائمة على السيف والتى أصبحت تكون من جانب ذرعا يحمى دار الاسلام من اعتداءات الروم ، ومن جهة أخرى منطلقا لغزو بلاد الروم وتوسيع دائرة المملكة الاسلامية .

ويمكن من خلال شعر المتبنى وشروحه وكذلك من خلال ما سجله جغرافيو ومؤرخو هذه الفترة خصوصا ابن حوقل تتبع تنقلات المتنبى عبر الثغور والحصون والمدن التى كانت قائمة اذ ذاك أمام وجه الروم ، والتى كان سيف الدولة ينطلق منها أو ينطلق اليها لمحاربة العدو المسيحى . وتبين الخريطة رقم 2 الحصون والثغور والمدن والانهر التى كثيرا ما اشتبكت فيهـــا جيوش الامير الحمدانى مع جيوش الروم ، والتى كثيرا مـــا شاهدت انتصار الامير العربى على ملك النصارى والتى كثيرا ما ذكرها المتنبى فى القصائد التى القاها بين يدي سيف الدولة فى حلب أو فى ميادين القتال بنفس هذه الاماكن .

وقبل أن نستعرض بعض هذه القصائد وظروف انشائها والقائها يجدر بنا أن نلم المامة خفيفة بأنواع الغزوات التـــى



خريطـــة رقـــم (2)

كان سيف الدولة يقوم بها ضد الروم كما وصفها ابن حوقل بجغرافية هذه الثغور والحصون والمدن اثناء الفترة التى نحن بصدد دراستها ، كما يجدر بنا أن نشير الى تاريخ غزوات سيف الدولة فى نفس الفترة وانتصاراته على الروم .

مواسم الغزوات :

أ ـ الغزاة الربيعية :

تقع لعشرة أيام تخلو من أيار (ماي) بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوما وهى بقية ايار وعشرة من حزيران (يونيه) ، فانهم يجدون الكلأ فى بلاد الروم ممكنا وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا ، ثم يقفلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوما وهى بقية حزيران وخمسة من تموز حتى يقوي ويسمن الظهر .

ب ـ غزو الصائفة :

يجتمع الناس فيغزون لعشر تخلو من تموز (يوليه) فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوما .

ج ـ غزو الشواتى :

ان كان لابد منه فانه يكون مما لا يبعد فيها ولا يوغل ، ويكون مسيره 20 ليلة بمقدار ما يحمل الرجل بفرسه ما يكفيه

على ظهره ، وان يكون ذلك فى آخر شباط (فبراير ـ مارس) فيقيم الغزاة الى أيام تمضى من آذار ثم يرجعون ليربعوا دوابهم .

وكانت بعض غزوات سيف الدولة فى قلب فصل الشتاء .

فمثلا خرج سيف الدولة ضد الروم فى ذي القعدة (غشت ـ شتنبر) سنة 326 هـ حيث وافاه الدمستق فى 200,000 بحصن زياد . كما خرج الروم فى شهر دجنبر يناير سنة 941 م ووصلوا الى قريب من حلب ، كما أنه خرج هو فى سنة 328 هـ بعد أن انحسر الثلج كما سنذكره وسار من ميافارقين الى أرمينية .

وغزا سيف الدولة فى 15 نوفمبر ديسمبر 950 م ـ 339 هـ غزاة سار فيها الى قيسارية ثم الى القبدق ثم سار الى سمندو ثم خرشنة ثم الى صاريخة وبين هذه وبين القسطنطنية سبعة أيام . فقال أبو الطيب قصيدته :

لهذا اليوم بعد غد أريج . .

وفيها اجتاز أبو الطيب بجماعة من المسلمين بعضهم نيام بين القتلى من التعب وبعضهم يحركونهم فيجهزون على من ترك فقال :

وجدتهـــم نيامـا فى دمـائكـــم
كـأن قتلاكـم ايـاهم فجعـوا

ومن أمثال الغزاة الصائفة تلك التى وقعت جمـــادى الاولى 341 ببقعة عربسوس شمال مرعش وانشد فيها أبـو الطيب سيف الدولة نونيته « نزور ديـارا » الى أن قال :

وان كنت سيف الدولـة العضب فيهـم
فدعنا نكن قبل الضـراب القنا اللدنـــا

فقال له سيف الدولة : قل لهؤلاء واومأ الى من حوله من العرب والعجم يقولون كما تقول حتى لا ننثنى عن الجيش . فما تجمل أحد منهم بكلام .

وهذه هـى الغزاة التى عناهـا المتنبى فى قصيدته :

عـواذل ذات الخـال فى عـوادل

العـواصـم والثغـور والحصـون :

يذكر ابن حوقل ان العواصم بلاد قصبتها انطاكية ، لكـن مع هذا لا يشترط أن تكون مدنا معينة بل فى الواقع هى المناطق التى تمد الثغور بالمال والرجال والعتاد ، وواحدها عاصم لانه يعصم الثغر ويمده فى أوقات النفير ، فينفر الناس زرافـات

يحملون أسلحتهم ويخوضون المعارك صحبة المرابطين فـــــى الثغور على حدود الاعداء ، وبذلك يحضرون المعارك على حدود المملكة دون داخلياتها . ومن العواصم الهامة دلوك ورعبـــان ومنبج وكانت تعصم زبطرة ، وملطية وسميساط وبعض الحصون كحصن بنى المومن وغيـــره .

والثغور منها البرية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البـــر ، ومنها بحرية ومنها مـــا يجتمع فيه الامران وتوجـــه الغزوات منها فى البر والبحر . ومن الثغور البحريـــة سواحـــل الشام ومصر ، أما الثغور الشامية فانها برية وبحرية معـــا .

وكانت ثغور الشـــام أيام سيف الدولة والاخشيديـــــين طرسوس وأدنة والمصيصةوعين زربة والكنيسة والهارونيـــــة وبياس ونقابلس وتسمى هذه الاخيرة اليوم اصلاحية وهى فى الطريق المباشر بين انطاكية ومرعش وهى الآن محطة للسكـــة الحديدية (أدنـــة ــ حلب) والذي يلقى هذه الثغور من بـــلاد الروم ويتصل بها من جهة البـــر فالقبادق والناطليق ، ومـــن جهـــة البحـــر سلوقيـــة .

وعواصم هذه الثغور أهل انطاكية والجومة والقورس .

أما الثغور الجزرية فهى ثغور الشام عن يمينها ومن جهة الشمال ، ومنها مرعش ويليها ثغر الحدث وكان يلى هذه زبطرة فخربت أيام المعتصم الذي بنى مكانها وبالقرب منها حصونـــا

لتقوم مقامها منها حصن طبارجى وحصن الحسينية وحصن بنى المؤمن ، وحصن ابن رجوان ــ ثم يلى هذه الحصون ثغر كيسوم (وكان على ستة فراسخ من ثغر الحدث) ثم حصن منصور ، ثم ثغر سميساط ثم ثغر ملطية وكل واحد من هذه الثغور بينه وبين بلد العدو درب وعقبة .

وكان يلى هذه الثغور ويقابلها من بلد العدو خرشنة وعمل الخالدية ، وعواصم الثغور الجزرية دلوك ورعبان (وهو شمال دلوك) ومنبج .

وفيما يخص الثغور البكرية ــ وهى ثغور ديار بكر ــ فهى شمشاط وحانى (وهى تقع فى الطريق آمد ــ قاليقلا ، وكانت معروفة بمعادن الحديد) وملكين ؟ (أو ملطين بين آمد وسميساط شمالى حانى) وحصون منها جمح وحوران والكلس وثغر قاليقلا فى جهة الشمال عن هذه الثغور ، وجاء كالمنفرد لبعده ، والذي يقابل هذه الثغور البكرية من أعمال الروم عمل الارمنياق وبعض عمل الخالدية ويقرب منها عمل أفلاغونية المتصل ببلاد الخزر .

أما الثغور البحرية وهى سواحل جند حمص فانطرطوس وبلنياس ، واللادقية ، وجبلة ، والهريادة ، وتوجد بلنياس شمال طرابلس وقد احتل الروم جبلة بعد موت سيف الدولة ، وقد أشار الباحث كنار الذي جمع النصوص التاريخية المتعلقة بغزوات سيف الدولة الى التدرج الجغرافى لهذه الثغور البحرية من سواحل

جند حمص فقال انها من الجنوب الى الشمال الشرقى كما يلى :

- انطرطوس - بلنياس - جبلة - اللادقية - هريادة -

ولقد ذكر المتنبى فى قصائده الحمدانية جل هذه الثغور والمدن والحصون .

ولا بأس هنا من افادة القارىء والباحث ببعض المعلومات عن هذه الثغور والعواصم والحصون والمراقب والبروج الدفاعية :

1) أدنة :

ثغر للمسلمين وهو يتوسط سهلا فسيحا خصيبا يمر به نهر سيحان وموقعه من النهر على ضفته الغربية ، وهو على طريق طرطوس وصفه ابن حوقل ويقال ان الذي بناه الرشيد ثم أتمه ابنه الامين .

2) الحدث :

كانت من ثغور سيف الدولة وله فيه مع البيزانطيين مواقع حامية على سهوله وجباله ، وقد أوقع بهم أكثر من هزيمة حوله ومن قبليه جبل الاحيدب المشهور فى الموقعة سالفة الذكر والذي تكرر ذكره فى شعر كل من المتنبى وأبى فراس .

3) رعـــبـــــان :

غير بعيدة عن الحدث تقع جنوبه على أحد روافد للفرات على الطريق بين حلب والحدث ، وهى مدينة بالثغور بين حلب وسمساط قرب الفرات معدودة فى العواصم ، وهى قلعة تحت الجبل خربها الزلزال فوجه سيف الدولة أبا فراس فأعاد عمارتها فى مـــدة 37 يومـــا .

4) زبـــطـــــرة :

كانت حصينة كل الحصانة لكثرة قربها من بلاد الروم ، بنى الخليفة العباسى المنصور مكانها وبالقرب منها حصونا منها بطبارجى وحصون الحسينية وبنى المومن وابن رجوان .

5) ســمـــيــســاط :

علـــى الفرات فى مجراه الاعلـــى .

6) طـــرســــوس :

كانت أجل الثغور وأخطرها وأكثرها أهلا ، بناها هارون الرشيد سنة 170 هـ (786 م) وينقل ابن العديم عن المهلبـــى العزيزي صاحب المسالك والممالك ويذكر ابن حوقل وهــــو معاصر لسيف الدولة أنه كان بها 100.000 فارس . وكـــادت

تكون حاجزا ضخما وسدا منيعا بين الروم والمسلمين . ولقد بذل الاباطرة الجهود لاسقاطها بدون جدوى الى أن جاء عهـد نقفور فوقاس غريم سيف الدولة فأسقطها سنة 354 هـ (965 م) ووقف نفقور على منبرها قائلا « يا معشر الروم ، أين أنا ؟ فقالوا : « على منبـر طرسوس » ، قال : « بل على منبر بيت المقدس . وهذه البلدة كانت تمنعكم من بيت المقـدس » ، وبطرسوس قبر المامون ، ولابى داوود الطرسوسى مزدوجة فى الثغور الاسلامية يصف فيها طرسوس .

7) المصيصة :

وهى تقع داخل آسيا الصغرى . وصفها ابن حوقـل ، وكذلك ابن العديم عن المهلبى العزيزي الذي قال انها كانت تسمى بغداد الصغيرة لانها كانت جانبين على النهر ، واشتهرت بالفراء وبضاعة عيدان السروج والكراسى وباللجم ، والمهاميز ، والعمد ، والدبابيس . وتقع المصيصة على الجانب الغربى لنهر جيحان ، بناها المنصور العباسى وقيل بل عبد الملك بن مروان ولما ولـى المامون بنى على الضفة الاخرى من النهر مدينة مقابلة عرفت باسم كفربيا ووصل بينهما بجسـر .

8) مرعش :

اذا ذكرت الحدث ذكرت مرعش لقربهما الواحدة مـن الاخرى ، اغتصبها الروم فانبرى لهم سيف الدولة وأعادها الـى

ملكه (1) وهى أول الثغور مما يلى جبل اللكــام . خربتهـــا الروم سنة 337 فبناها سيف الدولة فى سنة 341 هـ وجاء الدمستق ليمنع من بنائها فقصده سيف الدولة فولى هاربا وتمم سيــف الدولة عمارتها ــ ومرعش حصن من أعمال ملطية .

9) مــلــطــيـــة :

كانت من المدن الكبيرة والثغور الحصينة خربها الروم فى عهد أبى جعفر المنصور فأرسل اليها من أعاد بناءها سنة 139 هـ (756 م) ونقل اليها عدة قبائل من العرب ، وماؤها كثير مــن العيون والاودية ، أكثر المتنبى من ذكر هذا الثغر لكثرة الحروب التى جرت حوله .

10) الــحــصـــون :

وكانت تسمى أيضا المراقب لانها كانت فى أكثر الاحيان ترقب نشاط العدو وتحركاته ولم تكن هذه الحصون فى الخطوط الامامية بل كان بعضها يتأخر قليلا الــى الخلف .

ومنهـــا :

حــصـــن منصــور

« الثنيات وكان قريبا من البحــر

« الكنيســـة

---

1) ابن حوقــل

حصن ثابت بن نصر
« زياد
« شاكر

برج الوصيفي
« القطع
« الجزيري

مواقع الغزوات وأهم الاحداث فى قصائد المتنبى :

وسنقتصر فى هذا القسم من بحثنا على أهم الاعلام الجغرافية التى ذكرها المتنبى فى قصائده بمناسبة وصف تنقلات سيف الدولة ومعاركه وغزواته وأهم الاحداث التى وقعت أثناء مرافقته له كاعادته بناء حصن الحدث .

غزاة سنة 339 :

فى جمادى الاخيرة من سنة 339 هـ (950 م) ركب سيف الدولة فى بلد الروم من منزل يعرف بالسنبوس (بين قيصرية وسمندو) وقد صف الجيش يريد سمندو ، وكان أبو الطيب متقدما فالتفت فرأى سيف الدولة خارجا من الصفوف يدير رمحه فعرفه فرد الفرس اليه فسايره وأنشده قصيدته التى أولها :

لهـذا اليـوم بعـد غـد أريـج . . .

الى أن قـال مشيـرا الـى العـدو :

فـان يقـدم فقـد زرنـا سمنـدو
وان يحجـم فموعدنـا الخليـج

ويعنـى بالخليـج البسفـور .

غـزاة سنـة 340 :

وفى جمادى الاولى سنة 340 تحرك سيف الدولة لغـزاة الصائفة ولكنها كانت متأخرة عن وقتها فلم يتم قصد خرشنة بسبب الثلج وهجوم الشتاء وقد ذكر المتنبى هذه الواقعة فـى قصيـدتـه :

عـواذل ذات الخـال فى عـوادل . .

فأشار الى جمـود نهر سيحان فى هذا البيـت :

أخـو غزوات مـا تغـب سيوفـه
رقابهـم الا وسيحـان جامـد

ومن سياق هذا الكلام نرى أن سيف الدولة لم يبلغ سمندو لانه لم يستطع اجتياز نهر سيحان الذي يقع شرق سمندو لانه

كان جامدا . ونهر سيحان ينبع من بلاد الروم عند موقع يقال له رأس العين ويمر بأدنة .

غـزاة سنـة 342 :

هذه الغزاة رحل فيها سيف الدولة سنة 342 من حلب الى ديار مضر لاضطراب البلاد بها ، فنزل حران وأخذ رهائن بنـي عقيل وقشير وعجلان ، وحدث له بها رأي فى الغزو فعبر الفرات الى دلوك الى قنطرة صنجة الى درب القلة ، ومن هناك شـن الغـارة على أرض عرقة التى توجد شرقـى ملطية ، وعلـى ملطية . ثم عاد ليعبر الفرات فوجد الروم قد ضبطـوه عليـه فرجع وتبعه العدو ولكن سيف الدولة تراجع فى الواقع ليثـب على العدو وثبة الاسد حيث قتل كثيرا من الارمن ، وبعد هذه الوثبة المظفرة رجع الى ملطية وعبر قباقب وهو نهر حتى ورد الفرات تحت حصن يعرف بالمنشار (على الضفة اليسرى للفرات على جبل المنشار) فعبر الى نهر هنزيط الذي يصب فى الفـرات، ثم سمنين (وتسمى بحيرة سمنين) ونزل بحصن الران الـذي ذكره ياقوت قرب كركر ورحل الى سميساط فورد عليه بها نبأ هجوم العدو على بلاد المسلمين فأسرع الى دلوك (تمر الطريق بين سميساط ودلوك بربعان وصنجة) وعبرها فادرك العـدو راجعا على نهر جيحان (وهو نهر ينبع من بلاد الروم وينتهـى الى المصيصـة ويصب فى الابيض المتوسط وقد أصبحت اليوم كل الاراضى التى يجرى فيها تركية) فهزمه وأسر قسطنطين

ابن الدمستق وجرح الدمستق فى وجهه . وعلى ذكر هذا الجرح يقول كنار بأن الروم تحدثوا عنه فى كتب تاريخهم . وقد وقعت هذه الهزيمة قرب مرعش . وذكر المتنبى الغزاة فى قصيدتـــه الداليـــــة الشهيـــــرة :

لكـــل امريء من دهـــره مـــا تعـــودا
وعـــادة سيف الدولة الطعن فى العـــدا

مشيرا الى أن سيف الدولة قصد نهر جيحان من آمـــد فى سرعـــة لا تصـــدق :

سريـــت الى جيحان مـــن أرض آمـــد
ثلاثا لقـــد أدنـــاك ركض وأبعدا

وقد ذكر المتنبى بالتفصيل مواقع عديدة مر بها سيـــف الدولة فى هذه الغزاة وعين بالاسم كثيرا من الحصون والثغور والاماكن فى قصيدته اللامية :

ليالـــى بعـــض الظاعنـــين شكـــول
طـــوال وليـــل العاشقـــين يطـــول

فـــقـــــــال :

رمـــى الدرب بالجرد الجياد الى العـــدا
ومـــا علمـــوا أن السهـــام خيـــــول

وما هى الا خطرة عرضت له
بحران لبتها قنا ونصول

وخيل براها الركض من كل بلدة
اذا عرست فيها فليس تقيل

فلما تجلى من دلوك وصنجة
علت كل طود راية ورعيل

وأمسى السبايا ينتحبن بعرقة
كأن جيوب الثاكلات ذيول

وعادت فظنوها بموزار قفلا
وليس لها الا الدخول قفول

وكرت فمرت فى دماء ملطية
ملطية أم للبنين ثكول

وأضعفن ما كلفنه من قباقب
فأضحى كأن الماء فيه عليل

ورعن بنا قلب الفرات كأنما
تخر عليه بالرجال سيول

وفى بطن هنزيط وسمنين للظبا
وصم القنا ممن أبدن بديل

وبتـن بحصن الران رزحى من الوجـى
وكـل عزيـز للاميـر ذليـل

ودون سميسـاط المطاميـر والمـلا
وأوديـة مجهولـة وهجـول

لبسـن الدجى فيهـا الى أرض مرعش
وللـروم خطب فـى البلاد جليـل

فلمـا رأوه وحـده قبـل جيشـه
دروا أن كـل العالمـين فضـول

وهذه القصيدة زيادة على أهميتها التاريخية من أجمل مـا قالـه المتنبى من شعر حكمة ومدحـا وافتخـارا .

وقد حقق كنار فى كتابه عن سيف الدولة بعض ابيات هذه القصيدة وقارنها بالنصوص التاريخية فذكر مثلا مشيرا الـى البيـت الآتـى :

وعـادت فظنوها بمـوزار قفـلا
وليـس لهـا الا الدخـول قفـول

بأن سيف الدولة حين عجز عن شق طريق له شرقى ملطيـة وجنوبها تراجع عن خطاه نحو الشمال ثم الشرق . كما ذكـر كنـار أن المتنبى أشار فى بيت هذه القصيدة :

وفى بطـن هنزيـط وسمنـين للظبـى
وصـم القنـا ممن أبدن بديـل

الى غزوات سابقة لسيف الدولة فى نفس الناحية خصوصا سنة 336 وسنة 339 معتمدا على بيت من قصيدة قالها سنة 340 وهـو :

عصفـن بهـم يـوم اللقان وسقنهـم
بهنزيـط حتـى أبيـض بالسبـى آمد

ويختم كنار كلامه بأن المؤرخين لم يذكروا تفاصيل الغزاة الثانية التى غزاها سيف الدولة سنة 339 .

اعـادة بنـاء حصـن الحـدث :

ومن شرح للمتنبى ذكره العكبري قال : بأن سيف الدولة سار نحو ثغر الحدث لبنائها ، وقد كان أهلها اسلموها الى الدمستق بالامان سنة 337 ، فنزل سيف الدولة يوم الاربعاء لاثنتـى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة 343 وبدأ فى يومه فحط الاساس وحفر أوله بيده ابتغاء ما عند الله ذكره ، فلما كان يوم الجمعة نازله ابن الفقاس دمستق النصرانية فى نحو خمسين ألف فارس وراجل من جموع الروم والارمن والروس والصقلب والبلغار والخزرية ، ووقعت المصافة بين الاثنين انسـلاخ

جمادى الاخيرة من أول النهار الى وقت العصر ، وان سيــف الدولة حمل عليه بنفسه فى خمسمائة من غلمانه وأصناف رجاله فقصد مركبه وهزمه وأظفره الله تعالى به وقتل نحو ثلاثة آلاف رجل وأسر خلقا من اسخلارليته وأراخيته (وهم جند وحكام من نظام الروم) فقتل أكثرهم واستبقى بعضهم وأسر تودس الاعور بطريق سمندو ولقندو وهو صهر الدمستق ، وأسر ابن ابنة الدمستق ، وأقام على الحدث الى أن بناها ووضع آخــر شرافة منها بيده فى يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب فقال أبو الطيب وأنشدها اياه بالحدث بعد الواقعة :

على قدر أهل العزم تأتــى العزائـــم
وتأتى على قدر الكـــرام المكـــارم

وقد وصف فى هذه القصيدة بناء الحدث وذكر الاحيــدب وهو جبل يشرف على الحدث (1) .

هل الحدث الحمراء تعــرف لونهـــا
وتعلــم أي الساقيـــين الغمائــم

بنــاها فأعلــى والقنا تقــرع القنـــا
ومـــوج المنايـــا حولهـا متلاطـــم

وكــان بها مثــل الجنــون فأصبحــت
ومــن جثــث القتلــى عليها تمائــم

1) ذكره ياقوت فى معجمه

وكيف ترجى الروم والروس هدمها
وذا الطعن آساس لها ودعائم

ثم قال مخاطبا سيف الدولة ومشيرا الى كثرة الضحايا من الروم فوق جبل الاحيدب :

نثرتهم فوق الاحيدب كله
كما نثرت فوق العروس الدراهم

وهذه القصيدة من أروع قصائد المتنبى وإن كان من الصعب حقا تفضيل قصيدة على أخرى فى جملة ما قاله المتنبى فى سيف الدولة .

الروم يحيطون بالحدث وسيف الدولة يحرره :

نقل العكبري فى شرحه قال بأنه ورد على سيف الدولة الخبر آخر النهار يوم الثلاثاء لست خلون من جمادى الاولى سنة 344 بأن الدمستق وجيوش النصرانية قد نازلت الحدث فى يوم الاحد ونصبت مكائد الحصون عليه وقدرت انها فرصة لما تداخلها من القلق والانزعاج والوصم فى تمام بنائه على يد سيف الدولة ولان ملكهم ألزمهم قصدها وأنجدهم بأصناف الكفر من البلغار والروس والصقلب وغيرهم ، وأنفذ معهم العدد والعدد ، فركب سيف الدولة لوقته نافرا وانتقل لغير الموضع الذي كان فيه ونظر

فيما يجب النظر فيه فى ليلته وسار عن حلب غداة يوم الأربعاء فنزل رعبان وأخبار الحدث مستجمعة عليه لضبطهم الطرق وتقديرهم ان يخفى عليه خبرهم ، فلما أسرى لبس سلاحه وأمر أصحابه بمثل ذلك وسار زحفا فلما قرب من الحدث عادت اليه الطلائع بأن العدو لما أشرفت عليه خيول سيف الدولة على عقبة تسمى العبرانى رحل ولم تستقر به دار ، وامتنع أهل الحدث من البدار بالخبر خوفا من كمين يعترض للرسل ، فنزل سيف الدولة بظاهرها، وانتظرت طلائعهم بخبر سيف الدولة فى اشراغه على ثغر رعبان ، فوقعت الضجة فيهم وظهر الاضطراب وولى كل فريق على وجهه وخرج أهل الحدث فأوقعوا ببعضهم وأخذوا آلة حربهم فأعدوها فى حصنهم ، فقال أبو الطيب :

ذي المعالى فليعلون من تعالى
هكذا هكذا والا فلا لا

وقد ذكر المتنبى فى هذه القصيدة جبل الاجيدب وأشار الى الحدث قائلا :

لا ألوم ابن لاون ملك الروم
وان كان ما تمنى محالا

أقلقته بنية بين أذنيه وبنـ
ـاغ بغى السماء فنالا

كلما رام حطها اتسع البنـ
ـى فغطى جبينه والقذالا

يجمع الروم والصقالب والبلغـ
ـر فيها وتجمع الاجالا

ان دون التى على الدرب والا
حدب والنهر مخلطا مزيالا

غضب الدهر والملوك عليها
فبناها فى وجنة الدهر خالا

فهى تمشى مشى العروس اختيالا
وتثنى على الزمان دلالا

وابن لاون هذا هو الامبراطور (Constantin Prophirogénète)

غزاة 345 :

وفيها ذكر المتنبى منبج وحصن الران ونهر ارسناس فى قصيدته :

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهى المحل الثانى

وعنها يحكى ابن المظفر ان سيف الدولة تقـدم فى أرض الروم تقدما لم يتقدمه المسلمون منذ ثلاثين سنة، وكان قد أخذ معه سفنا مخلعة وأطوافا (وهى قرب ينفخ فيها ويشد بعضها ببعض فتجعل كهيئة سطح فوق الماء تحمل عليها الميرة والناس وهى لا تـزال تستعمـل الى الآن فى العراق) اجتـاز عليهـا نهر أرسناس (فى طريق حصن زياد ــ ملطية) وقصد مدينة تل بطريق التى توجد على الضفة الغربية للفرات فأحرقها وقتل من الروم نحو أربعة آلاف وغنم وعاد الى آمد سالما فدخلها . يقول المتنبى ذاكرا سيف الدولة :

يرمى بهـا البلـد البعيـد مظفـر
كـل البعيـد لـه قريـب دان

فكـأن أرجلهـا بتربـة منبـج
يطرحـن ايديهـا بحصـن الـران

حتـى عبـرن بأرسنـاس سوابحـا
ينشـرن فيـه عمائـم الفـرسـان

غـزاة تـل بطريـق :

وصفها المتنبـى فى قصيدتـه :

عقبـى اليمين على عقبـى الوغى نـدم
مـاذا يزيـدك فى اقدامـك القسـم

فذكر عددا من الثغور والاماكن كتل بطريق وقنسرين والاجم وسروج وحلب وحصن الران وسمنين وهنزيط وأرسناس ، وقيلت القصيدة بمناسبة انه تحدث بحضرة سيف الدولة ان البطريــق (وهــو (Jean Tzimisces) أقسم عند ملكه أن سيعــارض سيف الدولة فى درب القلة وسأله أن ينجده ببطارقته وعدده وعدته ففعل فخاب ظنه ، وأنشد المتنبى سيف الدولة هذه القصيدة سنة 345 وهى آخر ما أنشده بحلب ، وهذه القصيدة هى ثانية قصيدتين قالهما المتنبى فى غزاة سيف الدولة لتل بطريق، وكان قد قال الاولى فى آمد حيث أشار الى الطريق التى عبرها سيف الدولة (منبج ــ حصن الران ــ عبور الفرات) ويلاحظ كنار بأن القصيدة الثانية أهم من الاولى من الناحية التاريخية ؛ وقد ذكر المتنبى فى هذه القصيدة الثانية وبار وارم للتمثيل فقط فقال :

الراجــع الخيــل محفــاة مقــــــودة

من كــل مثل وبــــــار أهلهــــا أرم

كما ذكر المتنبى سروج وحران ولاحظ كنار بخصوصهما ان اسم هذين الموقعين يسجل منطلق الامير : حلب ــ منبــــج ــ سروج ــ حران .

بعض الاماكن الاخرى التى اشار اليها المتنبى :

منها نهر قويق الذي أحاط عند المد بدار سيف الدولة وخرج أبو الطيب فبلغ الماء الى صدر فرسه فقال سنة 342 :

حجب ذا البحر بحـــار دونـــه الـــخ ..

ومنها ان بنى كلاب أحدثت حدثا بنواحى بالس وسار سيف الدولة اليهم ومعه المتنبى فأدركهم بعد ليال بين ماءين يعرفان بالغبارات والخرارات من جبل البشر (وهو سلسلة جبال شرقى تدمر) فأوقع بهم ليلا ، فقال أبو الطيب قصيدته :

بغيـــرك راعيــــا عبـــث الذئـــــاب
وغيـــرك صـــارمـــا ثلـــم الضـــــراب

ومنها مروج سلمية وهى على مسيرة يوم من حمص بمدخل الصحراء ، خربها القرامطة وكانت فى ملك سيف الدولة ــ وقــد ذكر شراح المتنبى ان عامر بن صعصة وقشير والعجلان وأولاد كعب بن ربيعة بن عامر تجمعت بمروج سلمية ، وان كلامن ابـــن ربيعة بن عامر تجمعت بماء يقال له الزرقاء (بين خناصـــــرة وسورية) وتشاكوا ما يلحقهم من سيف الدولة وتوافقوا علـــى شغله من كل ناحية والتظافر به ان قصد طائفة منهم ، ثم قتلوا عامل سيف الدولة على قنسرين ، فهجم عليهم وبدد شملهـــــم وتتبعهم وفرقهم فى صحراء السماوة فقال المتنبى قصيدته :

تذكرت ما بـــين العذيـــب وبـــــارق
مجـــر عوالينا ومجـــرى السوابـــــق

كما ذكر فى قصيدة أخرى فى نفس الموضوع سلمية والجباة والصحصحان (الذي يوجد بين حمص وخناصرة) ونهر الخابور.

والملاحظ ان الشاعر البطل ابا فراس الحمدانى ابن عم سيف الدولة حضر المعارك ضد الاعراب وقال فيها شعرا ذكر فيه اعلاما للاماكن التى مر بها سيف الدولة الحمدانى .

اننا لم نستقص على الطريقة النموذجية كل الاعلام الجغرافية التى ذكر المتنبى أو أشار اليها فى شعر مرحلته الحمدانية ولكننا نعتقد أننا أتينا على أكثرها وأهمها فى هذا الباب.

ج ـ المرحلة المصرية :

يلاحظ المطلع على المرحلة المصرية لشعر المتنبى ان الشاعر لم يعر أدنى اهتمام لمصر ومدنها ومعالمها ، مما أثار عليه حفيظة طه حسين فى كتابه « مع المتنبى » حيث أدهشه هذا السكوت فى حق بلاد الحضارة الفرعونية . ويمكن فقط ان نسجل انه فى هذه المرحلة ذكر بعض المواقع والبلدان على سبيل التشبيه أو المثال أو الاستعارة فقال مثلا يصف مملكة كافور وسعتها .

تدبر الملك من مصر الى عدن
الى العراق فأرض الروم فالنوب

واذا استثنينا ذكره للاهرام ليقول انها ستتخلف عن أصحابها ثم سيلحقها العفاء كما لحقهم ، واشارته للمقطم ونواطير مصر وسواقيها ، فاننا لا نكاد نجد لمصر ، ونيل مصر ، ومدن مصر وقراها الآهلة ومآثرها العظيمة ذ كرا في شعره ، كأنه لم يتنقل بمصر ولم يشاهد ما فيها ولم يقم بالفسطاط مدة أعوام بل كأنه لم يذهب الى مصر في يوم من الايام ، ولو أنه كان مدح كافورا من بلاد نائية عن مصر لما حدث أي تغيير يذكر في الشعر الذي خصصه لابى المسك .

ومما يعزي طه حسين ان هذه الظاهرة نستطيع ان نلاحظها في المتنبى حين كان في حلب أو بغيرها من البلاد ، ثم يزيد قائلا : « ولولا أنه وصف بحيرة طبرية حين مدح على بن ابراهيم التنوخى ، وألم الماما يسيرا بوصف لبنان حين مدح الاوراجى ووصف وادي بوان حين مدح عضد الدولة ، وسمى طائفة من المدن والقرى والجبال تسمية ، لولا هذا لقلنا ان المتنبى قد مر بالدنيا ورآها ولكنه لم يحفل بها ، نستغفر الله ، بل لم يحفل بظاهرة الطبيعة فيها ، لانه كان مشغولا عن الطبيعة بنفسه وبالناس ... وربما أبدع في وصف وادي بوان ، وربما راع في وصف بحيرة طبرية ، ولكنه في هذا كله .. انما كان يتخذ الوصف وسيلة الى ما يثور في نفسه من العواصف والاهواء .. » .

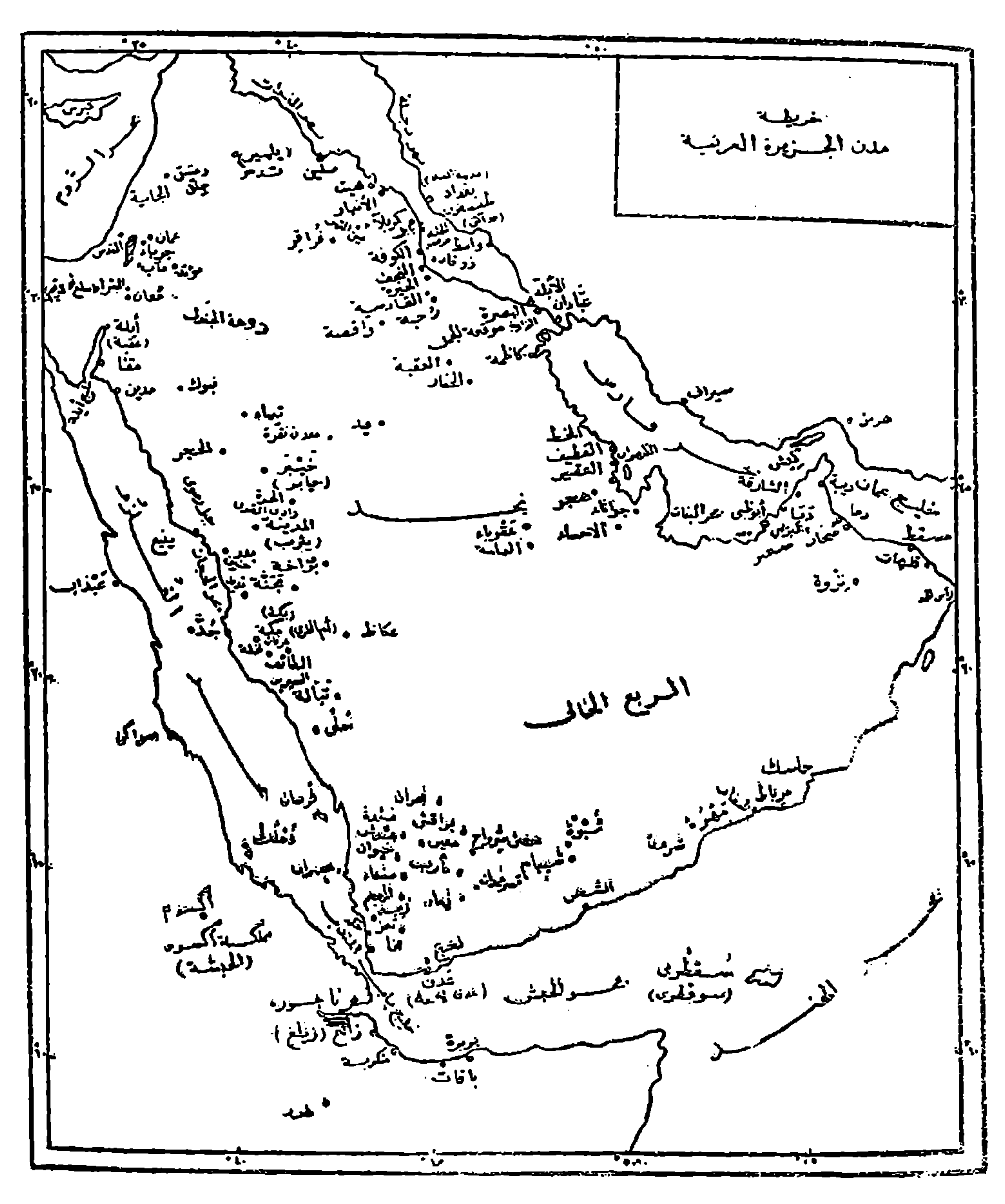
« ومن هنا يفهم ان يزور المتنبى مصر ويقيم فيها أعواما متصلة ثم لا يظهر للطبيعة المصرية أثر يذكر في شعره .. » ونزيد فنقول بأن المتنبى لم يهمل الطبيعة المصرية وحدها بل

أهمل الحضارة المصرية ، لان بلاد مصر مبعث لكل قول ولكل وصف ولكل اعتبار من حيث الجمال والحضارة والتاريخ فأرضها ذهب ونيلها عجب ومآثرها عبرة لمن اعتبر ، ويتعزى طه حسين بملاحظة ان حظ حلب أو دمشق أو الرملة أو الكوفة أو أرجان أو شيراز أو بغداد فى شعره لم يكن خيرا من حظ الفسطاط .

د ـ الفرار من مصر الى بلاد فارس :

وقد فر المتنبى من كافور بعد اليأس من نيله ، واختار لنفسه طريقا بعيدة عن عيون كافور وأصحاب كافور ، وخلف عن هذا السفر الطويل عبر صحراء مصر والجزيرة العربية حتى الكوفة فى العراق قصيدته التى هجا فيها كافورا بعد أن ذكر فيها الاودية والعيون والمناهل والقرى والمفازات والمجاهل التى مر منها . ونحن نستعرض هنا هذه القصيدة محاولين تحديد هذه الاماكن بقدر الامكان معتمدين فى ذلك على البكرى الاندلسى وياقوت فى معجميهما :

ألا كل ماشية الخيزلى	فدى كل ماشية الهيدبى
....	....
فمرت بنخل وفى ركبها	عن العالمين وعنه غنى
وأمست تخيرنا بالنقا	ب وادي المياه ووادي القرى
وقلنا لها أين أرض العراق	فقالت ونحن بتربان ها
روامى الكفاف وكبد الوهاد	وجار البويرة وادي الغضى


خريطة
مدن الجزيرة العربية
الربع الخالي
نجد
بغداد
البصرة
الكوفة
الأنبار
كربلاء
دمشق
عمان
تبوك
مدين
تيماء
خيبر
الحجر
المدينة
(يثرب)
ينبع
جدة
مكة
الطائف
عكاظ
تبالة
نجران
صنعاء
مأرب
شبوة
شبام
عدن
سقطرى
(سوقطرى)
صحار
مسقط
جلفار
سيراف
هرمز
القطيف
العقير
الاحساء
هجر
اليمامة
عيذاب
سواكن
بربرة
زيلع (زيلع)
مملكة أكسوم
(الحبشة)
أكسوم
باقات
هرر
مدائن الجزيرة
فارس
دومة الجندل
أيلة
(عقبة)
مقنا
مؤتة
مآب
القدس
أذرعات
الحيرة
القادسية
زرود
فيد
معدن النقرة
الحيرة
الشحر
ظفار
مرباط
حاسك
الجار
ودان
الأبواء
المدينة
ظهار
شرمة
مهرة

خريطة رقم (3)

وجابت بسيطة جوب الـــردا ... بين النعام وبين المهـــــا
الى عقدة الجوف حتى شفت ... بماء الجواري بعض الصدى
ولاح لها صــور والصبـــا ... ح ولاح الثغور لها والضحى
وأمسى الجميعى دئداؤهـــا ... وعادى الاضارع ثــم الدنـــا
فيالك ليلا علـــى أعكـــس ... أحــم البلاد خفــى الصوى
وردنا الرهيمـــة فى جـــوزه ... وباقيـــه أكثر ممـــا مضـــى

هذا هو المسلك الذي سلكه المتنبى ليصل الى الكوفة ، واذا نظرنا الى الخريطة محاولين تتبعه نجد أنه باجمال لاشك مـــر بمساعدة أعراب مصر الى أن وصل جنوبا الى جهة المدينـــة ومكة ومنها مر بتيماء ثم عبر نجدا ثم اقترب من أدانى العراق الى أن بلغ الكوفة . هذا تقريبا ــ وربما بطريقة غير ممحصة ــ هو الممر الذي مر به المتنبى حامــلا مــا تجمع له مـــن مـــال ومتـــاع معتمدا علـــى نفســـه وسيفـــه طـــوال الطريـــق الملتوية التى اختارها لينجو بنفسه من كيد كافور وأعوانـــه سواء فى مصر أو فى الجزيرة العربية التى قطعها من الغرب الى الشرق فى مدة ثلاثة أشهر .

وقد لاحظ البكري فى معجم ما استعجم ان أبا الطيـــب « نسق فى هذه القصيدة المحال والمياه من وادي القرى الـــى الكوفة مستقبلا مهب الصبا » ، وأشار الى انها كنها « محددة فى رسومها » .

وفيما يلى مواقع بعض هذه الاماكن :

النقاب : موضع بين المدينة ووادي القرى

وادي المياه : قال ياقوت من أكرم ماء بنجد لبنى نفيل وادي المياه : مذكور فى كلام العرب

وادي القرى : قال ياقوت واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى ، وقال آخرون ان وادي القرى على مسافة قريبة من النخلتين على حدود أرض المدينة .

تربان : قال البكري هو واد به مياه كثيرة ، وقال الاصمعى تربان على ثمانية عشر ميلا من المدينة على طريق مكة وقد ذكر حسان بن ثابت تربان فى شعره .

البويرة : قال البكري وهى من تيماء وذكر تحديدها فى تيماء التى قال انها من أمهات القرى ثم قال انك ترتحل من المدينة وأنت تريد تيماء فتنزل الصهباء لاشجع ثم اشمذين لاشجع ثم تنزل العين ثم سلاما لبنى عذرة ثم تسير ثلاث ليال فى الجناب ثم تنزل تيماء وهى لطى .

بسيطة : يقول البكري انما عنى المتنبى موضعا فى طريق الكوفة من المدينة ، وهى تلقاء البويرة ، وقرأت فى مكان آخر ، بسيطة موضع بين الكوفة ومكة من أرض نجد .

الشغور : موضع بسماوة العراق .

الاضارع : قال البكري موضع بين المدينة والعراق على ليلتين من ماء صورى الذي يظهر ان المتنبى حرفها الى صور .

أعكش : موضع بأدانى العراق

الرهيمـــة : قـــرب الكوفـــة

وقد نقل شراح المتنبى أنه خرج من الفسطاط واجتـــاز ببلبيس لينـــزل على عبد العزيز القيسى الذي أضافه وأكرمه ، وقد مدحه الشاعر بهذه القصيدة :

جـــزى عربـــا ببلبيـــس ربهـــا
بمسعاتها تقرر بذاك عيونهـــــا

ولا شك ان كافورا كتب الى عماله ليسدوا عليه الطـــرق ولكن المتنبى مجرب محنك يعرف مكائد ذوي النفوذ فهو الذي يقول فى حيطته وحـــذره :

اليك فانى لست ممن اذا اتقـــى
عضاض الافاعى نام فوق العقارب

وعبر أبو الطيب بموضع يعرف بنجة الطير حتى خرج الى ماء يعرف بنجل بعد أيام ، فلقى عنده بالليل ركبا وخيلا صادرة عن كافور فأخذهم ثم تركهم ، ولما قرب من النقاب رأى رائديـــن

لبني سليم على قلوصين فركب الخيل وطردهما حتى أخذهمـــا فذكرا له ان أهلهما أرسلوهما رائدين فرد عليهما متاعهما ، وسار معهما حتى توسط بيوت بني سليم آخر الليل ، فأكرمه ملاعب ابن النجم وذبح له ثم غدا فسار الى النقع فنزل ببادية من معن وسنبس وهناك أكرمه عصيف المعنى وذبح له ، ثم غدا مـــن عنده فسار يومه وبعض ليلته ، وعند الصباح دخل حسمى وهى أرض طيبة خصبة وبها جبال شاهقة .

وكان بنو فزارة شاتين بها فنزل بقوم من عدى فـــزارة وطاب له المقام فلبث شهرا ، ثم ظهر له فساد عبيده وكـــان كافور قد كتب لمن حوله من العرب ووعدهم ، فانفذ رسولا الى فتى من بنى فزارة ثم من بنى مازن ، وهم قوم يوثر عنهم رعاية الجوار ثم سار اليه فى الليل والقوم لا يعلمون رحيله ، ولا يشكون أنه يريد البياض فأخذ طريق البياض حتى بلغ رأس الصـــوان فتوقف وأنفذ رسولا الى عرب بين يديه وأراد أحد عبيـــده ان يخونه فضرب أبو الطيب وجهه بالسيف وأمر الغلمان فقتلوه :

ثم سار الى دومة الجندل وذلك لاشفاقه من أن تكون عليه عيون تعلم انه يريد البياض ، وورد الشاعر البويرة بعد ثلاث ليال ولما توسط بسيطة وهى بقرب الكوفة ، رأى بعض عبيده ثورا فقال هذه منارة الجامع ، ونظر آخر الى نعامة فقال هى نخلة فضحك أبو الطيب وقال :

بسيطـــة مهـــلا سقيـــت القطـــارا
تركت عيون عبيـــــدي حيـــارى


خريطة
أهم القبائل العربية
عند ظهور الاسلام
علامة للنصارى
لليهود
للمجوس
للوثنيين
بنو شيبان
قضاعة
جهام
طيئ
الثعلبة
بكر بن وائل
أسد
جديلة
كندة
هلال
بنو عامر
حنظلة
اليمامة
هوازن
سعد
هذيل
بنو حنيفة
بنو ثقيف
عقيل
قريش
خثعم
باهلة
مذحج
قحطان
بنو مراد
همدان
كندة
عك
حضرموت
مهرة
الربع الخالي
الأحقاف
عمان
الأزد
خليج عمان
بحر الحبش
(بحر اليمن)
مملكة أكسوم
(الحبشة)
سقطرى
بحر الروم
النبطيون
ديار بكر
ديار مصر
آل ساسان
فارس
بحر الجنات
النوبة

خريطة رقم (4)

وورد العقدة بعد ليال واجتاز ببنى جعفر بن كلاب وهـــم بالبرية فبات فيهم ثم دخل الكوفة فى شهر ربيع الثانى سنة 351.

هذا ما أورده شراح المتنبى ومعاصروه عن رحلته من مصر الى بلاد فارس .

هـ ـ زيارته لبلاد فارس وموقع مقتله بالعراق :

غادر المتنبى بغداد فى طريقه الى فارس قاصدا أبا الفضل ابن العميد وزير عضد الدولة البويهى وذلك فى صفر سنة 354 وقد أخذ طريق الاهواز حتى بلغ أرجان التى ذكرها فى قصيدته الـــى ابن العميـــد :

أرجـــان أيتهـــا الجيـــاد فانـــه
عزمى الذي يـــذر الوشيـــج مكسرا

ويروي الرواة أنه وجد أرجان ضيقة البقعة والدور والمساكن فضرب بيده علـــى صدره وقال :

« تركت ملوك الارض يتعبدون بى وقصت رب هذه المدرة فيما يكـــون ؟ »

ثم وقف بظاهر المدينة وأرسل غلاما الى ابن العميد الذي ثار من مضجعه وأمر حاجبه باستقباله . ثم التحق المتنبى بعضد الدولة فى شيراز مجتازا بشعب بوان الذي خلف فى شأنه أثرا من أجمل آثار الشعر العربى فى وصف الطبيعة :

مغانى الشعب طيبـا فى المغانـــى
بمنزلـة الربيـع مـن الزمـــان

أقام المتنبى ثلاثة أشهر فى شيراز حيث قرىء عليه ديوانه، ثم خرج من شيراز قاصدا بغداد فالكوفة لينظر منها فى أمـــره ولا شك قبل اتخاذ أي قرار وقبل الاتجاه الى أي مقصد .

وقد ترك لنا الخالديان عن ظروف رجوع المتنبى من فارس الى العراق ومقتله كتابا مفصلا وجهه اليهما صديقه أبو نصر محمد الحلبى جاء فيه بأن مسير المتنبى كان من واسط وان الذي قتله هو فاتك الاسدي خال ضبة الضبى الذي هجاه الشاعر بقصيدتـه الملعـــونـــــة :

مـــا أنصـــف القـــوم ضبـــــه
وأمـــه الطـرطبــــة

وقد علم فاتك الذي تتبع أثره عن كثب باجتيازه بجبل ديـر العاقول فى العراق (ودير العاقول مدينة قديمة جنوبى بغداد عندها هزم المعتمد العباسى عامله يعقوب ابن ليث الصفار الثائر سنة 876 م) « وكان مع المتنبى بغال موقرة من الذهب والفضة والطيب والملابس والتحملات النفيسة والكتب الثمينة والادواء الكثيرة » ، وكان أكثر اشفاقه على دفاتره لانه كان قد انتخبها وأحكمهـا قراءة وتصحيحا كما ذكر الحلبى للخالديين . هجم عليه فاتك فى

الجبل المذكور في فئة من ابناء عمومته وقتلوه هو وابنه وعبيده وبهذا الاستشهـاد تنتهى سيرة من أعظم سيـر تاريخ الادب العربـى وتنقضى هـذه المسيرة الطويلة التى بدأها الشاعـر منذ نعومة أظفاره والتى استمرت طيلة ثلاثين سنة لم يعرف فيها الاستقرار صاحبها الى أن أوقفها القدر المحتوم بموت هذا العملاق الذي لا نجد لوصفه أحسن مما قاله هو عن نفسه :

« بأي بـلاد لـم أجـر ذوائبـى
وأي مكـان لـم تطـأه ركـائبـى

الربـاط **مصطفى القصري**

ذيل وتعليق
حول قضية المعتمد بن عباد
-9-

عبد الرحمن الفاسي

تسجل الرواية النصرانية قيام حلفين اثنين بين « أذفنش » وبين المعتمد بن عباد ، أحدهما وأشهرهما ذلك الذي أسفر عنه استصراخ (1) المعتمد « أذفنش » لنجدته والتعاون معه للدفاع عن تراب مملكته الاشبيلية ، واجلاء الجيوش المرابطية عن أرض الجزيرة الاندلسية .

---

(1) « مذكرات الملك عبد الله » ، ص : 169 .
- « اعمال الاعلام » ، جزء الاندلس ، ص : 189 . ط. الرباط .
- « تذكير العاقل وتنبيه الغافل » لأبي الحجاج يوسف البياسي ، بواسطة « وفيات الأعيان » ، ج : 7 ، ص : 127 ، تحقيق الدكتور احسان عباس .
- « الأنيس المطرب بروض القرطاس » ، المطبعة الوطنية الرباط، ج : 1 ، ص 74 .

وقد أشارت الرواية العربية الى هذا الحلف . وعنيت به الرواية النصرانية (2) عناية خاصة ، وربطت به جل طرقها قصة الاميرة زائدة ، فزعمت (3) (أن الفونسو السادس قد تزوج من ابنة للمعتمد بن عباد تسمى زائدة ، أو أنه قد اتخذها خليلة ، وأنجب منها ولده انوحيد سانشو ، وتزيد على ذلك أن المعتمد نفسه حينما شعر بخطر المرابطين الداهم على مملكته ، واستغاث بألفونسو لمعاونته على دفعه ، هو الذى قدم ابنته المذكورة للملك النصرانى) .

وسيأتى تفصيل القول فى هذا لدى الحديث عن هذا الحلف ، وتفنيد مستندات قصة ابنة المعتمد الاسطورية التى صدقها (4) بعض المؤلفين من غير تمحيص ، مع أن النصوص تكشف عن موضع الوهم والايهام ، ولا تدع مجالا للمأثورات الشعبية والتخيلات العاطفية بأية حال .

---

(2) انظر بحث المستشرق الفرنسى ليفي بروفنصال فى مجلة هسبريس : عدد 18 ، سنة 1934 ، من ص : 1 الى 8 ، ومن 200 الى 201 .
— « دول الطوائف » للاستاذ محمد عبد الله عنان ، ص : 333 — 334 وما بعدها .

(3) دول الطوائف للاستاذ محمد عبد الله عنان ، الطبعة الاولى ، ص : 334 ، وانظر ايضا الصحيفة 108 .
— عدد مجلة هسبريس الآنف الذكر .

(4) انظر غابر الاندلس وحاضرها للاستاذ محمد كرد علي رحمه الله .

وأما الحلف الثانى وهو الاول من الناحية التاريخية ، فان الرواية العربية قد أغضت عنه ، كما أن الرواية الكنيسية قد أغفلت ذكره متصامة ، وانفردت بتسجيله الرواية النصرانية المتأخرة ، منذ تتالت الدراسات والبحوث الاجنبية فى القرن الثامن عشر حول قضية الاميرة زائدة ، التى قرنتها بهذا الحلف أيضا بعض طرق هذه الرواية .

وهذه الرواية ، وان كانت لا تحدد (5) تاريخا لهذا الحلف فهى تسجل ظروفه فى افادات التوطئة له ، فقد استعرضت (6) مظاهر تفوق ملك اشبيلية لتوفقه فى استرداد قرطبة ، وظفره بأخذ ثاره من ابن عكاشة ، وبنشر سيادته على مرسية (7) ، ثم بانحياش بلنسية أبى بكر بن عبد العزيز

---

(5) يبدو ذلك مما سجله المستشرق اشباخ الذي يستوعب عادة الرواية النصرانية ولا سيما الكنيسية منها . وهذه الميزة هي التي تسوغ الرجوع اليه .

(6) تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين للمؤرخ يوسف أشباخ ، ج : 1 ، ترجمة وتعليق : مؤرخ الاندلس الاستاذ محمد عبد الله عنان ، ص : 58·59·60·61 .

(7) من المعروف أن ابن عمار قد استولى على مرسية باسم سيده المعتمد واستبد بها ، ولكنه لم ينعم بها ، واختطفها منه ابن رشيق ، واحكم قبضته على أريكة حكمها بدفع الجزية الى اذفنش والانحياش اليه ، وقد ظل على اريكتها الى ان رد امير المسلمين شرعية السيادة عليها الى المعتمد بن عباد ، وذلك فى جوازه الثاني الى الجزيرة لمحاصرة حصن « لييط » ، ومن جملة ما تبين لامير المسلمين فى ذلك الحصار أن ابن رشيق كان يرسل المؤونة خفية الى نصارى الحصن المحاصر .

الى اشبيلية ، بالرغم من أنها تابعة بالاصالة للمملكة الذنونية .

وترى هذه الرواية ان ملك اشبيلية قد غنم بهذه الانتصارات ظهورا فى الصراع المعروف بين اشبيلية وبين طليطلة ، فتوطىء للحلف بهذه الفقرات (8) : (ومن ثم كانت الظروف كلها مواتية لأطماع أمير اشبيلية ، بيد أنه أدرك أنه لا بد أن يبادر الى عقد التحالف مع ملك قشتالة قبل أن يسبقه اليه ملك آخر (القادر بن ذى النون) ، ومع أنه توقعا لأسوا النتائج ، وهى أن يأبى ألفونسو أن يترك حلفه القديم مع بنى ذى النون ، قد جدد علائق الصداقة مع أمير برشلونة على يد ابن عمار والى مرسية ، وعرض أموالا كثيرة لاستئجار الجند المرتزقة ، فانه رأى من الاصلح والاوفق لخططه أن يسعى بكل ما وسعه الى صداقة ملك قشتالة وليون ، اذ هى أدعى الى النجاح بلا ريب ، فبعث مفاوضه البارع ابن عمار الى ليون ، وكانت يومئذ مقرا لملك قشتالة ، **وفاز ابن عمار بأن يعقد بين ألفونسو وبين سيده معاهدة يتعهد بها ملك قشتالة أن يعاون أمير اشبيلية بالجند المرتزقة**

---

(8) تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين للمؤرخ يوشف اشباخ ج : 1 ، ص : 60 .

ضد جميع أعدائه المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع الى ملك قشتالة مقادير كبيرة من المال ، ويتعهد بالاخص بما هو أهم ، وهو ألا يعترض مشروع ألفونسو فى افتتاح طليطلة ، وهكذا ضحى المعتمد بمعقل اسبانيا المسلمة ، لكى يفوز ببسط سيادته على الامارات التى لم تخضع له بعد ، وهى امارات غرناطة ، وبطليوس ، وسرقسطة ، ووهب ألفونسو السادس ابن عمار منظم هذه المعاهدة خاتمين ثمينين جزاء جهوده)

وتضيف الرواية النصرانية من طريق آخر الى تعهدات ابن عمار — الذى تولى المفاوضة — عن اشبيلية ، أن على ابن عباد (9) أيضا (أن يقوم بغزو أراضى مماكة طليطلة الجنوبية ، وأن يسلم منها الى ملك قشتالة الاراضى الواقعة شمال جبال سييرا مورينا (جبل الشارات) .

وهذه الافادات — كما ترى — تنسجم مع حقائق معروفة عن أهداف الملكين ، هذا فى الامتداد والامتلاك لتوحيد ممالك الطوائف تحت لواء بنى عباد ، وذلك فى الظفر بطليطلة ، وهى

(9) « دول الطوائف » للاستاذ محمد عبد الله عنان ، الطبعة الاولى ، ص : 72 — 73 .

مهوى الفؤاد ، ووسطى حلقات الطوق العاصر ، الذى يلفه رويدا رويدا على مخنق ممالك الاسلام .

ولا سبيل بعد المماراة فى قيام هذا الحلف، مسايرة لصمت مريب من الرواية الكنيسية القديمة ، أو انعطافا الى صمت محتشم لاذت به الرواية الاسلامية ، أو التفاتا الى أن قرائح الشعراء ــ وعلى رأسهم المعتمد ووزيره ابن عمار ــ قد جمدت فى مهب العاصفات ، وأصفت أمام عار دفع الجزية ودنية الاستخذاء ، فان دواعى قيام هذا الحلف ماثلة ، وجرية الاحداث تسير قدما نحوه فى مسيرة طبيعية من غير التواء ، ثم ان لذعات الكتابين المتبادلين بين أذفنش والمعتمد على الله قبيل معركة الزلاقة ، تغرى بالالتفات الى هذا الحلف فى المقام ، وتكادصيغة جواب المعتمد على كتاب أدفنش تشى بأنه غطى قضية الحلف تغطية قاصدة ذكية ، وذلك باعتراف مقتضب بصيغته ، مسهب بمكشوف دلالته ، فقد عمد الى الاحتراس فيه عن ذكر الحلف بأى من أسمائه ، فهو فى تعبيره (10) مجرد (مسالمة) قائمة مع خصمه ، وهى باطلاقها هكذا لا تقتضى حلفا ومعاهدة فى جميع الاحوال ،

(10) انظر كتاب المعتمد الى اذفنش ردا على كتابه اليه قبيل موقعة الزلاقة ، ــ الحلل الموشية ، ط الرباط ، ص : 26 وما بعدها .

فقد تتم المسالمة بين الخصماء بصورة تلقائية ، ولمقتضيات ظروف تلتقى عندها مصالح الطرفين الحالية من غير لجوء الى هاك ، وهات ، كما أن اعترافه انصب على مجرد ترك الحزم ، واسلام طليطلة وأقطارها لأعاديها ، رعيا لتلك المسالمة التى أوجبت القعود عن نصرتها ، وكأنه بهذا يحاول أن يقطع الطريق للوصول الى خبيئة الاسرار، فلا يتطرق بعدها الى الاذهان أكثر من أن الاحداث جرت على معهود وتيرتها بين الفرقاء ، وليسبق أيضا الى الذهن أن الخطوة من أذفنش لم يقدر لها فى حساب أو حسبان أنها خطوته الفارعة الحاسمة كما جرى وكان .

وان مما يحمل على الاخذ بتعبير المعتمد القاصد أنه جاء ردا على صيغة كتاب أذفنش ، الذى حرص على أن يغمز ابن عباد (11) بالتنصيص على كلمة (عهد) كان تائما بطرقه المتعارفة فى تلك الأزمان : (ولولا عهد بيننا نحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو ووارده) .

وهو اعتذار أو اعتراف من المعتمد بالادنى ، ولا يخلو من فضيلة ، ولو أنه خرج مخرج التضليل وبصيغة الحياة .

(11) انظر كتابه فى الحلل الموشية ، ط الرباط ، ص : 25 .

والواقع أنه اذا أستثنينا هذه المراشقة فى الكتابين ، فان المصادر العربية قد حفظت ذمام ابن عباد ، وسعت اليه بنور الوفاء ، لما بينها وبينه من المسالمة التى أوجبت القعود عن ذكر هذه المحالفة !!

واذا لم يكن هناك مناص من القول بقيام هذا الحلف ، فان التوطئة له بحيثياته ، كما تحتفل بتسجيلها الرواية النصرانية ، ليست من شأنها أن تصور وجه الحقيقة ، أو تشرف بنا على واقع ظروف المعتمد الحرجات ، وسيظل الانطباع الذى يصدر به القارىء عنها مشوشا بالنسبة الى ابن عباد صاحب الاصالة والملوكية ، ورب تلك المقومات التى برأت منه حسنة الاندلس بلا خلاف .

فما كان الحلف مقايضة بالمصالح عن طواعية واختيار ، وما كان ابن عباد بذلك المتحكم فى تسيير الاحداث ، أو الذى (علت يده على من كان هناك من ملوك الطوائف) كما عبر ابن خلدون فى « العبر » ، حتى يصح فى الحسبان ، ويحسب على الرجل أن الخيرة كانت فى يمينه لو شاء ، فلقد رأينا وسمعنا على هدى التحايل السابق الذى اكتنه خطط الخصيمين ، ورصد حركاتهما وسكناتهما فى معترك ذلك الصراع ، واستوعب وسائلهما وأسبابهما لمحاولة الهيمنة فى الجزيرة على الزمام ،

أنه ما وسع أطراف مملكته وانساح ، الا فى النطاق الذى لم تشمله رعاية الاعداء ، فهو ما يكاد يزيغ عن الحد ـ كما كان منه فى قرطبة ـ حتى تدركه نقمة « أذفنش » لترده على الاعقاب ، ومرد هذه من نواقص المعتمد أو من نقائصه ، الى آفته الكبرى ، وهى أن تركة والده المعتضد ، قد انجرت اليه بما يكتنفها من أشواك ، وفى جيل طبع عليه الضعف المركب على ألوان وأشكال ، فقرت فى نفوس أهله ملوك ورعايا ، هيمنة الاعداء ، وغواية الاهواء ، ولم يلتفتوا الى السماء فغاضبتهم السماء ، ولولا اشراق حضارتهم وثراء لغتهم ، وتدفقها على العالمين بثقافة الفكر والروح ، لذابوا فى الغالب ذوبانا باللغة والذهن ، وبالعوائد والاعمال ، ولقضى ربك فيهم أمره قبل الميعاد .

وفى مقابل ظروف المعتمد كان من حظ أذفنش أن الاقدار رمت به الجزيرة فى أعقاب فاقرتها ، وانطلاق شهوات المآرب فى الرياسة والزعامة من عقالها ، فبدا على هدى مناوراته السالفة ، ذلك الذكى الذى شرب فطنته حتى ثمالتها ، (فشغل بابن عباد) الذاهد للانسياح والامتداد ، وما ونى عن الدب اليه بالضراء ليوهن فيه الفراهة ، ويذيب فى الجزيرة بقية الحشاشة . فاتخذ من مآرب

الملوك والرؤساء عنده قواطع وعـوارض فى محجـة العبـادى صاحب العزمات ، الى أن تضجع فى انطلاقه ، وانحل ما كان معقودا بيده ، وانتاب فراهته مرض الجيل ، فانساق مـع ذلـك القطيـع .

وان الباحث ليتمثلهم من خلال تأتى أذفنش لهذا الحلف وهم على صورة من ألقى بهم فى أخدود من الهوان ، فلا حيلة لهم فى النكوص ، وقد غشوا بيد أنفسهم بصائرهم وأبصارهم لتعمى عن اتجاه أذفنش ، فباتوا وراءه نحو طليطلة يزحفون ، والى تخريب بيتهم يخبون ويضعون .

وتثب الى أذهاننا صور متعاقبـة لطبـيعـة تدخلـه فى الصراع المزمن بين اشبيلية وطليطلة .

كما تمثل فى خيالنا بالحاح مداوراتـه للوصول الى نشر حمايته على صاحب غرناطة (12) وما كان من برودته الصاعقة

---

(12) « الاسلام فى المغرب والاندلس » ليفي بروفنصال ، ترجمة عبد العزيز سالم والاستاذ صلاح الدين حلمي ، ص : 181 .
ـ « المناهل » ، ج : 5 ، السنة الثالثة : مارس ، ص : 363 .
ـ « مذكرات الملك عبد الله ، ص : 74 . ويدخـل معنا ايضـا ما ورد فى الصحائف : 72 ـ 73 ـ 75 ـ 78 ، مـن حيـث ورود فقرات فيها تشير الى أن أذفنش كان يتجنـب المبادرة بالاستيلاء على البلاد ، تلافيا لمواجهة الالتحـام مـع كثافـة السكـان .

ازاء مشروع ابن عمار الذى عرض عليه ذخائرها وأموالها لقاء فسح المجال له فى الانتزاء على أريكتها .

وعلى غرارها من وجه آخر ، كانت حمايته لأبى بكر بن عبد العزيز النائب فى بلنسية لبنى ذى النـــون ، وقد أهطعت الى أذفنش حماية أبى بكر من صولة ابن هود بمجرد حركـــة ساكنة ! ولفتة صامتة ! وتغافل ملغوم ، (13) وسنرى أنه لم يكبر فى عينى أذفنش ثمن الحماية لغاية فرض الجزية ولبسط النفوذ ، وانما كان ينظر الى ريعهـــا المنشود أكبـــر من ذلك وأجدى فى يوم قريب موعود .

وقل مثل ذلك فى اقعائه وراء (14) ابن رشيق مختطـــف مرسية ، والمستطيل بأريكتها على كل من ابن عمـــار المستبـــد بها ، وعلى ابن عباد سيد أمرها وصاحب الشرعية فيها .

وقبل هذا وبعده ، لا يكاد الذهن يتخلص من قصة لعبه مع ابن عمار وتلاعبه به ، وهى القصة التى تعرض علينا رجل العصامية (والفطنة والذكـــاء) (15) ، ومن كان فـــؤاده من

(13) « مذكرات الملك عبد الله » ، ص : 78 .

(14) « الحلة السيراء » ، تحقيق الاستاذ حسيـــن مؤنس ، ج : 2 ، ص : 146 .
– « مذكرات الملك عبد الله » ، ص : 112 .
– « الحلـــل الموشية ، ط الرباط ، ص : 56 .

(15) « المعجب » للمراكشي ، ط : ســـلا ، ص : 74 .

الملوك ، وان كان بلسانه يرى من الشعراء ، غبيا بين أغبياء ، ومضعفا أمام أذفنش فى جملة أولئك الضعفاء ، وقد وضع بيد نفسه الغشاوة على عينيه صنع أولئك الرؤساء ، وغدا أذفنش يتلاعب بلهفته الغرثى الى العلياء ، الى أن أراغه فى شباكه ، وأقام هذا الحلف بلسانه ويده ، وكـده واجتهاده ! !

وان نصوص الحلـف المضروب التى عـادت بـنـا الى استعراض مناورات ومداورات أذفنش ، لتؤكـد بالمعاينـة وبمنطق الاحداث المستقبلة ، أنـه كان يوطـىء بالحركـات والسكنات ، وعلى مدى السنين المتطاولات ، ليتخذ من مناطق المحميات والحليفات ، حلقات طوق كابس ، يلفـه لفـا علـى تراب طليطلة ، ويكفيه عند ساعة الحسم فى أمرها مؤونـة (التكلف والمشقة) ، وذلك وقوفا عند مذهبه فى (المطاولة) ، والتأتى (لنزول الضعف ورقة الحال) ، وبذلك حدثنا الملك عبد الله فى غير ما سياق (16) ، وصدقتـه الاحداث فيمـا مضى وفيمـا هو آت .

وسنرى ونحن نرجع البصر فى خريطة الساحة الاسلامية أن الصورة الراهنة لعملية الالتفـاف حول طليطلـة ، تعرض علينا ممالك وامارات اولئك الرؤساء مناطق نفوذ وتبعية لقشتالة ،

(16) « مذكـرات الملك عبد الله » ، ص : 73 .

واستحكامات تطويق معبأة بالنقمة العارمة على القادر صاحب طليطلة ، وملغمة بأغراض النفوس ، تلك التى لن يثنيها صريخ من القادر ، ولا ابن عبـــاد بذاك الذى يستطيـــع التحكـــم فى الغرائز ، ثم ان الحبل فى يد صاحب طليطلـــة الى انتكـــاث ، وذلك مما يبرد بالهناءة كبـــد ابن عباد الذى أثخن فيه المصاب بولده ، وان النائبة المحومة على أفق بنى ذى النون ، لتهدىء ما به ، وتفسح له فى طريق الاخذ بثأره .

وهكذا تركزت حلقة الطوق الاولى ابتداء من تراب مملكـــة قشتالة شمالا ، ثم انسحب الطوق على بلنسيـــة ابـــن عبـــد العزيز ، ومرسية ابن رشيق شرقا ، ثم انحدر فى العمق جنوبا حتى غرناطة ، وهذه على الـــدوام مخلب القـــط فى مخطـــط قشتالة ، وعليها التركيز فى مضايقات ابن عباد بالمناوشات ، حتى لا تتصل له سيادة فى قرطبة ، وحتى لا تتبســـط لسنابـــك خيله الحدود المترامية الاطراف لطليطلة .

وما غاب عن أذفنش خطر موقع غرناطة ببعده ، وبهينة صاحبه الذى قد تدور عليه دوائر قومه ، فقد عمد الى تأمين ولائه الدائم بحمايته ، عندما فضلها على مشروع ابن عمـــار ، الذى جعل له كنوزها وأموالها فى مقابل اسناده فى الانتزاء على

أريكتها (17) ، ولخير لأذفنش ، وأجدى ، وأضمن ، أن يركن الى ذمة الخروف الصغير عبد الله صاحب غرناطة ، من أن يقتسم مكسبا زائلا مع ثعلب ماكر كابن عمار وزير اشبيلية ، ومن يدرى ؟ فسيطفىء فى هذا الوزير الطموح غلة الطمع فى السلطان اذا ساعده على ذلك المراد ، فالتدبير كل التدبير أن يظل الحبل مرخى له الى ما شاء الله ، وسيظل الخديم المطواع فى تخدير ابن عباد ، والمستعد للضرب فى ظهره ما دامت أطماعه فى غليان .

وكالصبح المنبى ، أقبلت الحوادث تسعى بآيات احتراس أذفنش ونفوذ فراسته ، فاسترد المعتمد قرطبة فجاءة وعلى غرة ، واندفعت سراياه نحو الحدود الجنوبية لطليطلة ، وعلى هدى تحليل سابق ، نعلم أن نهدته انما كانت جموحا تلهبه فورة نفسه ، بنوازع أخذ ثأره لولده ، حتى لكأنه يعيش فى نفس المرحلة التى عانى والده هزاتها ، حين قص جناحه فرذلند ، وأن الرجل انما كان يخبط خبط عشواء ، فدنيا الاندلس كلها يومئذ على غير هواه ، وطبيعة العلاقات مع قشتالة معقودة بمشيئة ابن عمار (وقد اصطفاه العدو (18)

---

(17) « مذكرات الملك عبد الله » ، ص : 72 .

(18) « قلائد العقيان » ، ط : وتحقيق الحرائري ، ص : 94 .

وتهالك فيه كلفا وهياما ، أمطره من الحظوة غماما ، واهتصر منه موادعة وائتلافا ، استدر بهما ملوك أوانه أخلافا) ، ثم ان « التدابر » (19) بين الملك ووزيره يتزايد ، وخلة الصداقة المحمومة تتراءى الآن جانحة الى همود ، فانطفاء يوما بعد يوم .

وناء أذفنش على مملكة اشبيلية فى موسم شحت فيه السماء ، وضرب المحل بجرانه على دنيا ابن عباد ــ كما عرفنا فى أحد الفصول السالفات ــ الى أن استبد به الفزع اشفاقا على رعاياه ، وطاشت نهاه ، كما بدا من ثنايا منشوره المعمم على العمال ، الذى تلوناه قبل صفحات .

وازاء ظاهرة تحديد تاريخ هذه السفارة بسنة 471 واغفال تاريخ سفارة الشطرنج فلا تدرى السابقة من اللاحقة ، فالذى توحى به طبيعة تتابع الاحداث ، هو أن المعتمد قد وجه تحت وطأة هذه الظروف ، وفى معترك هذه المكايدات ، سفارته الى ليون ، التى تقول عنها الرواية النصرانية ان المعتمد بعث ابن عمار (20) لمفاوضة

---

(19) « الحلة السيراء » ، ج : 2 ، تحقيق الاستاذ مؤنس ، ص 144 .

(20) « دول الطوائف » للاستاذ محمد عبد الله عنان ، ط : الاولى ، ص : 72 .

ــ « تاريخ الاندلس فى عهد الموحدين والمرابطين » للمؤرخ يوسف أشباخ ، ج : 1 ، ص : 60 .

أذفنش ، عارضا عليه بنود الحلف على ذلك الوجه المذكور ، وخيل اليه عندها أن سفارة الى ليون لتوضيح عجف الموسم ، والضرب فى النحر بواقع الحال ، مع بذل وعد الاخلاف بمكيال أوفى فى موسم تال ، قد يكون من شأنها أن توتى أكلها عند أذفنش ، فيكف عن الطلب الملح فى الحال ، ويشرئب الى المحصول الموفور فى المآل ، وكأنما ذهل ابن عباد أمام الحرج الملم عما بيته أذفنش ، وأنه المترصد للضائقة ومفتعل الملمة ، وما ألح الجزية ، وانما للاحراج والفتنة ، وجاءت السفارة تسعى الى أذفنش بما قدره ، وبما يحكم به أمره ، فالقنيصة أصبحت على حد الشفرة ، والحلقوم فى لهاث ، وابن عمار ماثل قائم بقسماته الخلقية والخلقية ، فما هى الا حركة الاجهاز ، ولا ينتظر بها غير نهدة الحسم تلقى الى السفير فى كلمات معدودات .

وأمليت على السفير وثيقة الحلف أو العهد كما سماه أذفنش ، وان صيغته وروحه وأهداف بنوده لمنادية على نفسها بأنه من املاء الغالب ، وليس ــ كما تقول الرواية ــ من عروض المغلوب ، وقد قامت فصوله على التغرير بابن عباد ، حين اعترف له بالزعامة ، وباسناده فى اقامتها بمرتزقة

قشتالة ، وذلك طعم السمكة المستجاد ، فلن تــراغ القنيصــــة العبادية بغير شبكة الزعامة ، وخيوط العزمات .

وسوف لا يتبين ابن عباد ما هناك ، وقد يعمى عن مخلب الشص ذى الرؤوس الحداد ، أمام نص الوثيقة الذى يسجــل اطلاق يد أذفنش فى أمر طليطلة ، فذلك أيضا مما يثير نوازع ابن عباد ، ويدنيه من أخذ الثأر ، ويبيت لصالحه فى مستقبل المناطق الجنوبية من أعمال طليطلــة .

وقيل لابن عمار : ارجع الى سيدك بوثيقة الحلف وعهد السلام والامان ، وعد الينــا وأنــت الكاســب المجــازى فى الحال وفى المـــآل !

والمفروض أن ابن عباد سرعان مــا رفت عليــه صحوة الرشاد ، وأفاق من ذهوله فى الحـــال ، فتــولى وعبــس فى الصحيفة وفى وزيره وسفيره ابن عمار ، ولكن أذفنــش الذى تأتى لهذا الحلف بألف حساب وحساب ، وخلق ظروفه بالصبر والتقسيم للقابليات والنفسيات خلال سنين متطاولات ، ورصد مطالعه فى سماء ابن عباد ، وعلى أرضه بألف منظار ومنظار ، ما ودع سفير ابن عباد الا على زمزمة جيشــه الذى ســيره لضرب الحصار على كل من قرطبة واشبيلية من غير امهال .

وليس أمام نزول البلاء بالمسلمين فى العاصمتين مجال للأخذ والرد ، أو مراجعة فى مضمون وثيقة الحلف الكتابية أو الشفاهية ، والحال ما يرى ويسمع ابن عباد .

وهنا قامت ـ فيما يقدر ـ ضرورة السفارة الثانية التى اقترنت بقصة الشطرنج ، وان الواقع الكالح قد فرض موضوعها،فما هى غير (21) (كلمة كسيرة من السفير ، يختار بها أهون السبل لتصريف القضاء ، والنزول عند احدى خطتى خسف يلجىء اليهما الاعداء) .

ولو أتيح أن نزعج ابن عباد بسؤاله عما جرى وكيف جرى ، لكان جوابه من وراء الصفائح والتراب فى تنهدات : وماذا ترانى أختار ؟ انه اختيار بين احتلال كل من قرطبة رمز الخلافة ، واشبيلية عاصمة بنى عباد ، وبين ترك أذفنش وشأنه فى طليطلة ، وقد لا يطمع فى الضم والأخذ ، وانما يكتفى ببسط النفوذ ، ووضع اليد على الخيرات ، وتفيؤ ظل الحضارة ومتع الحياة .

وغرائز الانسان هى هى ، فى كل زمان ومكان ، وعند السوقة والملوك سواء ، فلا غرو اذا مال حظ النفس بابن عباد ، وصدق على تدبير السفير وواقع الحال ، وما كان لو

---

(21) « المناهل » ، العدد التاسع ، القسم الثامن ، ص : 343 .

ملك بسطة الخيـار ، الا رب عارمة وايثار ، وربك بفعـل مـا يشـاء ويختـار .

وهناك ظواهر يستأنس بها متفرقة ومجتمعة فى أن فك الحصار عن العاصمتين انما نتج عن هذا الحلـف بالـذات ، لا عن قصة الشطرنج التى يحكيها المراكشى باعتداد .

فمن ذلك ـ وهذه قد أشير اليهـا فى معـرض سابـق باقتضاب ـ أن مؤرخى أذفنش ، قد جعلوا من سنة 1078 م ـ 471 هـ ، بداية تحركه العسكرى نحو طليطلة بعد انهـاء تحركه السياسى ، وهذا يعنى عنـد من استقـرى حركاتـه وسكناته ، ومذهبه المعروف فى مصابراته ، أنه مـا أخـذ فى حشد العدة والمؤونة ، وأقدم على التخريـب بالغـارة تلـو الغارة ، الا بعد أن آمنه الحلـف الذى أقـام سلامـا بـين الطرفين ، وأصبحت معه حدود طليطلـة الجنوبيـة منطقـة أمان ، وكبرى حلقات الطـوق الذى يديـره عليهـا باحكام ، ولا تعتبر الحدود الغربية المصاقبة لمملكة بنى الأفطس بذات خطر ، يحول دون خطاه ، ان هى شدت عن هـذا الطـوق ، وجنح صاحبها الى الشنآن ، فابن عبـاد المسالم بالمرصاد ، وسيفرغ بهذا الحلف لممارسة الحركـة العباديـة التقليديـة

بالغارة على حدود بطليوس ، وشل حركة صاحبها عن كل بادرة ينهد اليها لانجاد القادر ، والتصدى للقاء جيش قشتالة الهادر .

والظاهرة الثانية تطلع علينا أيضا بها سنة 1078 م — 471 هـ ، فليس من الصدفة فى شىء ، أن يبتدىء أذفنش غاراته التخريبية على تراب طايطلة بعد ما أعلن أبو بكر بن عبد العزيز استبداده ببلنسية ، اثر احتمائه بأذفنش ، وأصبح لطليطلة خصما راصدا فى شرقها حسب ترتيبات قشتالة،وفى نفس الظرف الذى عزم فيه ابن عمار أمره على الخروج على المعتمد بن عباد والاستبداد فى مرسية ، وان الكلمات المتبادلة بين المعتمد وبين ابن عمار القائد الفاتح يومئذ ، عندما أخذ يسير اليها الاجناد ، وساق الجنائب ، وشد الرحال ، وبدت على وجهته نحو مرسية أمارات خيانة رب الدار ، لتعتبر رباطا قائما بين الحدثين الهامين : الجلاء ، والحلف ، وفارقا عازلا بين قصة الشطرنج وبين الجلاء ، ولنتذكر (22) كلمة ابن عباد عندما قام بين يديه وزيره وقائد جنده الى مرسية عند الوداع :

— سر الى خيرة الله ، ولا تظن أنى مخدوع .

ثم قولة ابن عمار :

(22) « الحلة السيراء » ، تحقيق الاستاذ حسين مؤنس ، ج : 2 ، ص : 140 .

ـ لست بمخدوع ، ولكنك مضطر .

وهو استنسار ينم على أن القائد اليوم والسفير بالامس ، قد عمل على تضخيم مخاوف سيده ، اما بتهويلها ، أو بتركه لارتباكه أمام استغلاظها ، وبموقفه فى الحالتين ـ ولا بد لمهيمن على الشؤون ، كابن عمار من موقف ـ قد دفع بسيده الى المنعرج الخطير ، حين سد عليه فجاج الخروج من حرزه ، فظل رهين مشيئته فى ما أبرم باسمه ، وفى ما استصفى لذات نفسه ، بعدما أسند ارادته بارادة أذفنش ، حاسبا أن حظوته لدى القشتالى الماكر من براءة النفوس ، وأن موادعته تميمة تنفع فى الانتزاء على الرياسات وفى خيانة العروش .

وان هذا الجواب المتنمر من ابن عمار ليغرى الباحث بأخذ فقرة الرواية النصرانية عن الحلف بأقصى دلالاتها حين تقول : (ووهب ألفونسو ابن عمار منظم هذه المعاهدة خاتمين ثمينين جزاء جهوده) .

ويمتد فى يد الباحث حبل الرباط بين الحلف وبين الجلاء .

ويتضاءل خيط الربط بين حكاية براعة ابن عمار فى الشطرنج ، وبين حادث الجلاء ، حين نقع على قصة عند ابن

خاقان (23) وابن الأبار (24) ورد فيها ذكر خاتمين ثمينين فى معرض غمز ابن عمار والتندر به ؛ وكان ذلك ـ كما ينقل ابن الأبار عن تاريخ أبى بكر محمد بن يوسف بن قاسم الشلبى ـ تعريضا بما أقدم عليه ابن عمار حين دخل مرسيـة (وجلس فى اليوم الثانى مجلس التهنئة للخواص والعوام ، فسجعت الشعراء بأمداحه ، وقد تزيى بزى ابن عباد فى حمل الطويلة على رأسه ، وحاكاه فى التصيير (25) ، وكتب : « ينفذ هـذا ان شاء الله » فى أسفل قرطاسه ، وتختم فى كلتا يديه) .

ويقفى ابن الأبار على هذه التوطئة برواية أخـرى ، فيحكى أن ابن طاهر (أبا عبد الرحمان صاحب مرسية الذى انتزى عليه ابن عمار وفجعه فى رياستها) ، هو الذى غمـز على رسول ابن عمار المعلم بخاتميه ؛ وأنه نسب أحدهما للمؤتمن ابن هود ، والثانى « لأذفنش » بن «فرذلند » .

وتعتبر هذه المرويات عن ابن الأبار مؤكدة لاقتضابات ابن خاقان ، وهو يتحدث عن أبى بكر بن عبد العزيز صاحب

(23) « قلائد العقيان » تحقيق وطبع الحرائري ، ص : 72 ، ترجمة الرئيس أبي عبد الرحمن ابن طاهر .

(24) « الحلة السيراء » ، ج : 2 ، ص : 141 وما بعدها ، تحقيق الاستاذ حسين مؤنس .

(25) التصيير عند الاندلسيين هو ما يقابل التوقيع السلطاني فى اصطلاح المشارقة ومغاربة عدوة المغرب .

بلنسية ، فيقول عنه : (وبلغه أن ابن عمـار تختم بخاتمين أحدهما للمؤتمن ، والآخر لأذفونـش (26) بن فرذينـاند ، فأومأ فى ذلك الى ابن عبد العزيز (أبى بكر صاحب بلنسية) ورمز ، وألمز على رسوله المعلم بذاك وغمز ، فاما بلغ ذلك ابن عمار أقلقه ، وضيق فى التماسك طلقه ، فكتب الى ابن عبـد العـزيـز :

قل للوزير وليس رأى وزير أن يتبـع التنزير بالتنديـر

ان الوزارة لو سلكت سبيلها وقفت على التعزيز والتوقير

وأرى الفكاهة جل ما تاتى به رحماك ! فى التصدير والتظفير

وصلت دعابتك التى أهديتها فى خاتـم التأمين والتأمـير

وأظنها للطاهرى فان تكـن فخليقة التقديس والتطهـير

---

(26) يلاحظ ان بعض مؤرخينا يرسمون « اذفنش » تارة بالواو بعـد الفاء ، وتارة بغير واو ، وتارة بذال منقوطـة ، وتـارة بـدال يابسة ، وتارة يرسم هكذا « الفونش » بالشين المعجمة ، كمـا فى مخطوطة « التبيان » (مذكرات الملك عبد الله) ، وكذلك الامر بالنسبة الى والده « فرذلند » ، فبعضهم يرسمه : « فرذيناند » بالدال يابسة او منقوطة ، كما هنا عند ابن خاقـان ، والاكثـر يرسمها « فرذلند » ، وقد جرينا فى هذه الفصول على رسمها كما هي عليه فى النصوص المنقولة ، وذلك أصل اختلاف رسم هذين الاسمين فى هذه الفصول ، ويلاحظ ان الرسم العربي فى كلمـة « اذفنش » ، أقرب الى النطق اللاتيني الاصلي : « أدفونشى » من « الفونسو » كما يرسمها وينطقها الاسبان المحدثون .

ولعل يوما أن يصير نقشه في طينة التقديم والتأخير
وترى بلنسية وأنت مدارها سينالها التدمير من تدمير

وقد نقل ابن الأبار عن أبي الطاهر التميمي نفس هذه القطعة مع زيادة هذا البيت في آخرها :

فرسا رهان أنتما فتجاريا لتقول في التقديم والتأخير

وابن عمار ، يشير في هذا البيت الى أن كلا (27) من ابن عبد العزيز وابن طاهر قد غمزه بالخاتمين ، ولا يهمنا تحقيق وتعيين المتندر ، فالذي يهم من كل هذا المنقول ، انما هو الاشارة الى أن قصة الخاتمين قد كان لهـا شيوع ، ثم الالتفات الى المعنى الذي يشير اليه التندر بخاتم أذفنش ، كما يهم من القطعة الشعرية ورود كلمات (خاتم التأمين والتأمير) في بعض أشطارها ، وكلها بوادر تغرى باقامة ربط

(27) ان تندر ابن طاهر تدفع اليه طبيعة الحال ، لانه تندر انتقام من ابن عمار الذي فجعه في رياسة مرسية ، وقد كان أوى الى بلنسية مستظلا بصداقة صاحبها أبي بكر بن عبد العزيز الذي عمل على تخليصه من سجنه ، وفوت على ابن عمار مأرب البطش به ، وهو أيضا الذي عمل على تطيير شعر ابن عمار المقذع في المعتمد وعشيرته ، فالتندر طبيعي من الضيف الناقم المعروف بفكاهته ، حتى في أحرج ظروفه ، ومن مضيفه ومجيره ابن عبد العزيز الذي يتوعده ابن عمار في القصيد .

بين هذا الخاتم المتندر به ، وبين الخاتم الذى قالت الرواية النصرانية ان « أذفنش » أهداه الى ابن عمار جزاء جهوده ، وعلى كل حال ، فان لم يكن خاتم قصة التندر من معدن خاتم الحلف وصلبه ، فانه يدخل فى اطار صلات مشبوهة لابن عمار . وتكاد تنتصب شبهة على قرابة بينها وبين الحلف وبين فك الحصار .

ومن جهة أخرى ، فان القول بدخول لعبة الشطرنج فى ذلك التاريخ المبكر ، الى شمال اسبانيا أو غيره من بقية مناطق أوربا النصرانية ، لما يجافى الحقيقة التاريخية .

وأيضا ، فان فى بنية قصة الشطرنج ما يكاد يدعو الى الريبة ، فان الباحث حينما يتجرد من العاطفة التى تأخذه سورتها مثلما أخذت كلا من المؤرخين المراكشى ودوزى ، على اختلاف مناط التأثر بين الرجلين ، فسيبدو له أن مدارها ركز تركيزا على الاشادة ببراعة ابن عمار ، التى كانت لها نتائجها الباهرة ، وأن حظ « أذفنش » فيها من الاشادة والاعتبار ، قد كان مقصودا من اشاعة القصة بالذات ، وان لم ينتبه اليه راويها المراكشى ، الذى ألهاه فك الحصار ، ورفع البلاء عن كل انتباه ، فى حين أن دوزى بالرغم عن

علمانيته ، قد شاقه أن يظهر الملك النصرانى فيها بمظهر ملوك السماحة ، وبالمقومات الخلقية والفكرية ، حتى لا يطغى عليه بهاء ذكر ابن عباد فى المقام ؛ وتلك نزعة صليبية نعرفها عند مؤرخيهم ، الذين لم يتحرجوا من وصف « فرذلند » والد « أذفنش » بالتقى والورع ؛ مع ما عرف به من نزعته الدموية وقسوته وفظاعته ؛ وبقره لبطون الصبايا والحبالى ، واسترقاق الأسارى .

وأود أن أقول ان القصة تعرض علينا ملك قشتالة — وان جنح بطبيعته فى بداية الامر الى النكوص عن عهده الذى أعطى اذا ظهر عليه ابن عمار — فانها عرضته فى آخر المطاف فى اهاب الأناسى ذوى المروءات ، وفى جبة العربى المجبول على تقاليد النخوة ، وسماحة المكرمات ، وذلك يجانف حقيقة أمر سكان شمال الجزيرة فى تلك الأعصار ، فقد كانوا مقدودين ملوكاً وسوقة من نواتىء صخور جليقية ، ومن سهوب قشتالة الجرداء ، ومظهرهم ومخبرهم فى ذاك سواء ، ولا يتمثلهم الباحث على هدى مناكرهم فى اخبار صراعهم مع العرب ، وعلى ضوء ما دون عنهم أهل ملتهم بالذات ، الذين يهجنونهم بكلال الحد ، وغلظ الحس وبالثغارة ، ويعرضونهم فى جلود

الوحش وفراء الدببة . . . لا يتمثلهم ويته ورهم غير قطعان من الخنازير أو الفئرة ، أو ثيرانا خطرت فى هياجها الى ساحات المصارعة ؛ ودع عنك ما توحى به صور زيتية لبعض ملوكهم القدامى ، تلك التى تزدان بها قاعة متحف « البرادو » ، بما يتلألأ فى عيونهم من وجاهة ، وما تشع به أناقتهم من مروءة ، فذلك انما هو من اشراقة امتزاج وانسجام الالوان ، وتركيز الانحناءات ورفات الظلال . ومن عطاء عواطف المصور (المفن) ولا مراء ، وما هى بمنطبقة على أهل قشتالة تلك الأزمان ، فأين يا ترى « أذفنش » من مرونة الذهنية الرياضية التى توحى اليه بالوقوف عند كلمة الشرف ، والتحلى بسماحة الأبطال ، حين يظهر عليهم منافسوهم فى سباق ؛ ولو على ساحة رقعة الشطرنج ، كما هو واقع الحال .

وحيا الله المعتمد بن عباد فى الغى وفى الرشاد ؛ ويوم كانت تهزه خلجة الضمير الى المكرمات ، ويوم تعطلت فيه فغوى عند استغلاظ الحادثات ، فلن يخطر لمخيلة متخيل فى غير جبة الديباج ، وبالطويلة على هامته ، تلتمع فيها الزمردة اللازوردية ، وكأنها اشراقة من السماء .

وبعد كل هذا ، فلا داعية لانكار قصة الشطرنج من الاساس ، ذلك أن الباحث يجعل دائما نصب العين أن أهداف « أذفنش » من هذا الحلف ، تقوم ــ كما وضح مما تقدم ــ على تأمين الحدود الجنوبية لطليطلة بالذات ، وبالسلام لا بالحرب ، فهو ضنين بالرجال والاموال ، متحاش لكل صدام وقتال ، ولا أرب له فى أخذ بلد (28) اذا كان يتعذر تعميرها بأهل ملته على موفور اطمئنان ، ثم ان الانتصار فى الحرب صدفة ، وقد تكون لها عقابيل تعرقل خطته فى الوصول الى طليطلة ، فالتراب الاسلامى ــ على ما عليه رؤساؤه ــ ليس ببارد كما يبدو لأول واهلة ، وان الفرصة لسانحة فى عملية الضغط على المعتمد بحصار العاصمتين ، وفى عملية جر سفيره الى مأربه فى الجلوس على أريكة السلطان .

وبهذا فالمنتظر والمتوقع لسفير اصطفاه «أذفنش»،على حد تعبير ابن خاقان ، وأضفى عليه لقب رجل الجزيرة بعد أبى بكر بن عبد العزيز ، كما يقول ابن بسام ، وألقى بيده المعتمد زمامه ، واتخذ منه دريئة تقيه رجس الاتصال بالاعداء ، وتدفع عنه أدران مثل هذه الضرورات ، حتى انه (قد استمال النصارى ، واندخل معهم بحيله ، فمنى ما دهم أمر من قبلهم ، وجهه

(28) « مذكرات الملك عبد الله » ، ص : 73 .

اليهم فينجلى من أمرهم ما يضيــق الصدر بــه) (29) ، ان المنتظر لهذا السفير والحقيق به ، وهو الذى بت فى مصــــير الموقف المعلق بين الحرب والسلام ، فصدق على بنود الحلف المعروضة على سيده بالتمام والكمال . . أن تحتفل قشتالــــة لسفارته بكل اهتمام ، وأن يجــازى على جهــوده بالخاتمين الكريمين ، وأن يخلى بينه وبين مرسية ، وأن ترفع الكلفـــة بينه وبين ملك قشتالة ، فتنصب لهما رقعة الشطرنج ، وتحتك البراعتان ساعة من زمان ، معدودة الدقائق ، ولكن ، لا عد لما نتج عنها خلال دهور وأزمان ، وما كانت البراعتان المشتبكتان غير تعبير عن المصلحتين القائمتين تتجافيان عن اللعب بالنــار على مشارف قرطبة واشبيلية ، لتتلاقيا على اللعب بالشاه ! !

وظهر ابن عمار فى اللعبة ، وقيل وأشيع أن « أذفنش » قد فك الحصار عن العاصمتين ، نزولا عند كلمــة الشرف التى أعطاها حين قبل الرهان ، أما أن فك الحصار جــاء نــتيجــة التصديق على الحلف من طرف سفير ابن عباد ، فذاك ما قصدت جمــيــع الاطــراف اخفــاءه ، الا عــن الصــمــيــم مــن الخلصاء ، وكانت هذه لعبة أخرى على الأذقان ، بعد اللعبــة بالبياذق سواء بسواء ، فما هى الا تغطية نافعة « لأذفنش »

(29) « مذكرات الملك عبد الله » ، ص : 81 .

فى وقت لم تنفعه التغطيــة على شــاه الشطرنــج ، فبــاء بالخسران ، ونافعة أيضا للمعتمد وللسفير ابن عمار .

ووجه المنفعة فيها « لأذفــنــش » أن اشهــار الحلف الذى سينتثر معه سلك الجزيرة من الوسط ، ان يومن معــه قيام هيج (30) على ابن عباد ، واندلاع الثورة عليه بريــاح الأحقاد ، وسرعان ما تنقلب الرقعــة الاسلامية فى الجزيــرة كلها الى ثوران ، ويصير حبل الطوق الملتف على طليطــــلة الى انــتكاث ، ولا يعلــم الا الله الــى أى مــدى ستحــول الــحــــال .

وما شذ منطق الكنيسة عن منطق « أذفنش » ، فقــد تصاممت عن خبر الحادث فلم يصدع به غير المتأخرين واللاحقين فى الرواية النصرانيــة .

وأما منفعة المعتمد فى اسدال الستار على خفايا اللقاء ، فقد كانت بالنسبة اليه أنجع تدبــير لــدرء نتمــة رعايــاه ، وللحفاظ على سمعته الدينية ، ولصيــانة مكانتــه الملكيــة ، ومداراة لضميره ، لو كانت تنفع مداراة الضمائر ، أو جاز أن

(30) « الهيج » : كلمة فى اصطلاح الاندلس ، تعني ثــورة الشعــب علي حاكمــه .

ينفخ فى طوايا بنى الانسان ، بما يطفىء جمرة التبكيت اللاهب فى غيابات النفوس والأذهان .

وأما ابن عمار ، فربما كان الموحى باسدال الستار ، والمطير لقصة الشطرنج ، التى قامت على الاشادة ببراعته ، والابانة عن دالته على ابن عباد ، وعلى اشهار فضله فى رفع ما نزل بالمسلمين فى العاصمتين من بلاء ، وقد كان يعلم حق العلم أنه الوزير صاحب الأمر ، والضارب على يد ابن عباد ، والسفير الذى تولى اقامة الحلف كما يهوى ويشاء ، ويعلم أن سيده نفسه المحظى عند رعاياه ، اذا جاز أن تترفق به نقمة الناس ، فلن يتربع بعدها فى أريكته الا على احتراس ، وأما ابن عمار ، فلن تنبض له بعدها أنفاس .

وهكذا لم يكن من مصلحة ابن عمار غير التمسك بالصمت المطبق ، وغير الاحتفاظ بالسر مكنونا ، حتى خلال المرحلة التى طاش عندها حظه فى امارة مرسية ، وحين تقطعت الاسباب بينه وبين اشبيلية ، ونذت عنه مقذعته فى ابن عباد ، وفى حظيته اعتماد (31) ، فلم يطم على لسانه ما يشى بما حصل وكان ، وكأنما ظل يحتفظ بالسر ليقيم عليه جسور العودة الى قواعده

(31) راجع قصيدة هجائه فى مخطوطة : « الذخيرة » لابن بسام ، (قسم غرب الاندلس) لدى ترجمة أبي بكر بن عمار — وفى الجزء الثاني من : « الحلة السيراء » لدى الترجمة أيضا .

عند مولاه ، وليقايضه الكتمان الدائم بالعفو عما بـــدر منـــه وجـــرت بـــه الأقـــدار .

ولكن ابن عباد كان يسمع ويرى نامات خوالج سفيره ، ويشعر بالاضطراب فى نبضات قلبه ، غير أن تفكير الملك الشاعر فى ما جرى ، أصبح يضنيه ويهد من كيانه ، ويقيم فى خياله سفيره ماثلا بعجره وبجره ، وحين تأخذه سورة النـــدم على ما فرط منه ، من ابرام العهد ، ووضع اليد فى اليد ، يرى أنه ضل وغوى ، وجاء شيئا نكرا ، وعندما تخف وطأة الندامـــة على مشاعره ، يرى أن تصديقه على عمل سفيره ، ما كـــان الا عين التدبير ، والمخرج الوحيد لانقاذ مـــا يمكن انقـــاذه ، مع المحافظة على أرواح ومقدرات المسلمين ، وبين هذا المـــد والجزر الذى كان يتعاقب هادرا فى ضميره وأعصابه ، شـــاخ الرجل قبـــل الأوان ، وصنعت الفاجعة بشبابه ونضارته مـــا صنعت بالمعتضد والده ، يوم جرحه « فرذلند » فى شممـــه وكبريـــائـــه .

وان الباحث ، وهو يشارك الملك الشاعر ضراءه ، ليكـــاد يلمح الخطيئة غير المغفورة من خلال مخيلـــة المعتمد ، وقـــد تشبحت فى صورة ابن عمار ، ثم اذا هى تلح عليه فى اليقظة والاحلام ، فلا تريم عنه لحظة من ليل أو نهار .

وقد عنى المؤرخون قدامى ومحدثون ، بذكر أسباب بطشة المعتمد بصفيه وخليله ووزيره ابن عمار ، فمنهم من اقتصر على قضية خيانته بالاستبداد فى مرسية ، وانفرد الملك عبد الله فى كتابه « التبيان » (مذكراته) ، بذكر أخرى ، فقال : (ان ابن عمار كان بفسوقه يتكبر على أولاد المعتمد ، ويضيق عليهم ، ويسىء الصنيعة مع من يجب عليه اكرامه من قرابة سلطانه) ، ومنهم من جمع بين خيانة الاستبداد ،وبين هجر شعره فى سيده المعتمد ، وحظيته اعتماد .

وازاء هذا التعداد ، أتساءل : ألا يصح فى مثل هذه الفصول عن قضية المعتمد ، التى تسجل محاولة لفهم تاريخ ملوك الطوائف على هذا الوجه الذى سايره القارىء ، أن نضرب بسهم اخر فى اللعبة ، ونقحم هنا داعيا آخر لبطشة المعتمد بخليله ، على أنه احتمال لا فكاك منه ، وأعنى أنها كانت من ابن عباد بدافع الانتقام من ذلك الوسيط الذى باشر ما كتب فى صحيفة ابن عباد الى يوم المعاد ، والذى كان الوسيلة التى لولاها ما كان للمعتمد فى ذلك الحلف يدان .

وهكذا ، فبهذه الرؤية أستجلى صورة النهاية الاليمة

لابن عمار من خلال ما روى صاحب المعجب (32) باسهاب ، واسجلها فى هذه الفقرات باقتضاب .

ففى تلك الليلة البهماء التى لـم يصـغ فيهـا المعتمـد للحن ، ولا راقه صوت ، ولم تكتحل جفونه برقاد . وانمـا اكتحلت بدائرة سوداء ، انتفض فجأة لمـرأى الشبـح الـذى عهده ماثلا فى الخاطر ، لا فى العيان ، وما هى الا أن رفـع وجهه من بين راحتيه ، واندفع تجاه دهليـز منتبذ على باب القصر ، وبين يديه عبيد الدار بحملون القناديل والشموع ، ولضوئها الباهت ارتعاش على وجه ابن عباد ، فبـدا كالحا ، منتفخ الاوداج ، منبهر الانفاس ، حتى لكأنه تقمص ملامح والده المعتضد عباد ، المتعطش الى الدماء .

وفى الحين ، سمع نواح مزلاج باب الدهليز ، ودلـف المعتمد وخدمه على رشقة الشعاع ، وصرير رتاج الباب ، فلاح ابن عمار هيكلا تعرقه الأسى ، وغاض ماء الذكاء من عينيـه ، وأحـنت رقبتـه سلاسـل أخـذت ترتجـف على ساقيـه ، وأدركـه هـول الموقـف بلمحـة من ذكائـه الوقـاد ، وعرف ما هناك ، فأخذ يحبو الى مـولاه والعـين دامعـة ، واللسان متهدج بالضراعة ، ولكن المعتمد بن عباد لـم يعرف فى

(32) « المعجب » ، ط : سلا ، ص : 71 وما بعدها .

هذا المتطارح على قدميه ، خله الشاعر الذى أروى بروايتـه
غلته فى القرب وفى البعاد ، ولا وزيـــره المفضـل فى شلـب
الفيحاء ، ولا نديمـه الظـريف فى ليالى قصر السراجيـب
الـحـمـراوات ، ولا سفـيـره الأثـيـــر صاحـب
البراعـات ، وانمـا رأى فيـه ذلـك الشـبـح المـرعـب
الذى ثوى بخاطره ثعبانا رهيبا ينفث فى أعصابه السم الزعاف
ليل نهار ، ولم ينشب المعتمد أن زفر بغيظ ، وابتسم ابتسامة
الحنق ، ثم تناول طبرزينا ، وهوى به على الشبح ، وعلى سر
الحلف الذى حسب انه انطوى معه الى الأبد .

وعندها صكت باب الدهليز هبة ريح ، انطفـأت لهـا
الشموع والقنـاديـل .

ولكن روح ابن عمار ! لم تنطفىء بعد ! فما زال به رمق
من حياة على هذه الصفحات ، فسنلتقى بـه فى فصل تـال ،
وهو متلبس باحدى مخازيه التى تعد عليه من كبائر الزلات ،
وسيحملنا خبرها فى طريقنا الذى سنسير فيه مع « أذفنش »
الى طليطلـة ، مثلمـا واكبنـا والـده « فرذلنـذ » الـى
« قلمرية » فى مملكـة بطليـوس .

(يـتـبـع)

الـربــاط عبد الرحمن الفاسى

حل مشكلة تتصل باسم وعصر مؤلف
"الروض المعطار في خبر الأقطار"

محمد المنوني

مـــدخـــــــل :

اسم المؤلف : محمد بن عبد الله بن عبد الله — مرتين — بن عبد المنعم بن عبد النـــور الحميري .

اما كتابه فهو معجم جغرافى يذكر المدن والقرى وما اليها ، ويصنفها حسب الترتيب الابجدي المشرقى وقد تناول المواضع والبقاع فى قـــارات الدنيا المعروفة آنـــــذاك .

والمؤلف يذكر — فى افتتاحية الكتاب — خطته فى التاليف ، فيشير الى انه اختار ذكر المواضع المشهورة عند الناس ، والاصقاع التى تعلقت بها قصة ، او كان فى ذكرها فائدة . . . فصار الكتاب — لذلك — يشتمل علـــى فنيـــن :

ذكـــر الاقطار والجهـــات .

مع الوقائع التاريخية التى تتصل بهـــا .

وحرص — فى عرضه — على الاختصار ، وحذف — لذلك — ذكر المسالك والمسافـــات .

وتكمن اهمية الكتاب فى احتفاظه بالمعلومات التى يستقيها المؤلف من كتب ضائعة ، او فى مشاهداته وارتساماته ، وما سوى ذلك فهو ترديد لكلام الجغرافيات العربية المتعارفة ، وهى ظاهرة لمح لها حاجى خليفة (1) ، فذكر ان مؤلف الروض المعطار جمع فيه لـــب كتب عديدة .

ولا يزال معظم الكتاب مخطوطا ، وتتعدد — بالمغرب — نسخ النصف الاول منه فى مجلد ينتهى آخر حرف الزاي .

وأول هذه النسخ : مخطوطة خ. ع. ق. 238 ، فى 295 ص من القطع الكبير ، بخط مغربى مستحسن واضح ملون مجدول .

وهذه هى المعتمدة فى عنوان الكتاب واسم المؤلف الواردين فى صدر هـــذا المقـــال .

الثانيـــة : نسخة م. م. 5211 بخط مغربى متوسط ، وهى مبتورة الاول .

الثالثـــة : م. م. 5943 ، بخطوط مغربية متنوعة لا باس بها على العمـــــــوم .

وهذه مع سابقتها مكتوبتان فى قطع متوسط غير مرقم ، كما ان النسخ الثلاثة خلت — جميعها — من تاريخ النسخ واسم الناسخ .

اما النصف الثانى من الكتاب ، فيوجد بقسم الافلام : خ. ع. رقم 2 ، وهو مصور — على الشريط — من نسخة مكتبة عارف حكمت بالمدينـــة المنورة فى 212 لوحة ذات صفحين ، حيث يستوعب مجموعها النصـــف الثانى ، ابتداء من آخر حرف الزاي لياتى — بعده — حرف السين . . . والكل مكتوب بخط شرقى نسخـــى مليـــح .

وقد أنتخب المستشرق الفرنسى آ. لافى بروفنصال المواد الاندلسيـــة من الكتاب ، ونشرها — على حدة — بعنوان « صفة جزيرة الاندلس » ،

---

1) « كشف الظنون » ، تصوير مكتبة المثنى ببغداد ج 1 ع 920 .

بعناية مطبعة ((لجنة التاليف والترجمة والنشر)) بالقاهرة سنة 1937 م ، في 200 ص عدى المقدمة والفهـــارس .

كما قام بترجمة هذه المنتخبات الى الفرنسية ، وصدرها بمقدمة باللغة ذاتها ، ونشر الجميع — مع التعاليق والفهارس — فى ليدن سنة 1938 .

***

والى هنا يصل بنا المطاف الى تحديد هوية مؤلف الروض المعطـــار وعصره ، وهى نقطة لا تزال بحاجة الى دراسة ، وفى هذا الصدد يسجل مؤلف ((تاريخ الادب الجغرافى العربى)) (2) .

((انه يرتبط بالتاريخ الأدبى للروض لغز كبير لا يزال ينتظر الحـــل المقنـــع الشـــافـــــى)) .

كما ان مؤلف ((الجغرافية والجغرافيون فى الاندلس)) (3) يقول فى الاتجاه ذاته : ((وقد جهد فى حل هذا المفصل ثلاثة من المستشرقين ، هـــم جودفر وآدي مومبين ، وجاستون فيت ، وليفى بروفنسال)) .

ومرد الاشكال فى هذه النقطة يرجع الى الخلط فى هوية المؤلف ، وفى تاريخ الفراغ من التاليف ، وثالثا : فى اعتماد نص الطبعة القديمة لكشف الظنون دون تمحيص ، وقد تورط فى الاوهام الثلاثة الاستاذ ليفى بروفنصال فى مقدمة الترجمة الفرنسية للكتاب .

فذهب الى ان المؤلف هو المترجم عند ابن الخطيب فى مختصر الاحاطة باسم محمد بن عبد المنعم الصنهاجى الحميري السبتى ، المعروف بابـــن عبـــد المنعـــــم .

ويلاحظ على هذا الرأي ، أن صاحب الروض لما يذكر سبتة لا تقع منه أدنى لفتة تشف عن اتصاله بهذه البلدة .

---

(2) الترجمة العربية ص 447 .
(3) ص 530 .

هذا بالاضافة الى انه لم يرد فى ترجمة ابن عبد المنعم السبتى (4) اية اشارة لاشتغاله بالجغرافية ، فضلا عن التأليف فيها .

واكثر من هذا وذاك وجود نص يحدد اسم مؤلف « الروض المعطار » وعصره وبلدته ، ضمن ترجمة قصيرة وردت هكـــذا .

« ابن عبد النور » : محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور ، الشيخ العلامة المتفنن ، ابو عبد الله الحميري التونسى ، كان من صدور العدول المبرزين ، أخذ عن القاضى ابن زيتون وغيره ، الف تصانيف جليلـــــــــة :

اختصر تفسير الفخر الرازي ، سماه : « نفحات الطيب فى اختصار تفسير ابن الخطيب » : سبعة أسفـــار .

له تقييد على الحاصل فى سفريـــن .

و « الروض المعطار ، فى أخبار الاقطار » فى سفرين . . .

لم اقف على مولده ، ووفاته ، قال ابن فرحون : وكان حيا عام ستة وعشريـــن وسبعمائـــة » .

هذا هو المهم من ترجمة الحميري الواردة فى مخطوط طبقات المالكية ، لمؤلف غير مذكور ، كان يعيش الى اواخر المائة الهجرية العاشرة ، حسب مصورة منه خ. ع. رقـــم 9 من قسم الافلام لوحـــة 380 .

واصل هذه الترجمة عند ابن فرحون (5) ، غير ان الجديد بالمخطوط المشار له هو اضافة الروض لمؤلفات الحميري .

---

4) ترجمته فى « مختصر الاحاطة » : النصف الثانى ، حسب مصورة خ. ع. د 1582 ، مع « بلغة الامنية ومقصد اللبيب » ، نشر وتحقيق محمد ابن تاويت فى مجلة تطـــوان : العدد التاسع ص 175 — 176 ، وثالثا عند السيوطى فى « بغية الوعاة » ، مطبعة السعادة بمصر ص 69 .

5) «الديباج المذهب » مطبعة المعاهد بالقاهرة ص 337 ، ومن الجدير بالذكر ان عام 776 الوارد عند ابن فرحون حيث كان الحميرى بقيد الحياة ، قد تصحف فى مخطوط « طبقات المالكية» بعام 626 ، وهو سهو واضح ، ولذلك وقع اصلاحه فى النص المنقول عن هذا المصدر واثباته على الصواب .

ومما يصحح توقيت ابن فرحون لعصر هذا المؤلف ، وجود اشارات بالكتاب لبعض الاسماء والاحداث ، أواخر المائة الهجرية السابعة او صدر الثامنـــــة .

فهو يذكر اسم محمد بن يوسف ابن الاحمر مؤسس مملكة غرناطة (6)، وقد توفى عام 671 هـ — 1272 م .

ثم يشير سقوط جزيرة منرقة (7) ، وكان ذلك عام 686 هـ — 1287 م وعند مادة ايلة ذكر تاريخ « قبل العشرين وسبعمائة » (8) .

وهكذا نتبين — من هنا وهناك — أن وفاة المؤلف وقعت بعــد السبعمائة ، وبالتالى نتأكد أن توقيت حاجى خليفة (9) وفاة الحميري . بعام 900 تعرض — دون شك — للتصحيف بدلا عن سبعمائة ، اعتبارا بـــان هذا المصدر ذكر تاريخ الوفاة وجه التقريب .

***

والان ننتقل الى الوهم الثانى الذي وقع للاستاذ بروفنسال فى هذا الموضوع ، وقد سرى اليه من فقرة وردت آخر مخطوط تنبكتو من الـــروض وجـــاء فيهـــا :

« هذا آخر الجزء الثانى من الروض المعطار . فى خبر الاقطار ، (للشيخ) الفقيه العدل : ابى عبد الله محمد بن عبد الله بن ابى محمد عبد الله بن (عبد المنعم الحميري) ، رحمه الله ، وبتمامه جميع الكتاب ، فى صبح يوم الجمعة ، السابع عشر من شهر صفر (الخير) ، احد شهور سنة ست وستين وثمان مائة بساحل جدة المعمور ، وفرغت من تقييده (يوم عاشوراء) ، لعام 1049 . . على يد . . ابراهيم بن يحيى بن ابراهيـــم الاقـــــــاوي . . . » » .

---

6) « صفة جزيرة الاندلس » ص 12 .
7) المصدر السابق ص 185 .
8) مخطوط خ. ع. ق. 238 ص 79 .
9) « كشف الظنون » ج 1 ع 920
9 ك) كـــذا

وقد فهم الاستاذ المشار له من هذه الفقرة ، ان سنة 866 هـــي تاريخ تاليف الكتاب بمدينة جدة ، على حين ان المؤلف يذكر بحلية الشيخ الفقيه العدل ، مما لم تجر العادة ان يصدر من المصنفين ، هذا فضلا عن الترحم عليه ، مما يشير الى وفاته ، ويوضح أن ذلك ليس من تعبيــر المــؤلـــف .

والمتبادر ان هذه الفقرة الاولى صدرت من كاتب النسخة التى نقلت منها مخطوطة تنبكتو ، حيث وقع الفراغ من النسخة الاولى فى 17 صفــر عام 866 بمدينة جـــدة .

ومما يؤيد هذا ان خاتمة مخطوط مكتبة عارف ، خالية من ذكر هذا التاريخ ومدينة جدة بالمرة ، وهو واقع مخطوطة أخرى خاصة .

اما الوهم الثالث الذي وقع للاستاذ المنوه به ، فهو اعتماده الطبعة القديمة لكشف الظنون ، وهى قد كررت ذكر الروض المعطار مرتين ، غير ان الطبعة الجديدة (10) ، انما ذكرت هذا الكتاب مرة واحدة ، فسقــط بذلك افتراض نفس الاستاذ لوجود كتابين باسم الروض المعطار .

ومن هنا نتبين ان هذا الاسم انما هو لكتاب واحد ، كما تبينا — قبلا — ان تاريخ تاليفه ليس عام 866 هـ . ونبينا — اولا — ان المؤلف إنما عاش إلى صدر المائة الهجريـــة الثامنة ، وانه من مدينة تونس.

وهنا رواية اخرى عن بلد المؤلف يتبناها المقري (11) ، وهو يقطـــع بانه اندلسى ، فى نقل يعقب عليه بقوله : « فانه اقعد بتاريخ الاندلس ، اذ هو منهم ، وصاحب البيت ادرى بالذي فيـــه » .

وللتوفيق بين الروايتين ، يمكن ان اصل الحميري من الاندلس ، ثم نزح عنها هو او اسرته ضمن الجاليات الاندلسية المتوافدة على مملكــة الحفصين ، فاستوطن عاصمتها ودرس بهــا .

الربـــاط محمـــد المنونـــى

---

10) مطبعة وكالة المعارف باستنبول عام 1360 هـ / 1941 م ، وهى التى صورتها مكتبة المثنى ببغداد .

11) « نفح الطيب » المطبعة الازهرية المصرية ج 2 ص 527 .



وفاة سمو الأميرة للا نزهة

خلفت وفاة سمو الاميرة الجليلة للا نزهة اصداء واسعة من الاسى والحزن في جميع بقاع المملكة المغربية ، لما عرفت به الراحلة الكريمة من لطف في المعاملة ، ورقة في الاحساس ، وطيبوبة متناهية ، وقد خفت الجماهير الغفيرة ، والحشود الكبيرة لتشييع جنازة الفقيدة في جو من الخشوع ، معربة عن حزنها والمها في هذه الفاجعة ، وتعبيـــرا منهـــا عن الروابط العميقة التي جمعت دوما الاسرة المالكة بالشعب ، وعن مدى تعلقه بالعرش العلوي المجيد .

تغمدها الله بواسع رحمته ، وأسكنها فسيح جناته . وانا لله وآنا اليه راجعـــــون .

المؤتمر الخامس للمجمع العربي للموسيقى

احتضن المغرب فى الفترة ما بين 9 ذي القعدة 1397 الى غاية 14 منه ، الموافق 22 ـ 27 اكتوبر 1977 المؤتمر الخامس للمجمع العربي للموسيقى ، وقد افتتح هذا المؤتمر الاستاذ محمد العربي الخطابي وزير الاعلام ، نيابة عن الاستاذ السيد الحاج محمد أبا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الذي تعذر عليه الحضور ، بسبب وفاة المرحومة شقيقته ، بمشاركة مندوبة جامعة الدول العربية الدكتورة طلعت الرفاعي ، ورئيس المجمع العربي للموسيقى الاستاذ صالح المهدي ، وامين المجمع العربي للموسيقى الاستاذ منير بشير عبد العزيز ، وبحضور اعضاء الوفود العربية المشاركة فى المؤتمر ، وبعض الوزراء فى حكومة صاحب الجلالة ، وسفراء الدول العربية المعتمدين بالرباط وعدد من الصحفيين والمهتمين بالميادين الثقافية والموسيقية والفنية .

وفيما يلي نص خطاب السيد وزير الاعلام :

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

السيدة مندوبة الجامعة العربية

السيد الأمين العام المجمع

السيدة نائبة الرئيس

سيداتى سادتى اخوانى

اللهم ألهمنا السداد فى الأقوال والتوفيق فى الأعمال .

تعلمون أن صديقنا الأستاذ الكبير السيد الحاج محمد أبا حنينى ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، قد رزىء فى عزيزة عنده هى شقيقته تغمدها الله برحمته ، ولذلك تعذر عليه حضور حفلة الافتتاح والقاء كلمته البليغة فيها .

واننى لعلى يقين ، أنكم تشاطروننى جميعا عواطفى ، اذ أعرب لصديقنا الوزير عن أصدق تعازينا سائلين الله سبحانه أن يتغمد الفقيدة برحمته الواسعة وأن يرزق ذويها الصبر والسلوى.

بعد هذا ، أود أن أرحب بكم أصدق الترحيب ، باسم حكومة صاحب الجلالة الملك الحسن الثانى ، ونيابة عن الاستاذ أبا حنينى ، متمنيا لمؤتمركم الخامس التوفيق والنجاح .

ان الموسيقى الشعبية كالأدب الشعبى وشعر الزجل والملحون ، صوت صادق من أصوات الشعوب ، يترجم عن حياتها ، ويعرب عن آمالها وأحلامها ومطامحها ، ويعبر عن أحزانها الصغيرة ، وهو تراث يستحق منا العناية والصيانة والاهتمام .

ان العالم العربى ، يزخر بثروة عظيمة من المأثورات الشعبية التى تتميز بالتنوع والأصالة وصدق التعبير ، وهى جزء

من تراثنا الثقافى الذى نعتز به ، ويطلب منا الحفاظ عليه ، ودراسته ، والتعريف به ، وتجديد أساليبه .

والمغرب ، الذى يسعد اليوم باستضافة هذا المؤتمر الخامس للمجمع العربى للموسيقى ، يملك تراثا من الموسيقى والغناء الشعبيين ، تطبعهما الاصالة والتنوع ، فموسيقى الصحراء ، وسوس ، وشعاب الاطلس ، والريف ، وسهول الغرب ، وزيان ، وأزمور ، تدل دلالة واضحة على تنوع التراث الموسيقى الشعبى ، كما تدل على أصالته وعراقته والتحامه التاريخى بتراث البلاد العربى الشقيقة .

وقد حافظ المغرب بحرص واعتزاز ، على الموسيقى الاندلسية الموروثة عن حضارة العرب فى الاندلس — وأقول الموسيقى المغربية اكراما لأستاذنا الكبير السيد محمد الفاسى (— وهو معنا فى هذه القاعة —) ، الذى يعتبر هذه الموسيقى مغربية ، وهو محق فى ذلك الى حد كبير ، لأن المغرب قد أضفى عليها من روحه وأصالته ما جعلها بحق جزءا أثيرا من تراثنا .

ان الموسيقى الشعبية عامل من عوامل التعارف والوئام وتوطيد السلام بين الشعوب ، ولذلك يجب الحفاظ عليها

و لتعريف بها . وموسيقانا الشعبية ما تـزال فى حاجـة الـى دراسة وتجلية واستبار ، كما أنهـا فى حاجـة الى المزيـد من التعريف بها ولا سيما بين أجيالنا الشابة الصاعدة .

لا أريد أن أطيل عليكم . وانى لأتمنى أن يسفر مؤتمركم هذا عن نتائج ايجابية ، وأدعو لكم بالتوفيق ، وأرجو لكم مقاما طيبا فى هذا الجزء من وطنكم العربى الكبير . والسلام عليكـم ورحمـة اللـه .

∴

وبعد ذلك تناولت الكلمة ممثلة جامعة الدول العربيـة الدكتـورة طلعت الرفاعي ، والسيدة عائشة صبري ، نائبة رئيس المجمـع العربـي للموسيقى ، والسيد منير بشير أمين مجمع الموسيقى العربية ، حيث شكر جميع المتحدثين المغرب ، ملكا وحكومة وشعبا ، على استضافته لهذا المؤتمر ، وتمنوا لهذه البلاد مزيدا من التقدم والازدهار .

وفى الختام تقرر اسناد رئاسة المؤتمر الى السيد رئيس الوفـد المغربي ، الدكتور عباس الجراري .

وبعد جلسة الافتتاح ، اقامت وزارة الدولة المكلفـة بالشـؤون الثقافية حفلة شاي على شرف أعضاء الوفود المشاركة ، ثم افتتح معرض الآلات الموسيقية الشعبية المغربية ، والكتب والمخطوطات المقام ببهـو الوزارة بهذه المناسبة .

وقد استمرت اعمال المؤتمر ثمانية أيام متتالية ، تنـاول خلالهـا المؤتمرون بالبحث والدرس والمناقشة ، جل البحوث التي تقدمت بهـا

الدول المشاركة ، كما أصدر كل التوصيات المنبثقة عن تقارير اللجان الخمس .

وتميز نشاط أعضاء المؤتمر ، بحضور عدة سهرات موسيقية وفلكلورية ، أحياها كل من جوق المعهد التطواني ، ومعهد فاس للطرب الاندلسي ، وجوق بوزبع لطرب الملحون ، والتقتوقة الجبلية ، وأحيدوس ، والنغمة الامازيغية ، وفرقة امينتانوت للاهازيج الشعبية ، والكدرة الصحراوية .

وعند نهاية أعمال المؤتمر نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية للمشاركين رحلة سياحية الى كل من فاس وافران ومكناس ، بقصد الاطلاع على معالم المغرب الطبيعية والحضارية والتاريخية .

وتجدر الاشارة الى أن الدول المشاركة في هذا المؤتمر هي :

الامارات العربية المتحدة ، البحرين ، الجمهورية التونسية ، المملكة العربية السعودية ، الجمهورية العربية السورية ، الجمهورية العراقية ، قطر ، الكويت ، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية ، جمهورية مصر العربية ، جمهورية الصومال الديموقراطية ، الجمهورية العربية اليمنية ، جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية ، بالاضافة الى المغرب ، وملاحظ عن جامعة برلين الغربية .

برقية شكر وامتنان من أعضاء الوفود المشاركة في المؤتمر الخامس للموسيقى الى حضرة صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله

يغتنم المؤتمر الخامس للمجمع العربي للموسيقى مناسبة انعقاده بالرباط ، ليرفع الى حضرة صاحب الجلالة الحسن الثاني ، باسم وفود

الدول العربية المشاركة ، أصدق آيات الشكر والامتنان ، لمـــا لقيـــه المؤتمرون من رعاية وحسن استقبال وكرم ضيافة ، مقدرين فى جلالته مواقفه المثالية والايجابية على الصعيد العربي والاسلامي والدولـــي ، ومعتزين برعايته للفن وأهله ، راجين من الله أن يمد فى عمر جلالته ، حتى يحقق مزيداً من الازدهار لشعبه ، ومزيدا من العزة للعروبة والاسلام، وأن يحفظه فى ولي عهده وسائر اسرته الشريفة .

مادبة عشاء
تكريماً لأعضاء الوفود المشاركة في المؤتمر

بمناسبة انعقاد المؤتمر الخامس للمجمع العربي للموسيقى ، أقام وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية مأدبة عشاء على شرف الوفـــود المدعوة لهذا المؤتمر ، حضرها أعضاء من الحكومة ، وممثلون عن الهيئة الدبلوماسية ، وعدد كبير من رجال الفكر والثقافة والصحافة .

لقاء مع وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية
الحاج محمـــد أبا حنيني
وحوار عن الثقافة .. والأدب .. والكتاب .

يسر « المناهل » أن تنقل الى قرائها هذا الاستجواب الذي أجرته مجلة « الفيصل » السعودية ، مع السيد الحاج محمد ابا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، والذي صدر فى العدد الثالث منها .

* * *

قليلون جدا ــ ان لم يكونوا ندرة ــ الذين لا يعرفون الاستاذ الحاج محمد أبا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافيـــة فى المغـــرب الشقيق داخل بلاده .

فهو شخصية قريبة الى نفس كل مواطن مغربي .. ومتواجد فى كل المناسبات التي تقام فى بلاده .. كما أن له صداقاته فى أرجاء الوطـــن العـــربـــي .

عمل فى سلك القضاء .. وما زال قاضيا فى المجلس الاعلى للقضاء فى بلاده .. وهو أعلى مجلس للقضاء .. ويمثل محكمة النقـــض .. أو التمييز حسب اصطلاح المشارقة العرب .

دعاه الملك محمد الخامس والد الملك الحسن الثاني (ملك المغرب اليوم)لاعطاء دروس فى اللغة العربية .. والادب العربي بالمعهد (المولوي) فى ذلك الوقت .. هذا المعهد الذي كان يتلقى فيه ولي العهد (الملـــك الحسن الثاني) وأخوه الامير مولاي عبد الله دروسهما ... وهو يشعر بالسعادة لانه أسهم فى تعليمهما ... كما أسهم فى تعليـــم الاميرتيـــن (للا عائشة .. وللا ملكة) ... وكان ذلك فى أصعب ظروف يمر بهـــا المغرب أيام كان الاستعمار يحتل المغرب .. ومقاومـــة الملـــك محمد الخامس لهذا الاحتلال الاجنبي .. نفاه الاستعمار الى جنوب المغرب ... لكنه عاد اليها مع عودة الملك محمد الخامس من منفاه بعد استقـــلال المغرب فأسند اليه مهمة الامانة العامة لاول حكومة مغربية مستقلة ... وكثرت مسؤولياته ... وتعددت المهام التي كلف بها ...

أستقبل بعثة مجلة « الفيصل » برحابة صدر ... وأعطى تعليماته للجهات المختصة فى وزارته بتسهيل مهمتها العلمية فكانوا جميعـــا على مستوى المسؤولية .

— ❀ —

وفى مكتبه بالوزارة أجري معه الحوار السريع:

مشاكل الكتاب العربي :

الكتاب العربي فى المشرق والمغرب على السواء يعاني عددا من المخانق ... او المشاكل المختلفة التي تحد من انتشاره ليس فى العالم ... بل فى الوطن العربي ... وبين اقطاره ـ المتقاربة والمتباعدة ... هذه المشاكل أوجدت حاجزا من الجهل قاد الى بعد الصلات .. وعدم معرفة المثقف فى المشرق العربي بالحركة الثقافية فى المغرب العربي .

كانت هذه القضية هي بداية حوارنا مع الاستاذ الحاج محمد ابا حنيني وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية فى المغرب الشقيق .. وقد سالناه :

هل هناك حلول معينة تتصورونها معاليكم (شخصيا) بصفتكم أحد المفكرين فى العالم العربى من ناحية .. (ورسميا) بحكم مركزكم القيادى فى وزارة الثقافة فى المغرب العربى من ناحية أخرى ؟

وكانت اجابة معاليه .

« يسرني قبل كل شيء أن ارحب اجمل ترحيب بمجلة « الفيصل » وان احيي أصدق تحية طلوعها القريب .

واني كمسؤول فى الحكومة المغربية التي تصلها بحكومة المملكة العربية السعودية امتن الصلات واقواها ، وكمثقف عربي يعتز بكل طريف يضاف الى التليد من اسباب التعريف والتثقيف لاتمنى لمجلة « الفيصل »

التي تحمل اسم علم لامع من اعلام العرب والمسلمين ، العمر المديـــد والنجاح المستمر الوطيد .

وبعد فقد كنت اود ان توجه الي بوصفي وزيرا للشؤون الثقافية في المغرب اسئلة تستوضح ما تقوم به الوزارة من عمل ثقافي فى اطار المغرب وخارج هذا الاطار . فلو أن الاسئلة قصدت الى الحصول على اجوبة خاصة بما تم انجازه عندنا لحد الآن وبما تعتزم الوزارة انجازه فى المستقبـــل لاطلعتك على الجهود المبذولة قصد التنظيـــم القانوني والاداري للوزارة وقصد الانطلاق من منطلق هذا التنظيم نحو تحقيق الاهداف المرسومـــة للعمل الثقافي فى حدود المغرب وفيما وراء هذه الحدود .

ولكني ساحاول جهد المستطاع تلبية الرغبة المعروضة فى السؤال.

لا اعلم بصورة دقيقة وعلى وجه الاستيعاب ما يلاقيه الكتاب العربي من مشاكل فى الاقطار العربية الا أنني أعلم أن الكتاب المغربي لا يروج فى البلاد العربية الشرقية على النحو المطلوب والعلة فى ذلـــك ان كتابنـــا ومؤلفينا لا تتوفر لهم الآن وسائل ترويج الانتاج الثقافـــي المغربـــي فى الاقطار الشقيقة ، فلو اتيح لجميع مؤلفاتنا ان تطبع فى الشرق العربـــي لتيسر انتشارها ولوقف اخواننا العرب على ما ينتجه المغاربة ، يضاف الى هذا ان أشقاءنا المشارقة لا يكلفون أنفسهم عناء البحث عما نصنفه من تصانيف ولا يتجشمون مشقة السعي وراء ما نسهم به فى تشييد صرح الثقافة العربية ، ويظهر أن من شان اهتمام دور النشر بالمغرب ـ وهي دور خاصة ـ بترويج الانتاج المغربي فى نطاق المغرب وفى غير هـــذا النطاق ، واهتمام الباحثين والدارسين المشارقة بهذا الانتاج ، ان يفضيا متآزرين الى الغاية المقصودة » .

تنسيــق ثقافــي عربــي :

من حين لآخر ترتفع أصوات تدعو الى ايجــاد تنسيــق ثقافى عربى . . أو وجه من وجوه هذا التنسيق يخدم ثقافتنــا العربية . . ثم تصمت هذه الأصوات لتعود مرة أخــرى الــى هــذه الدعــوة .

عن هذه النقطة أجاب الوزير المغربي من خلال تصورات معاليــه كمسؤول قائلا :

«اننا بحكم عضويتنا فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبحكم ما نحرص عليه من اسهام فى جميع الملتقيات العربية وبحكم ما يربطنــا بالاقطار العربية من روابط المعاهدات الثقافية نعمل بكل ما فى وسعنا على ان يتسم العمل الثقافي العربي بسمة الاتساق ويتصف بصفة الانسجام ، ولا شك فى ان جهودا منظمة هادفة سارية على خط مستقيم من القصــد والعقل والجد ، خليقة بان ننظر اليها بعين التقدير والاكبار » .

التحــديــات ... العــالميــة :

وحين سألنا معاليه فيما اذا كان المفكر العربى قد استطاع أن يقوم بدوره كاملا فى مواجهة التحديات العالمية التــى تقف فى وجــه الوطن العربى أجاب :

« اذا انت استعرضت التحديات العالمية وبعبارة ادق التحديــات الغربية وجدتها أصنافا متعددة لا يسهل على امة مثل أمتنا تتناول الظلماء بالتبديد وتلتمس طريق السلامة وتحاول بلوغ السؤدد والمجد أن تغالبها

وتفوز فى ظرف من الزمن قصير بالفلج والغلبة فى جميع الميادين.ولا مرأء فى ان الفكر العربي واعني بالفكر العربي سائر ما وهبت الامة العربية من طاقة عقلية وقوة نفسية واصرار على استخدام المواهب والكفايات ، يقصد الى تدارك النقص واللحاق بالركب ومنافسة المجلين ومباراة السابقين ، ان الفكر العربي بهذا المفهوم اخذ يتحرك وطفق هنا وهناك بعد الوعـــي والادراك يوالي الخطوات التي تنشا عنها الاجيال المتحررة من الرواسب تحررا عميقا وشاملا ، على أن أوجب ما علينا هو أن نفحص أسباب النقص فحصا شديدا وبليغا ونعالج أنفسنا من بعض الادواء الكامنة فى طواياهـــا ونخلص ضمائرنا من الشوائب والاكدار التي يتخذها خصومنا اداة لتوهين عزائمنا ، فاننا ان أمعنا فى استقراء أسباب الضعف بنزاهة وتصدينـــا لعوامل التوهين بتفويض حازم واستئصال جاد ، قاطعون ولا شك للمراحل الضرورية وبالغون لا محالة الشاو الذي تهواه القلوب السليمة)) .

الادب العـــالمـــــــــى :

كثيرة هي الاحاديث التي تناولت قضية الادب العالمي .. وماهيته.. وكثيرة هي المواصفات التي وضعها الكتاب لمفهوم العالميـــــة فى الادب بحيث أصبحت هذه القضية واحدة من القضايا التي تثار من حين لآخر .

عن هذه القضية سألنا الاستاذ أبا حنيني .. هل هناك مواصفات لما يمكن أن يسمى بالادب العالمي ؟ .. وهل صحيح ما يردده البعض من ان الادب العربي ما زال ادبـــا .

* * * الى أى حد استطاع المفكر القيام بدوره فى مواجهة التحـــديـــات العـــالميـــة ؟

هـــل فى الامكـــان ايجـــاد تنسيـــق ثقافـــى عربـــى ؟

محليا لما يقوى بعد على الاجتياز والوصول الى مرحلة العالمية ؟

« ان الادب العالمي هو فيما اعتقد الادب الصالح لكل امة ولكل زمان، وهو الادب الذي يقراه العربي وغير العربي فيجد فيه كل قارىء كيفمـــا تقلبت به الاحوال وحيثما وجد من مكان او زمان ، التعبير الصادق عما يلازم الطبيعة البشرية والجبلة الانسانية على اختلاف العصور والاجناس من مشاعر ثابتة واحساسات دائمة ولا جدال فى أن آدابنـــا العربيـــة القديمة آداب يكثر فيها الادب العالمي ، ويكفي ان نتصفح فصولا مـــن النثر العربي او دواوين من شعرنا لنتبين صدق هـــذا الراي ، واذا كان ادبنا المعاصر تتسم بعض آثاره بالسمة المحلية فقد ظهر منذ نهضتنا فى الشعر بصورة خاصة محاولات تريد ان تتجاوز النطاق المحلي الى ما وراء ذلك من ساحات عالمية » .

صياغـــة التـــراث العربـــى :

اما التراث .. وهو يمثل أهم قضايانا الفكرية المعاصـــرة قبـــولا موضوعيا .. ورفضا سلبيا .. ووسطا بين القبول .. والرفض .. فقد تناول الحديث مع معالي وزير الدولة المكلف باشؤون الثقافية الاستاذ الحاج محمد أبا حنيني عنه من زاوية معينة .. وهي كيفية احياء .. واعادة صياغته بشكل معاصر من منظوره الخاص .

قـــال معاليـــه :

« المهم فيما يتصل بالتراث العربي هو احياؤه ، اما اعادة صياغته بشكل معاصر فاني اتوجس منها خيفة فقد تؤدي الى مسخ وتشويـــه لا نرضاهما لتراثنا ، واحرص ما يجب أن نحرص عليه أن تتكتل جهود الامة العربية لجعل تراثنا فى متناول القراء والباحثين والدارسيـــن ، على ان جهود العلماء العرب المنتشرين فى الاقطار العربية قد يسر الله لها ان تضع فى أيدي اولئك وهؤلاء من العرب وغيرهم جملة صالحة من ذخائر التراث العربي ، وما دام احياء هذا التراث أمرا ضروريا فاني لا أستصعب تنظيمه فى كل قطر عربي باتصال مع المنظمة العربية للتربية والثقافـــة والعلـــوم » .

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية تنعي الشاعرين مفدي زكرياء وادريس الجائي

اصدرت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بلاغين نعت فيهما الشاعرين الكبيرين : مفدي زكرياء ، وادريس الجائي .

ونورد فيما يلي نص البلاغيـــن :

يؤسف بالغ الاسف وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، فقدان الشاعر المبدع الكبير مفدي زكرياء الذي اشتهر بشاعر المغرب العربي ، لما امتاز به شعره من جلال فى اللفظ ، وجمال وروعة فى المعنى ، ولما تحلى به من بطولة وطنية اكسبته شيوعا وذيوعا فى العالم العربي ، حتى عد بحق فى صف شعراء الجهاد المبدعين الخالدين ، الذين الهبوا الثورة باقلامهم ضد المستعمر الغاصب ، وذاق فى سبيل كفاحه المستمـــر الاضطهاد والنفي والتشرد والسجن .

وقد اختار المغرب وطنا له ، فعاش فى كنفه وبين اهله مكرما مبجلا يغني امجاده وانتصاراته وبطولاته ، ويمجد عبقرياته ورائعاته ومواقفـــه الوطنية التي خلدها فى ديوانه الاخير « من وحي الاطلس » خصوصـــا المواقف الوطنية المقدسة الكبرى التي وقفها صاحب الجلالة الملـــك المعظم الحسن الثاني نصره الله فى سبيل عزة المغرب ونخوته وتقدمه ووحـــدة ترابـــه .

* * *

ونثبت فيما يلي مقتطفات من الخطاب الذي القاه السيد الحاج محمد ابا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، فى الحفل التكريمي الذي اقامه على شرف الراحل الكريم ، بتاريخ 20 جمادى الاولى 1396 الموافق 19 ماي 1976 بمناسبة صدور ديوانه « من وحي الاطلس » ..

هذه المقتطفات تعبر اصدق تعبير وادقه عن مكانة الشاعر ، وروعة الحانه ، وصلابة جهاده ، وقوة وطنيته ، وعمق ايمانه بالقضايا الوطنية ، والمثل العليـــا :

« عرفتك اخي زكرياء يوم عرفتك شاعرا طائر الصيت ذائع الذكر تنطلق الحانك واغانيك منتحية كل ناحية من نواحي الروعة والجمـــال وينجذب سجعك وهديلك الى رواء الرفض والاباء ونضارة الذود عن اعز واغلى ما تذود عنه النفس المترعة بكريم المشاعر وسنـــي المطامـــح ، وابتليت بما يبتلى به ارباب الكلمة التي تستجاش بها النفوس وتحول بها الافئدة من حال الى حال وتحرك بلهيبها الهمم والعزائم ويبدل بتاثيرها وجه التاريخ ، وكان للاعتقال فى نفسك ما يكون عادة فى نفوس المؤمنين من صبر واحتمال وثبات على اقدس ما يشد اليه القلب من مثل ومبادىء على ان الاعتقال الذي اريد به اخماد الضرام واسكات الصيحة وصرف الهم والوكد الى الانزواء والانقباع كان سببا من اسباب التفجر والاندلاع وذريعة من تلك الذرائع التي تتاح للضمائر الحية والنفوس المشبوبة الثريـــة

لارسال الشرارة بعد الشرارة واذكاء الثورة بعد الحماسة واتباع القصيد الملتهب بالنشيد الفائر المصطخب ...

وزاد قائلا : ... وصرت بعد ذلك تحضر وتغيب وترحل وتقيم الى ان آثرت بالمقام هذا البلد على غيره واتخذت هذا الوطن مستقرا تلذك باستمرار معاشرة بنيه الذين لمست ايثارهم لك بالمودة والاعجاب وطفقت بعد السكينة والاطمئنان تعي كل كبيرة وصغيرة من شؤون هذه المملكـــة التي تتقدم كل يوم خطوات وترتفع كل يوم درجات وتبسط الوسائـــل والاسباب طلبا لجاه يمتد ويستطيل وابتغاء لمجد جديد يضاف الى مجد اثيل ، وكان كل بناء يعلو ، وكل صرح يمرد وكل مكرمة تنتسق فى عقـــد النظام وكل عمل من الاعمال التي لا يخطىء البصر مرماها ولا يستعصي على الادراك مدلولها وجدواها كان كل هذا غذاء سائغا لقريحة تمرست بالاحساس العميق وارتاضت لافانين القول وأصناف البيـــان ، فرحـــت تغني طروبا للعود الغض حين يخضل وحين يورق وللزهر يوم يتبـــرج فيونق وللثمر عندما يطل ثم يدرك وللغاية التي ينتهي اليها المطاف ويطيب على بلوغها الاخذ والاقتطاف .

وما من قضية من قضايانا التي اهتزت لها مشاعرنا اهتزازا الا كان لها فى نفسك الاثر البليغ والصدى البعيد وفى قصيدك ونشيدك ما ينبىء باتحاد شعورك وشعور اصفيائك وأحبائك المغاربة ويدل على انك خلقت لتمجيد البطولات وفطرت على الوفاء للعهود والرعاية لأذمة القرابة والجوار.

وهكذا اجتمعت فى ديوانك الاخير « من وحي الاطلس » حصيلـــة احساس مرهف وحصيلة حب ووفاء وتمسك باسمى القيم وحصيلة تكريم وتمجيد لعبقرية قائد البلاد المؤيد المنصور صاحب الجلالة الحسن الثاني وعبقرية شعبه السائر فى وضح حكمته وهدايته وحصيلة بيان ينميك الى زمـــرة الفحـــول من الشعـــراء ...

* * *

الشاعـر ادريـس الجائـي في ذمـة اللـه

باسف شديد ، وحزن عميق ، تنعي وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية الشاعر المبدع ادريس الجائي الذي يعد غيابه عنا خسارة جسيمة مني بها الشعر المغربي المعاصر .

فقد كان الفقيد يعتبر من رواده المبدعين الذين اعطوه أنفاسا ونبرات مبتكرة جديدة .

عاش المرحوم عيشة الشعراء فى جميع أطوار حياته : بين القراءة والكتابة ، وتوجيه الناشئة ـ من منبر الاذاعة ـ توجيها فكريا أصيلا ، الى أن ألف حوله جيلا من تلامذته والمعجبين به .

كما كان لنشاطه الادبي ـ بصفة عامة ـ اثر واضح المعالـم فى انعاش وازدهار الحركة الفكرية بالمغرب ، بما كان يبدع ، ويبوح ، ويغني ويؤلف ، ويوجه ، ويرشد .

وقد خلف الفقيد حصيلة ادبية تعد ثروة لابداعنا الفكري . فقد كان رحمه الله يتتبع احداث المغرب القومية والوطنية ويعيشها ، وينفعل معها انفعال الشاعر الصادق الحسن والوجدان ، فكانت تلهمه روائع القصائد فى الوطنيات ، وفى الاشادة بالاعمال الكبرى لراعي البلاد صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله . وقد تضمن ديوانه ((السوانح)) بعض هـذه القصائـد .

رحم الله الفقيد ، واسكنه فسيح جناته ، وعزاء وصبرا جميـلا لذويـه ، وانا لله وانا اليه راجعون .

وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية يعقد جلسة عمل بعمالة مراكش

فى اطار انعقاد المؤتمر الثامن للآثار بمدينة مراكش الذي تحدثنا عنه فى العدد الماضي ، عقد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية بتاريخ 3 فبراير 1977 جلسة عمل مع السادة أعضاء المجلس البلدي للمدينة المذكورة ، نثبت فيما يلي رؤوس مواضيعها . ولم نتمكن من ادراجها فى العدد الماضي لكثرة مواده :

تحدث السيد الوزير باسهاب عن دور الثقافة فى تنوير الاذهان ، واعطى بعض التعريفات المحددة لمفهوم الثقافة ، ثم ناقش معاليه رغبات اعضاء المجلس البلدي التي ترمي الى اصلاح المآثر والعناية بهـا ، والشروع فى انجاز المجمع الثقافي واحداث خزانة بـه ، ومساعدة الجمعيات الثقافية ، خصوصا المسرحية منها ، كما تحدث معاليه عن احداث مدرسة للفنون الشعبية ، واصلاح مسجد « تنمل » بتعاون مع وزارتي الاوقاف والاشغال العمومية ، واعادة المخطوطات والتحف الخاصة بمدينة مراكش الى خزانتها العامة ، وتزويدها بالكتب الحديثة ، واقامة أسابيع ثقافية خاصة برجالات مراكش ، والعناية بمدينة أغمات ، واقامة مهرجان لدفينها الشاعر المعتمد ، واعداد تصميم للمدينة بالتعاون مع وزارة السكنى .

ودامت هذه الجلسة اكثر من ساعتين .

ديوان العباس بن الأحنف

صدرت عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية طبعة مصورة على الاوفسيت لديوان العباس بن الاحنف ، الذي قامت بتحقيقه الدكتورة عاتكة الخزرجي . ويقع فى 323 صفحة من القطع المتوسط .

ويشتمل الديوان على قصائد مرتبة القوافي على أحرف الهجاء ، رسم فيها الشاعر صورا من مغامراته العاطفية ، ضمنها احساساته وانفعالاته الوجدانية بلغة سلسلة عذبة .

ويعد هذا الديوان اسهاما من الدكتورة عاتكة الخزرجي ، فى اخراج الشاعر من طي النسيان ، وانصافه من الحيف الذي لحق به مدة غير يسيرة من الزمن ، وابراز نزعته الشعرية التي تأثر بها كثير من الشعراء .

وتظهر أهمية تحقيق هذا الديوان وشرحه جلية فى تصويب جانب غير يسير من الاخطاء التي ظهرت فى المصادر المعتمدة ، وفى اثبات الاختلافات الكثيرة فى رواية الابيات .

المختار من شعر شعراء الاندلس

كما صدر عن الوزارة كتاب ((المختار من شعر شعراء الاندلس)) الذي صنفه أبو القاسم علي بن المنجب بن سليمان الصيرفي . ويقع فى 113 صفحة من القطع المتوسط .

والكتاب يضم مختارات شعرية لعدة شعراء اندلسيين ، انتقاها المصنف بذوق الناقد المتفحص ، تتخللها بعض المقتطفات النثرية لبعض مشاهير أدباء الاندلس كابن شهيد وابن اللبانة وغيرهما .

وقد قام بتحقيق هذا الكتاب الاستاذ البحاثة هلال ناجي ، وقدمه لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى نطاق الدراسات والابحاث التي توصلت بها بمناسبة الاحتفال بالذكرى الالفية لميلاد الشاعر الاندلسي ابن زيدون .

مشاركة المغرب في المهرجان السنوي الشعري لستروكة

« الحرية » هذه الكلمة التي قد تعد أغلى واغنى كلمة فى قاموس الشعوب على اختلاف الوانها ونزعاتها ... هي الشعار الذي تحرك حوله ، هذه السنة ، المهرجان السنوي ، « أمسيات ستروكا الشعرية » الذي تعود أن ينعقد ، صيف كل عام ، على ضفاف بحيرة ستروكا بولاية مقدونيا، احدى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي ، وذلك بدعوة من اتحاد أدباء هذه الولاية .

وقد امتاز مهرجان هذه السنة بكونه كان بالنسبة للمهرجانات السابقة ، أدق نظاما من الناحيتين المادية والمعنوية ، (ترتيبات ، اقامة المؤتمرين ، تنظيم مراحل المهرجان ، توسيع نطاق مصلحة الترجمة الآنية ...) كما كان أقوى واهم من حيث تمثيل البلدان المشاركة (ثلاثون دولة رسمية من مختلف أنحاء المعمور ، من بينها خمس دول عربية) .

ولعل من بين أهم ما تناوله المؤتمر من موضوعات تهم الادب ، والشعر بصفة خاصة ، موضوع العقبات التي تقوم فى وجه انتشار الشعر انتشارا عالميا من دولة الى دول ، ومن محيط الى محيطات ... لذلك أقر المؤتمر بالاجماع ملتمسا قرر تقديمه الى اليونسكو يتعلق بفتح مركز أو مراكز للترجمة ، تحت اشراف هيئة من كبار الشعراء ذوي الكفايات الادبية واللغوية المرموقة .

وقد يكون هذا الاقتراح كما لوحظ فى صالح ادب العالم الثالث أكثر مما هو فى صالح غيره ، نظرا لان هذا الادب ما يزال فى جملته مغمورا لحد الآن ، رغم اشتماله على روائع ذات طابع انساني عميق ورقيق.

ولعله ، اذا اتيحت له مثل هذه الفرصة يستطيع أن يقفز الى أعلى ليجد له المكانة اللائقة به ، الجديرة بتطوره وازدهاره .

وقد تأتى للمؤتمرين ، وهذا هدف من أهداف المهرجان البعيدة أن يشهدوا عن كتب الاشواط التي قطعتها مقدونيا فى سبيل نشر لغتها لا فى داخل مقدونيا فحسب ، بل وحتى خارج هذه الولاية التي لا تدخر جهدا لتجعل من لغتها لغة علم وأدب وحياة رغم كل ما يحف بها من عراقيـــل ومعوقـــات !

هذا وقد مثل الشاعر علي الصقلي وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى هذه التظاهرة الادبية الذائعة الصيت ، مشاركا بقصيدتين اثنتين . الاولى تحت عنوان « الحرية البتراء » والثانية بعنوان « انــا والحريــــة » .

بلاغ
من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
حول "جائزة المغرب" لسنة 1977

ان جائزة المغرب لسنة 1977 ستمنح فى نهاية السنة الحالية . وستعين الوزارة لجنة التحكيم من بين الاساتذة المختصين ، وذلك بناء على محتويات الكتب المرشحة لنيل الجائزة .

وسيقفل باب الترشيحات فى الساعة الثانية عشر زوالا من يـــوم السبت 19 نوفمبر 1977 .

وعلى من يرغب فى الاطلاع على الشروط المطلوبة قانونا ان يعود الى القرار الوزاري رقم 75474 المؤرخ ب 17 شعبان 1394 (5 شتنبر 1974) والصادر بالجريدة الرسمية عدد 3230 ، أو أن يتصل بمصلحة الانتـــاج الثقافي والمكتبات التابعة لوزارة الدولة المكلفة بالشـــؤون الثقافيـــة ـ شارع غاندي ـ الربـــاط .

مجمع اللغة العربية بالقاهرة يعلن عن مسابقة في موضوع الدكتور محمد كامل مفكراً وأديباً

يسر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، أن تحيط الكتاب والباحثين المغاربة علما ، بأن مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد أعلن عن مسابقته الادبية لسنة 1977 ـ 1978 في موضوع : « الدكتور محمد كامل حسين ـ عضو مجمع اللغة العربية ، مفكرا وأديبا » ، على حسب الشروط الآتية :

1) أن لا يكون النص قد سبق تقديمه لاية جائزة او درجة علمية .

2) اذا كان النص مطبوعا يشترط أن لا يكون قد مضى على نشره اكثر من سنة في 31 مارس 1978 ويرسل المتسابق تعهدا لتحقيق هذين الشرطين .

3) المسابقة مفتوحة للكتاب العرب الذين لم يسبق لهم الحصول على جائزة مجمع اللغة العربية في السنوات السابقة .

4) لصاحب النص الذي لم يفز أن يسترد نسختين مما قدمه .

هذا ويرسل المتسابق أربع نسخ مكتوبة على الآلة الكاتبة باسم أمين مجمع اللغة العربية ـ 26 شارع الدكتور طه حسين بالجيزة . وذلك في ظرف مسجل مكتوب عليه « المسابقة الادبية » . وآخر أجل لقبول النصوص هو 31 مارس 1978 مع العلم انه قد خصصت لهذه المسابقة ثلاث جوائز هي :

- مائتان وخمسون جنيها مصريا للفائز الاول .
- مائة وخمسون جنيها للفائز الثاني .
- مائة جنيه للفائز الثالث .

الشاعر الاسباني فِيثِنْطِي اَلِكْسَنْدِرِي مَرْلُو يفوز بجائزة نوبل للآداب 1977

عندما منحت الاكاديمية السويدية جائزة نوبل للآداب 1977 للشاعر الاسباني فيثنطي الكسندري ، وصفت شعره بانه يتسم بالاحاسيس

الانسانية ، والرحابة العالمية ، بالاضافة الى التأثير الذي تركه في أجيال الشعراء الاسبانيين المحدثين ، ولما امتاز به من أصالـــة ، وابـــداع ، ووضـــوح رؤيـــة .

وينتمي الشاعر الكبير الى ما يسمى بجيل 27 ، الذي يضم ألمـــع شعراء اسبانيا : فدريكو كرثينا لوركا ، ورفائيل البرتي ، ودامسو ألونصو ، وخيراردو دييكو ، وبدرو سالينانس ، وخورخي كيين ، ولويس ثيرنودا، ومنويل ألطو لكيري ، وسواهم من أعمدة النهضة الشعرية في اسبانيا ، الذين دفعوا الشعر الاسباني الى الآفاق العالمية .

ولد الشاعر ألكسندري بمدينة اشبيلية في يوم 26 أبريل 1898 ، ومنها انتقل طفلا الى مدينة مالقا ، حيث درس القانون في جامعتهـــا . ولهذه المدينة في نفس الشاعر ذكريات حميمة ، سجلها شعرا في ديوانه : « ظل الفردوس » الذي صدر في سنة 1944 . وقد أكسبه هذا الديوان شهرة واسعة ، امتدت الى خارج حدود بلاده . وفي سنة 1933 أحـــرز جائزة الدولة في الآداب عن ديوانه « الهلاك أو الحب » الذي يعتبر من روائع دواوينه . وأجمل قصائده كما يقول النقاد الاسبانيون قصيدتـــه « تعالى ، دائما تعالي » التي سجلت مرارا على الاسطوانات ، وتنشد في الاسمار الادبية ، والندوات الشعرية في اسبانيا .

وفي سنة 1949 عين عضوا بالمجمع الملكي الاسباني . اشتغـــل بالمحاماة في العاصمة الاسبانية مدة طويلة ، ثم تركها ، واعتزل الناس ، وخلد الى الوحدة ، والتفكير ، والتأمل ، وكتابة الشعر في بيته الموجود على بعد أربع كيلو مترات من قلب مدريد ، والواقع في شارع فيلينكطونيا رقم 3 – باركي موتريبوليطانو ، حيث يزوره – هناك من حين الى حين – أصدقاؤه من أدباء وشعراء وصحفيين ومعجبين . ظل طوال حياته أعزب، كما لم يعرف عنه أنه كتب شعرا موزونا مقفى ، بل كان دائما يكتب الشعر الحـــر أو المنثـــور .

وقد سبق لهذه المجلة ، أن ترجمت احدى قصائده مع نبذة عـــن حياته ، وذلك في عددها الخامس .

من أشهـــر دواوينـــه :

« سيوف كشفاه 1932 » ، « الولادة الاخيرة 1953 » ، « تاريـــخ القلب 1954 » .

وهو رابع الادباء الاسبانيين الذين أحرزوا جائزة نوبل :

خوسي اتشكراي : 1904

خثينطو بنافينتي : 1922

خوان رامون خيمنث : 1956

ونثبت فيما يلي ، صورة من خطه وامضائه ، ماخوذة من رسالة موجهة من الشاعر الى صديقه محمد الصباغ ، الذي تربطه به صداقة قديمة تعود الى أوائل الخمسينات ، حيث كانت بينهما مراسلات ومطارحات أدبية . وقد كتب ألكسندري مقدمة للترجمة الاسبانية لكتاب « شجرة النار » للصباغ ، الذي صدر فى سنة 1954 :

Madrid, 3-7-54

Mi querido Sabbag: Ya sabe Vd. que me acuerdo de usted siempre, y recibo siempre noticias suyas con alegría. Ahora me llega su carta escrita directamente en español, con esa espontaneidad en que puedo reconocerle a Vd. Es Vd. el mismo que cuando me escribe en árabe y le traduce Trina. ¡Siempre, siempre es usted!

Le recuerdo mucho y hablo con mis amigos de Vd. como uno de los más interesantes poetas jóvenes árabes. No me olvide. Recuérdeme en sus charlas con Trina. Adiós querido Mohammad, le manda un abrazo de su amigo

Vicente Aleixandre

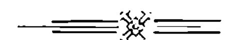


تصــدرهـــــا :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة

زنقة غاندي ــ الرباط ــ المغــرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du
MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)
Tél. : 318-91/92/93

مطبعة فضالة ــ المحمدية (المغرب)